اداب الرافدين

تصدرها كلية الآداب في جامعة الموصل



ذكرى أبي تمام

العدد الثالث

كانون الاول ١٩٧١

طبعت بمطابع

مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر - جامعة الموصل

في هذا العدد

مقدمة

في حياة امتنا ــ شأن غيرها من الأمم ــ رجال عظام: أدباء ومفكرون، نفخر بهم ونحتفي بذكراهم ونعنى بآثارهم. على أن غناء أمتنا من شعرائها الذين احتسبوا في الخالدين وبنوا صرح تاريخنا الأدبي جد كبير. ومنهم الشاعر العربي حبيب بن أوس الطائي المكنى ابا تمام.

ولسوف تقرأ هذا العدد الخاص بذكراه، ثم تخرج بأنه شمخ بمذهب شعري جديد في القرن الثاني للهجرة لم يبلغ شأوه أحد، شادته موهبة نادرة انطوت على أصالة في مزج فني بين ضروب التصنيع المألوفة والتلوين العقلي والحسي، مع روعة في الأداء ودقة في التصوير وعمق في المعاني.

وكان لهذا المذهب القدح المعلى في نضج حركة النقد العربي وتحديد مناهجه بما أثاره من أوار بين مخاصم إياه ومنتصر له، لم يخمد حتى يومناهذا.

وحقاً، إن شعره مشدود الى روح العصر الذي عاش فيه: فاتصل برجال عصره من خلفاء ووزراء وكتاب، وصور البطولة الاسلامية في صراعها مع الروم البيزنطيين، كما أرخ ثورة بابك الخرمي ومقتل الأفشين ومازيار، وغيرها من الأحداث، وغدت أنماط الثقافة آنذاك ــ على تعدد مناحيها وسعتها ــ حلية يتحلى بها ويعرضها في شعره عرضاً فنياً جديداً. ولما كان نضو أسفار فان ملامح أصيلة من البيئات المتعددة التي طوف فيها ليحتضنها شعره.

وهو ــ بعد هذا وذاك ــ انسان أصيل طموح. كافح منذ نعومة أظفاره ليحصل على بلغ من صبابة العيش تسعفه للاختلاف الى حلقات العلم

ومجالس الأدب .

ومن هنا، كان من الوفاء لهذا الشاعر الكبير أن نحفل بذكراه ونخلدها في مهرجان أدبي .

ولا يفوتنا، هنا، أن نقدم شكرنا الجزيل للأساتذة الذين بادروا للاسهام ببحوثهم في هذا العدد على الرغم من ضيق الوقت وقصره الذي منحوه لتقديمها وبعد ...

نرحب بالضيوف مفكرين وأدباء، الذين وفدوا للمشاركة في المهرجان من أرجاء الوطن العربي ، ونقول لهم :

أهلا بكم في الموصل، موئل الفكر والأدب .

أبو تمام والفن الشعري

الدكتور عمر الطالب

فنه الشعري في ميزان النقد :

عني ابو تمام عناية كبيرة بالشعر العربي برمته. اذ جمع الشعر العربي في كتب الحماسة وغيرها . وكان هذا الاطلاع على الشعر العربي من العوامل التي ادت الى صقل ذوقه الفني بالاضافة الى حسه الفني وصفاء عقله . مما جعل ابا تمام يجيد قول الشعر في جميع الفنون فنبغ في الشعر وعد افضل ثلاثة من المولدين وهم المتنبي والبحتري «١» . وهو اسبق الثلاثة ومنهم من يفضله على صاحبيه «٢» .

ويعد ابو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدثين انتهت اليه معاني المتقدمين والمتأخرين فكان لثقافته الاثر الكبير في ذلك اذ ترجمت في عصره الكتب اليونانية والفارسية والهندية فزادت عقله ادراكا ولطفت من خياله بالاطلاع عليها . وهو الذي مهد طريق الحكم والامثال للمتنبي وابي العلاء وغيرهما «٣» . ولذلك كان يقال : ان ابا تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري .

والسبب في جودة شعر ابي تمام، أنه يأتي في تضاعيف الرؤى مباينا لما يليه فيظهر فضله . والمطبوع الذي هو في مستوى الشعر قليل السقوط لانه لايبين جيده عن سائر الشعر ومن اجل ذلك صار جيد ابي تمام معلوما ومعروفا . ويقول الامدي : «نظرت في شعر ابي تمام والبحتري في سنة سبع عشرة وثلاثمائة واخترت جيدهما وتلقطت محاسنهما ثم تصفحت شعرهما بعد ذلك على مر الاوقات فما من مرة الا وانا الحق في اختيار شعر البحتري مما لم اكن اخترته من قبل . ومما علمت اني زدت في اختيار شعر ابي تمام ثلاثين بيتا على ماكنت اخترته

---

(١) محمد عبدالمنعم الخفاجي ، ديوان الحماسة ، ص ٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص٧ .

(٣) احمد الهاشمي ، جواهر الادب ، ج١ ص١٩١ — ١٩١ .

قديما»«١». والسبب في ذلك ان شعر ابي تمام قد اكتسب شكلا لم يعهده العرب من قبل في شعرهم لما يحتويه من اساليب التفكير اليوناني . ولم تبرز هذه الظاهرة في شاعر عربي بروزها في شعر ابي تمام . كما ان اسلوب تفكيره يختلف عن اسلوب تفكير شعراء العرب . لانه مثقف مطلع على الفلسفة اليونانية . وان اثر هذه الثقافة قد صبغ تفكيره بصبغة تظهره غريبا ، وهذا ماجعل النقاد يختلفون في الحكم على شعره . فاكثر الامدي من سيئآته بينما اكثر الصولي من حسناته . ومن يمعن النظر في شعره يجد ان شعره اقرب الى الفكر العميق وانه ، بتعقيده ، غير مألوف بالنسبة للقارىء العادي لانه يكسو معانيه بالصنعة حتى عادت ابياته الحكمية لاتفهم الا من النحاة والفقهاء والعلماء والفلاسفة «٢»

كما ضمن شعره معاني مبتكرة والفاظا رائقة وامثالا وحكما. فهو شاعر مبدع القيت اليه زعامة الشعر فقد كان هو وابن الرومي يتعمقان الثقافة وينزعان الى التفكير ويؤثران المعاني العميقة والآراء البعيدة. وكان ابو تمام يعد الشعر صناعة دقيقة فقد كسا معانيه رونقا جديداً لم تهتد اليه جماعة المتقدمين . واقتدى به المتاخرون وكان الحسن بن رجاء يقول: ما رأيت قط اعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من ابي تمام . وسئل البحتري عنه فقال: مداحة نواحة. ولابي تمام من الشعر الذي يتمثل به ويجري على السنة العامة وكثير من الخاصة ، مائة وخمسون بيتا كما احصاه بعضهم. وقال بعض العلماء بالشعر لما سئل عن ابي تمام: كأنه جمع شعر العالم فانتخب جوهره. وكان يقال: في طي ثلاثة: حاتم في كرمه وداؤد الطائي في زهده وابو تمام في شعره. وقال له ابن الزيات: يا ابا تمام انك لتحلي شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسنا على بهية جواهر في اجياد الكواعب وما يذخر لك شيء من جزيل المكافأة الا ويقصر عن شعرك في الموازاة. وسمع ابراهيم بن العباس الصولي ابا تمام ينشد شعرا له في المعتصم . فقال

(١) الامدي ، الموازنة ، ص ١ ه — ٢ ه .

(٢) خضر الطائي ، ابو تمام ، ص ٨٢ .

له : يا ابا تمام، امراء الكلام رعية لاحسانك . وكان محمد بن حزم الباهلي يقدم ابا تمام ويفضله ويقول: لو لم يقل الا مرثيته التي اولها:

اصم بك الناعي وان كان اسمعا   واصبح مغني الجود بعدك بلقعا

والا قوله:

لو يقدرون مشوا على وجناتهم   وجباههم فضلا عن الاقدام

لكفى «١» .

وقال ابو يوسف . وكان فيلسوف العرب : هذا الفتى يموت قريبا «٢» وكان ابو تمام يختار الفاظه واسلوبه اختيارا دقيقا ويصوغه صياغة خاصة مصبوغة بالوان الترف والزخرف واصباغ البديع المتعددة التي عرفها شعراء القرن الثالث بذوقهم وعقلهم. فابو تمام شاعر مبدع القيت اليه زعامة الشعر من جميع الشعراء في عصره فكان لطيف الفطنة دقيق المعاني غواصا على ما يستصعب منها . وهو متكلف الا انه يصيب . وشغله المطابقة والتجنيس. جزل المعاني في مدحه ورثائه لا في غزله ولا في هجائه.

وطارت له امثال وحفظت له اقوال ولا يتعلق بجيده. جيد امثاله، اما رديئه فمرذول مطروح. وهو رأس في الشعر ومبتدىء لمذهب سلكه كل محسن بعده. فلم يبلغه فيه. فهو اكثر الشعراء بديعا وافتنانا وصنعة في شعره. الا ان مصنوعه جيد يشبه ان يكون مطبوعا. ولحلاوة شعره ودقة اسلوبه خفيت الصنعة فيه كثيرا «٣». ويرى البعض ان ابا تمام لا يعد في نظر اهل العصر الحاضر مثلا اعلى للشعر لانه لم ينقل في شعره كثيرا من صور العواطف التي كانت تجيش في صدر المجتمع في ذلك الحين ولم يكن كأبي العلاء حرا في ابداء ما يختلج في نفسه من المعاني ولا شجاعا في بيان ما يعتقده حقا «٤».

---

(١) ملحم ابراهيم الاسود، ديوان ابي تمام ؛ ص٤، ٥–٨ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان، ص ١٢١ .

(٣) محمد عبدالمنعم الخفاجي ؛ديوان الحماسة ، ص١٣ — ١٤ .

(٤) المصدر السابق، ص١٤ .

وقد قال الامدي في حديثه عن ابي تمام : سمعت ابا علي محمد بن العلاء السجستاني يقول :

انه ليس له معنى انفرد به واخترعه الا ثلاثة معان وهي قوله :

تأبى على التصريد الا نائلا الا يكن ماء قراحا يمذق
نزرا كما استكرهت عائر نفحة من فأرة المسك التي لم تفتق

وقوله :

بني مالك قد نبهت خامل الثرى قبور لكم مستشرفات المعالم
رواكد قيس الكف من متناول وفيها على لاترتقى بالسلالم

وقوله

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود
نولا اشتعال النار فيما جاورت ماكان يعرف طيب عرف العود

ولست ارى الامر على ما ذكره ابو علي بل ارى ان له — على كثرة ما اخذه من اشعار الناس ومعانيهم — مخترعات كثيرة وبدائع مشهورة وانا اذكرها عند ذكر محاسنه، باذن الله «١» .

وهذا رأى الامدى اكثر من شهر سلاح النقد في وجه ابي تمام. وقوله اعتراف بفضل ابي تمام وتفوقه في الفن الشعرى فكيف بمريديه واصدقائه والنقاد الموضوعيين؟ وسبب مهاجمة ابي تمام من قبل البعض يعود الى ان العرب قوم لا يقيدون النفس في الشعر باكثر مما يقيده هذا الفن على اصوله وهم يريدون للشاعر ان يقول ما يحس ويذهب في ذلك في غير مراعاة لما قاله غيره على شروط اربعة :

جودة الالة، اصابة الغرض المقصود، صحة التأليف والانتهاء الى نهاية الصنعة من غير نقص فيها ولا زيادة عليها «٢» .

---

(١) الآمدي ، الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ، ج ٢ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) البهبيتي، ابو تمام ، ص ١٨٨ .

وقد استملح كثير من القدماء شعر ابي تمام. ويذكر ابن المعتز في كتابه «طبقات الشعراء» مجموعة كبيرة من شعره الجيد كداليته في المأمون التي اولها:

كشف الغطاء فاوقدى او اخمدى

وهي اشهر من الفرس الابلق وكل مطالع القصائد التي تذكر هنا.

وقوله: واني المنازل انها لشجون

= سرت تستجير الدمع خوف نوى غد

= متى انت عن ذهلية القوم ذاهل

= اصغى الى البين معترا فلا جرما

= دمن الم بها فقال: سلام

= بدلت عبرة من الايمـــاض

= الحق ابلج والسيوف عوارى

وقوله: السيف اصدق انباء من الكتب

= خشنت عليه اخت بني خشين

= خذى عبرات عينك من زماع

= يوم الفراق، لقد خلقت طويلا

ولو استقصينا ذكرى اوائل قصائده الجياد التي هي من عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابنا هذا لان الرجل كثير الشعر جدا ويقال: ان له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة واكثر ما له جيد. والرديء الذي له انما هو شيء يستغلق لفظه فقط. فاما ان يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا «١».

ولابي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي اراء طريفة في جودة شعر ابي تمام ذكرها في كتاب شذرات الذهب «٢».

وسئل الشريف الرضي عن ابي تمام والبحتري والمتنبي فقال: اما ابو تمام فخطيب مثير واما البحتري فواصف جؤذر واما المتنبي فقائد عسكر.

---

(١) ابن المعتز، طبقات الشعراء ص ٢٨٤ – ٢٨٦.

(٢) الحنبلي. شذرات الذهب، ج٢، ص ٧٤.

وقال ابن الاثير في كتاب المثل السائر يصف الثلاثة: وهؤلاء الثلاثة هم: لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على ايديهم حسناته ومحسناته وقد حوت اشعارهم غرابة المحدثين وفصاحة القدماء وجمعت بين الامثال السائرة وكلمة الحكماء. اما ابو تمام فرب معان ... وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على اثر فهو غير مدافع عن مقام الاغراب الذي يبرز فيه على الاضراب ولقد مارست الشعر كل اول واخير لم اقل ما اقول فيه الاعن تنقيب وتنقير فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه اطاعته اعنة الكلام وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام. فخذ مني في ذلك قول حكيم وتعلم ففوق كل ذي علم عليم «١».

وسئل المتنبي عن ابي تمام فقال: انا وابو تمام حكيمان والشاعر البحتري «٢». اراد المتنبي ان يسلك مسلك ابي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر ما اعطاه ولكنه حظي في شعره بالحكم والامثال «٣».

قال ابن الاهدل: كان يحفظ اربعة الاف ارجوزة غير القصائد والمقاطع «٤» وقال الكندي للخليفة بعد ان مدحه:

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء اياس

اتشبه الخليفة باجلاف العرب؟ فقال: نور الله — سبحانه — اشبه بمصباح في مشكاة للتقريب.

فقال للخليفة: اعطه ما سأل فانه لا يعيش اكثر من اربعين يوما لانه قد ظهر في عينيه الدم من شدة الفكر وقيل: قال: انه يموت قريبا او شابا فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: رايت فيه من الذكاء والفطنة ما علمت ان النفس الروحانية تأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده فقال له الخليفة: ما تشتهي؟ قال: الموصل: فاعطاه اياها فمات سريعا. «٥»

جاء في كتاب الموازنة بين الطائيين: ان دعبلا قال عن ابي تمام: ان ثلث

---

(١)—(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر، ص٧٣.

(٥) الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٢ص٧٣و ٧٤.

شعره محال وثلثه مسروق وثلثه صالح. وقال: ما جعل الله ابا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنثور اشبه منه بالشعر. وقال ابن الاعرابي في شعر ابي تمام: ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل. فاجاب صاحب ابي تمام: ان دعبلا كان يشنأ ابا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور فلا يقبل قول شاعر في شاعر. واما ابن الاعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابة مذهبه ولانه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه فكان اذا سئل عن شيء منها يأنف ان يقول: لا ادري فيعدل الى الطعن عليه«١».

ويقول صاحب ابي تمام: لسنا ننكر ان يكون صاحبنا قد وهم في بعض شعره وعدل عن الوجه الاوضح في كثير من معانيه، وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج وولد من البدائع ما ولد ان يلحقه الكلال في الاوقات والزلل في الاحيان، بل من الواجب لمن احسن احسانه، ان يسامح في سهوه. ويتجاوز له عن خطئه، وما رأينا احدا من شعراء الجاهلية سلم من الطعن. ولا من المتأخرين المحدثين، وما كان احد من اولئك وهؤلاء مجهول الحق. ولا مجحود الفضل بل عفت احسانهم على اساءتهم وتجويدهم على تقصيرهم.

وكيف ما كان الامر لا تستطيعون ان تدفعوا ما اجمع عليه الرواة والعلماء ان جيد ابي تمام لا يتعلق به جيد امثاله. واذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن اغفال رديئه واطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب في انه اشعر شعراء عصره «٢».

وقد انشد البحتري ابا تمام شعرا له «اي للبحتري» فاستجاده ابو تمام واعترف البحتري بفضل أبي تمام عليه وانه هو الذي علمه الطريقة التي يكون بها شاعرا فذا، وهنا علينا ان نذكر الوصية التي قدمها ابو تمام للبحتري فهي عبارة عن اراء لابي تمام في نظم الشعر واسلوبه واوقات نظمه.« قال البحتري: كنت في حداثتي اروم الشعر وكنت ارجع فيه الى طبعي. ولم اكن اقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه حتى قصدت ابا تمام وانقطعت

(١) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ص٩١و٩٢.
(٢) المصدر السابق، ص ٩٣.

فيه اليه واتكلت في تعريفه عليه فكان اول ما قال لي: يا ابا عبادة. تخير الاوقات وانت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم ان العادة جرت في الاوقات ان يقصد الانسان لتأليف شيء او حفظه في وقت السحر وذلك ان النفس قد اخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وان اردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشيقا واكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الاشواق ولوعة الفراق فاذا اخذت في مدح سيد ذي اياد فاشهر مناقبه واظهر مناسبه وابن معالمه وشرف مقامه ونضد المعاني واحذر المجهول منها واياك ان تشين شعرك بالالفاظ الرديئة ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجساد واذا عارضك الضجر فارح نفسك ولا تعمل شعرك الا وانت فارغ القلب واجعل شهوتك الى الشعر الذريعة الى حسن نظمه. فان الشهوة نعم المعين. وجملة الحال ان تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين فما استحسن العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه. ترشد ان الله. قال البحتري: فاعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة «١».

ويقول زكي مبارك: يجب الا نفتن بهذا القول وان نفهم ان جماله يرجع الى انه سخرية تدل على براعة وذكاء. فاذا جازلنا ان نلوم الشعراء على اسفافهم حين يطمعون في عطايا الملوك فان للشاعر رسالة يؤديها الى العالم هي فهمه العميق لاسرار الجمال «٢».

ولا اجد في رأي ابي تمام اية سخرية لان الجمال الفني ينبع دائما في طبيعة القصيدة ووحدتها العضوية والمناسبة التي تقال فيها وكل هذا ذكره ابو تمام في نصيحته للبحتري وان لم يكن يعرف انذاك معنى الوحدة العضوية.

وقد عرض البحتري شعره على ابي تمام بعد ان ذهب اليه الى حمص فقال له: انت اشعر من انشدني. فكيف حالك؟ فشكا اليه حاله فكتب الى اهل

---

(١) زكي مبارك، الموازنة بين الشعراء ص١٢٦.

(٢) زكي مبارك، النثر الفني، ص٢١.

معرة النعمان يشهد له بالحذق ويوصيهم باكرامه .قال البحتري : «فاكرموني بكتابه ووظفوا لي اربعة الاف درهم فكانت اول مال اصبته» «١» .

وقال البحتري: انشدت ابا تمام شيئا من شعري فانشدني بيت اوس بن حجر :

اذا مغرم منا ذرى حدنا به تخمط فينا ناب اخر مقدم

وقال : نعيت الي نفسي فقلت : اعيذك بالله من هذا ! فقال : ان عمري ليس يطول وقد نشأ لطيء مثلك . اما علمت ان خالد بن صفوان المنقري رأى شبيبة بن شبة وهو يتكلم — وهو من رهطه — فقال : يابني نعى نفسي الي احسانك في كلامك . قال : فمات ابو تمام بعد سنة من هذا «٢» .

ومن هنا نرى ان البحتري تأثر بابي تمام واخذ عنه اشياء كثيرة ومن جملة ما اخذ نضرب هذه الامثلة .

قال البحتري يصف الغيث محيطا بالدار :

وجاءك يحكي يوسف بن محمد فروتك رياه وجادك قاطره

يقول الحاتمي : ان هذا مأخوذ من قول ابي تمام :

وبيوتها في القلب نوى شفه وله بظاعنها وبالمتخالف

وكأنما استسقى لهن محمد من سومهن من الحيا في زخرف

وكذلك قول البحتري :

لو ان مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسعى اليك المنبر

مأخوذ من قول ابي تمام :

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب

لو سمعت بقعة لاعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب

وكذلك قوله :

ثناء تخال الروض فيه منورا ضحى وتخال الوشي فيه منمنما

انما اخذه من قول ابي تمام :

حلوا بها عقد النسيم ونمنموا من وشيها نشرا لها وقصيدا «٣»

---

(١)—(٢) زكي مبارك ، الموازنة بين الشعراء ص ١٢٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

ومثل ذلك كثير في كتب الادب «١» .

وجاء في الاغاني في تفضيل ابي تمام ما نصه :

سمعت محمد بن عبدالملك الزيات يقول : اشعر الناس طرا الذي يقول :

وما ابالي وخير القول اصدقه   حقنت لي ماء وجهي اوحقنت دمي

فاحببت ان استثبت ابراهيم بن العباس وكان في نفسي اعلم من محمد وآدب فجلست اليه وكنت اجري عنده مجرى الولد فقلت له : من اشعر اهل زماننا فقال : الذي يقول :

مطر ابوك ابو اهله وائـل   ملأ البسيطة عدة وعديـدا

نسب كان عليه من شمس الضحى   نورا ومن فلق الصباح عمودا

ورثوا الابوة والحظوظ فاصبحوا   جمعوا جدودا في العلى وجدودا

فاتفقنا على ان ابا تمام اشعر اهل زمانه .

اخبرني محمد بن يحيى الصولي وعلي بن سليمان الاخفش . قالا : حدثنا محمد بن يزيد النحوى قال : قدم عمارة بن عقيل بغداد فاجتمع الناس اليه فكتبوا شعره وشعر ابيه وعرضوا عليه الاشعار فقال بعضهم : هنا شاعر يزعم انه اشعر الناس طرا ويزعم غيرهم ضد ذلك فقال : انشدوني قوله فانشدوه :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد   وعاد قتادا عندها كل مرقد

وانقذها من غمرة الموت انه   صدود فراق لاصدود تعمد

فاجرى لها الاشفاق دمعا موردا   من الدم يجرى فوق خد مورد

هي البدر يغنيها تورد وجهها   الى كل من لاقت وان لم تورد

ثم قطع المنشد فقال له عمارة : زدنا من هذا فوصل نشيده فقال :

ولكنني لم احو رمزا مجمعا   ففزت به الا بشمل مبـرد

ولم تعطني الايام نوما مسكنا   الذ بـه الا بنوم مشـرد

(١) المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ص٧–٨ ، الصولي، اخبار ابي تمام ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٧٦ ، ٧٧ .

فقال عمارة : لله دره ! لقد تقدم في هذا المعنى من سبقه اليه على كثرة القول فيه ، حتى لقد حبب الاغتراب ، هيه ، فانشده :

وطول مقام المرء في الحي مخلق   لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة   الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

فقال عمارة : كمل والله ، لئن كان الشعر بجودة اللفظ وحسن المعاني واطراد المراد واتساق الكلام فان صاحبكم هذا اشعر الناس «١» . وهناك امثلة كثيرة من هذا النوع في الاغاني «٢» .

وفي فضل ابي تمام يقول الامدي :

وجدت اهل الصنعة من اصحاب البحتري ومن يقدم مطبوع الشعر دون متكلفه لايدفعون ابا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها والابداع والاغراب فيها والاستنباط لها ويقولون : انه وان اختل في بعض مايورده «منها» فان الذي يوجد فيها من النادر المستحسن اكثر مما يوجد من السخيف المسترذل وان اهتمامه بمعانيه اكثر من اهتمامه بتقويم الفاظه على شدة غرامه بالطباق والجناس والمماثلة وانه اذا لاح له اخرجه بأي لفظ استوى من ضعيف او قوي وهذا من اعدل ماسمعته من القول فيه .

واذا كان هذا هكذا فقد سلموا له الشيء الذي هو ضالة الشعراء وطلبتهم وهو لطيف المعاني وبهذه الخلة دون ما سواها فضل امرأ القيس لان الذي في شعره من دقيق المعاني وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة فوق ما في اشعار سائر الشعراء من الجاهلية والاسلام حتى انه لاتكاد تخلو له قصيدة واحدة من ان تشمل من ذلك على نوع او انواع . ولولا لطيف المعاني واجتهاد امرىء القيس فيها واقباله عليها لما تقدم على غيره ، ولكن كسائر الشعراء من اهل زمانه . اذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم . ولا لالفاظه من الجزالة والقوة ماليس لالفاظهم . الا ترى ان

(١) الاغاني ، ج ١٥ ص ٩٧ .
(٢) الاغاني ، ج ١٥ ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ على التوالي .

العلماء بالشعر انما احتجوا في تقديمه بان قالوا : هو اول من شبه الخيل بالعصى وبالوحش وبالطير واول من قال : «قيد الاوابد » واول من قال: كذا وقال : كذا ، فهل هذا التقديم له الا من اجل معانيه ؟ «١»

وقالوا : واذا كان قد اضطرب لفظ ابي تمام واختل في بعض المواضع فهل خلا من ذلك شاعر قديم او محدث ؟«٢»

هذا الاعشى يختل لفظه كثيرا ويسفسف دائما ويرق ويضعف ولم يجهلوا حقه وفضله حتى جعلوه نظير النابغة والفاظ النابغة في الغاية من البراعة والحسن وعديلا لزهير الذي صرف اهتمامه كله الى تهذيب الفاظه وتقويمها والحقوه بامرىء القيس الذي جمع الفضيلتين فجعلوهم طبقة وصار فضل كل واحد من غير الوجه الذي فضل منه صاحبه ولو ان ابا تمام يخلو من كل لفظ جيد او لو انه قال بالفارسية او الهندية :

واذا اراد الله نشر فضيلـــة طويت اتاح لها لسان حسود
ولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

أو قال :

اهي البدر يغنيها تورد وجهها الى كل من لاقت وان لم تورد

او ما اشبه هذا من بدائعه حتى يفسر لنا ذلك مفسر بكلام عربي منثور اما كان هذا شاعرا محسنا يثابر شعراء زمانه عن اهل اللغة العربية على طلب شعره وتفسيره واستعارة معانيه ؟ فكيف وبدائعه مشهورة ومحاسنه متداولة ولم يأت الا بأبلغ لفظ واحسن سبك ؟ «٣»

ومما يروى من تفضيل ابي تمام قال ابو تمام بعد ان رأى اعرابيا : ياعرابي . اين منزلك ؟ قال : اللهم ، غفرا . اذا اشتمل الظلام فحيثما ادركني الرقاد رقدت ! قلت: فكيف رضاك عن اهل العسكر ؟ قال: لاخلق وجهي بمسألتهم . او ما سمعت قول هذا الفتى الطائي الذي ملأ الدنيا شعره :

---

(١) الامدي، الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ، ص٢٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص٢٩٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩٩ .

وما أبالي .وخير القول أصدقه حقنت لي ماء وجهي او حقنت دمي
قلت: فانا الطائي قائل هذا الشعر، فدنا مبادرا فعانقني وقال: لله ابوك الست الذي يقول:

ما جود كفك ان جادت وان بخلت من ماء وجهي اذا اخلقته عوض

قلت نعم. قال انت والله اشعر اهل الزمان، فرجعت بالاعرابي معي الى ابن ابي دؤاد وحدثته بحديثه فادخله الى الواثق فسأله عن خبره معي فأخبره فأمر له بمال واحسن اليه ووهب له احمد بن ابي داؤد فكان يقول لي: قد عظم الله بركتك علي «١».

وروى ايضا ان ابا العباس عبد الله بن المعتز قال: جاءني محمد بن يزيد المبرد، فافضنا في ذكر ابي تمام، وسألته عنه وعن البحتري فقال: لابي لابي تمام استخراجات لطيفة ومعان طريفة لا يقول مثلها البحتري، وهو صحيح الخاطر حسن الانتزاع وشعر البحتري احسن استواء، وابو تمام يقول النادر والبارد وهو المذهب الذي كان المحبب الى الاصمعي، وما اشبه ابا تمام الابغائص يخرج الدر والمخشلب ثم قال: قال ابو بكر: وقول ابي العباس المبرد «ما اشبهه الابغائص» فانما اخذه من قول الاصمعي في النابغة الجعدي: تجد في شعره مطرفا بالالاف وكساء بواف «٢».

وروى ايضا ان احمد بن سعيد الطائي قال: كان ابن عبد واسماعيل بن القاسم-- وهما علمان من اعلام الكتاب والأدب--يقولان: البحتري اشعر من ابي تمام قال: فذكرت ذلك للبحتري، فقال لي: لا تفعل يا ابن العم فوالله ما اكلت الخبز الا به «٣».

ومن امثلة تفضيله ما جاء في زهر الآداب: ان اباعلي كان جالسا في مجلس كثر فيه ذم ابي تمام والاعلاء من مكانة البحتري فقال ابو علي: وكنت ساكنا الى ان استتم كلامه، ابتدأت فقلت: لست ممن يقعقع له بالشنان قد تقدم ابو تمام الى سبك نضارها وافتضاض ابكارها وجرى البحتري على

(١) الصولي، اخبار ابي تمام، ص٩٢ — ٩٣ .
(٢) المصدر السابق، ص٩٦ — ٩٧ .
(٣) المصدر السابق، ص ١٢٠ .

وتيرة في انتزاع امثالها وابتداعها . هل رأيت مثل قوله في الابتداء :

طلل الجميع لقد عفوت حميدا وكفى على رزقي بذاك شهيدا
دمن كأن البين اصبح طالبا دمنا لدى آرامها وحقودا

وقوله في الاقتضاب :

الحق ابلج والسيوف عوارى فحذار من اسد العرين حذار

وابو تمام وصف القوافي بما لم يستطيع وصفها به احد فقال :

فان انا لم يحمدك عني صاغرا عدوك فاعلم انني غير حامد
بسياحة تنساق من غير سائق وتنقاد في الافاق من غير قائد
محببة ما ان تزال ترى لها الى كل افق واحداً غير واحد
مخلفة لما ترد أذن سامع فتصدر الا عن يمين وشاهد «١»

وقال ابراهيم بن العباس الصولي لابي تمام: الكلام يا ابا تمام رعية لاحسانك، قال : لاني استضيء بنورك وارد شريعتك وكان الطائي مع جودة شعره بليغ الخطاب حاضر الجواب وكان يقال: ثنتان قلما تجتمعان: اللسان البليغ والشعر الجيد «٢».

وكتب الحسن بن وهب الى ابي تمام الطائي : انت — حفظك الله— تحتذي من البيان في النظام مثل ما نقصد نحن في النثر من الافهام والفضل لك — اعزك الله — اذ كنت تاتي به في غاية الاقتدار على غاية الاقتصار في منظوم الاشعار فتحل معقده وتربط متشرده وتضم اقطاره وتجلو انواره وتفصله في حدوده وتخرجه في قيوده ثم لا تاتي به مهملا فيستبهم ولا مشتركا فيلتبس ولا متعقدا فيطول ولا متكلفا فيحول فهو منك كالمعجزة تضرب فيه الامثال وتشرح فيه المقال فلا اعدمنا الله هداياك واردة وفوائدك وافدة وهي طويلة فاجابه ابو تمام:

لقد جلى كتابك بث حب جو واصاب شاكلة الرمي
فضضت ختامه فتبلجت لـي مراميه عن الخبر الجلـي
وكان اغض في عيني نــدى على كبدى من الزهر الجني «٣»

---

(١) زهر الاداب؛ص٦٢٠ .

(٢) زهر الاداب ص٧٢٦.

(٣) المصدر السابق ص٨٤٤

وفي تفضيله ايضا. روى ان ابن المعتز قال: جاءني محمد بن يزيد النحوي فاحتبسته فاقام عندي فجرى ذكر ابي تمام فلم يوفه حقه وكان في المجلس رجل من الكتاب . نعماني ما رأيت احدا احفظ لشعر ابي تمام منه فقال له : يا ابا العباس ضع في نفسك من شئت من الشعراء ثم انظر الحسين ان يقول مثل ما قاله ابو تمام لابي المغيث موسى بن ابراهيم الرافعي يعتذر اليه :

شهدت لقد اقوت مغانيكم بعدي ومحت كما محت وشائع من برد
وانجدتم من بعد اتهام داركم فيا دمع انجدني على ساكني نجد

ثم مر فيها حتى بلغ الى قوله في الاعتذار :

اتاني مع الركبان ظن ظننته لففت له راسي حياء من المجد
لقد نكب الغدر الوفاء بساحتي اذن وسرحت الذم في مسرح الحمد
جحدت . اذن . كم من يد لك شاكلت يد القرب اعدت مستهاما على البعد

فقال ابو العباس محمد بن يزيد: ما سمعت احسن من هذا قط ، ما يهضم هذا الرجل حقه الا احد رجلين: اما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام . واما عالم لم يتبحر في شعره ولم يسمعه.

قال ابو العباس عبد الله بن المعتز : وما مات الا وهو منتقل عن جميع ما كان يقوله مقر بفضل ابي تمام واحسانه « ١ » .

ومما يروى في تفضيله ان محمد بن ابي كامل قال : شهدت ابا تمام الطائي في منزل الحسين بن الضحاك وهو ينشد شعره وعنده اسحاق بن ابراهيم الموصلي فقال اسحاق : يا فتى ، ما اشد ما تتكيء على نفسك ، يعني انه لا يسلك مسلك الشعراء قبله وانما يستقي من نفسه « ٢ » وكذلك يروى ان هارون بن عبد الله المهلبي قال: كنا في حلقة دعبل فجرى ذكر ابي تمام فقال دعبل : كان يتتبع معاني فياخذها فقال له رجل في مجلسه : ما من ذلك اعزك الله ؟ قال: قلت:

---

(٣) انيس المقدسي : امراء الشعر العربي في العصر العباسي ص٢٠٢ .
(٢) المرزباني ، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ص٧٤ .

ان امرأ اسدى الي بشافع ... اليه ويرجو الشكر مني لاحمق

شفيعك فاشكر في الحوائج انه ... يصونك عن مكروهها وهو يخلق

فقال الرجل: احسن والله قال: كذبت قبحك الله قال: والله لئن كان ابتدأ هذا المعنى وتبعته فما احسنت . ولئن كان اخذه منك لقد اجاده فصار اولى به منك قال: فغضب دعبل . قال محمد: وشعر ابي تمام اجود مبتدأ ومتبعا وهو احق بالمعنى ولقد تبع البحتري ابا تمام فقال في هذا المعنى:

وعطاء غيرك ان بذلت عناية فيه عطاؤك «١»

ودخل ابو سعيد المخزومي على اسحاق بن ابراهيم الصعبي فانشده قصيدة وكان حسن الانشاد ثم دخل بعده الطائي فانشده وكان رديء الانشاد فقال الصعبي للطائي : لو رايت المخزومي وقد انشدنا انفا . فقال الطائي : ايها الامير نشيد المخزومي يطرف بين يدى نشيدى «٢».

وقد كان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الامثال ويقول: لو ان صالحا نثر امثاله في شعره وجعل بينها فصولا من كلامه لسبق اهل زمانه. وغلب على مد ميدانه. وهذا اعدل كلام سمعته في هذا المعنى «٣».

وسالت المبرد عن ابي تمام والبحتري: ايهما اشعر ؟ قال : لابي تمام استخراجات لطيفة. ومعان ظريفة. وجيده اجود من شعر البحتري. ومن «شعر من» تقدمه من المحدثين . وشعر البحتري احسن استواء من شعر ابي تمام . لان البحتري يقول القصيدة كلها . فتكون سليمة من طعن طاعن او عيب عائب .وابو تمام يقول البيت النادر ويتبعه البيت السخيف . وما اشبهه الا بغائص البحر يخرج الدرة والمخشلبة فيجعلهما في نظام واحد. وانما يؤتى هو وكثير من الشعراء من البخل باشعارهم. والا فلو اسقط من شعره على كثرة عدده. ما انكر منه لكان اشعر نظرائه . فدعاني هذا

(١) المصدر السابق ، ٢٧٠ .

(٢) ابن المعتز ، البديع ، ص١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص١-٢ .

القول منه الى ان قرأت عليه شعر ابي تمام. واسقطت خواطئه وكل ماذم من شعره. وافردت جيده. فوجدت ما يتمثل به ويجرى على السنة العامة، وكثير من الخاصة مائة وخمسين بيتا. ولا اعرف شاعرا جاهليا ولا اسلاميا يتمثل له بهذا المقدار من الشعر «١»

الصنعة الشعرية عند ابي تمام:

سبب الصناعة عند ابي تمام ثقافته العميقة واتصاله بعلمي المنطق والفلسفة واكثاره من استخدام الادلة المنطقية وهي عنده تستمد من احساسه العميق بتشابك حقائق الكون فيرى بعضها خلال بعض وتتخذ دليلا وحجة «٢» بالاضافة الى ذكاء نادر. ويقص القدماء عن ذكائه قصصا كثيرة، فقد مدح المعتصم فلما انتهى الى قوله:

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء اياس

قال له الكندي: الامير فوق ما وصفت. فأطرق قليلا ثم رفع راسه وانشد:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

فعجبوا من سرعة خاطره «٣»

وهناك امثلة كثيرة عن سرعة بديهته.

وتبدو أجوبته مفحمة اذا سئل. ومن ذلك انه انشد الحسن بن رجاء، فأعجب الحسن بقوله، فوقف في وسط القصيدة اعظاما له، اذ أقسم ليسمعنها واقفا فلما انتهى ابو تمام من انشادها، تعانقا وجلسا، فقال له الحسن: ما احسن ما جليت هذه العروس فقال ابو تمام: والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك لها اوفى مهورها «٤» وقد ابتدع ابو تمام لنفسه نهجا جديدا هو ان تكون الالفاظ الحقيقية والمجازية في يده يتصرف بها ويبتكر، ومن هنا

---

(١) مروج الذهب، ص٦٩-٧٠.

(٢) شوقي ضيف: العصر العباسي الاول - ص ٢٧٨

(٣) الصولي: ص٢٣١؛ امالي المرتضى ج١ - ص٢٨٩

(٤) اخبار الصولي: ص١٧٠

لامه بعض العلماء ، وعدوا عمله هذا عدوانا على اللغة، ولكنه لم يكن يبالي الابما صوره لنفسه « ١ » وهذه العبقرية جعلت اهل بغداد يتعصبون له. وجعلت امثال احمدبن ابي دؤاد وابن الزيات يعدونه اشعر اهل الارض طراً «٢».

وقد امتاز بمذهب في الصنعة سبق به الشعراء وان كانوا قد فتحوه قبله، وقالوا القليل منه . فان له فضل الاكثار فيه، وسلوك جميع طرقه « ٣ ». وهذا رأى الدكتور البهبيتي. ويقول خضر الطائي في كتابه عن ابي تمام ان اول من حلى الشعر العربي بهذه الصناعة هو مسلم بن الوليد « ٤ » وهذا قول معروف ولكن ابا تمام اجاد فيه اجادة تامة بالاضافة الى كونه من المقدمين بحسن الديباجة ، ورقة العبارة واجادة الرثاء « ٥ » ومطلع قصيدته التي يرثي بها محمد بن حميد الطوسي، تعد مثلا اعلى من الرثاء:

الافليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

قال صاحب الاغاني : ان له مذهبا في المطابق ، وهو كالسابق في جميع الشعراء وان كانوا قد فتحوه وقالوا القليل منه ، فان له فضل الاكثار فيه ، والسلوك في جميع طرقه «٦» .

وانكر الامدى هذا الفضل على ابي تمام وقال : ان استكثاره منه ، وافراطه فيه من اعظم ذنوبه واكبر عيوبه «٧» .

وبين ابن رشيق فضل ابي تمام فقال : انه كان يجيد التصنيع «٨» .

اما الجرجاني فذكر ان ابا تمام كان يجمع احيانا المعنى البديع الى الصنعة اللطيفة «٩» واعتبره هو وابا نواس سيدى المطبوعين وامامي اهل الصنعة «١٠» .

وسبب اشتهار ابي تمام في المطابق والمجانس ونسبتهما اليه . لا لانه

---

(١) عبدالعزيز سيد الاهل : عبقرية ابي تمام ص١٠٤، ١٠٥

(٢) الاغاني : جـ١٥، ص٩٧ .

(٣) الاغاني : جـ١٥ - ص ١٠٠

(٤) خضر الطائي : ابو تمام ص٩٩ .

(٥) ابن رشيق : العمدة - جـ٢ - ص ١١١٩ .

(٦) الاغاني جـ٥، ص٩٦

(٧) الموازنة - ص٨

(٨) العمدة، جـ٢ - ص ٣٢

(٩) عبدالعزيز الجرجاني : الوساطة، ص٣١

(١٠) المصدر السابق ، ص٧٩ .

اخترعهما ، فقد طرقهما الشعراء من قبله بل لانهفضل الشعراءجميعا فيه ،واكثر منه ، وسلك جميع شعبه . وكثر الجدل حوله بعد ان بالغ في سلوك هذا السبيل ، فأوقعه هذا الولوع في التعسف والشطط . ولكن النقاد والعلماء الذين يلتزمون بمعايير الكلام ، يعدون ان الجيد من شعره كثير . وانه لايلحقه احد في جيده ولا يشق غباره «١» .

وقد استحال الشعر في يد المولدين الى صناعة يطلب فيها المعنى مع مراعاة تنسيق الالفاظ والزينة فيقابل بين اللفظة وتلك وبين المعنى وقرينه ويلاحظ الرنين والجرس واللين والجفاء وقد يعسر عليه ذلك كما يقول البهبيتي «٢» : فيفضل المعنى على اللفظ فيخشن ويستوحش او يجوز اللفظ على المعنى فينتقص ويغمض ويشتبه الشعر بالفلسفة ويخرج الشعر عن الدائرة التي وضعت له الى دائرة النثر الفني . وهذا قول مردود لان عناية ابي تمام بالتصنيع واتجاهه الى البديع المعنوي دعاه الى الاهتمام بالاستعارة والمجاز والتشبيه وانواع البيان بالاضافة الى اللمسات الرقيقة والشاعرية الجميلة والاحساس المتدفق للكثير من قصائده ، كما بينا سابقا بشهادة النقاد القدامى والمحدثين .

وقال البهبيتي ايضا : انه يعنى بالمقابلة بين معنيين متضادين في البيت ، كحجمان وطوع ورضى ، وغضب ، ومجلبب وفاضل . ولكن ذلك لايؤثر في اتساق البيت وجماله باعتراف البهبيتي فقد روعيت الموسيقى اللفظية واتسعت المقاطع وحفظ التناسب ، كما في هذا البيت :

بمختبل ساج من الطرف احور ومقتبل صاف من الثغر اشنب

فكل كلمة في الشطر الاول تقابلها نظيرتها ومثيلتها في الشطر الثاني مما يدل على قصد واعتماد لذلك «٣» .

ولكن التنسيق والزخرف عند ابي تمام جزء من مشاعره واحاسيسه وكل

---

(١) محمد محيي الدين عبدالحميد : شرح ديوان ابي تمام ص٧ .

(٢) البهبيتي : ابو تمام ، ص ١٨٦

(٣) البهبيتي : ابو تمام الطائي ، ص٨

بيت من ابياته جزء من نفسه فقد روى ابن رشيق : انه استأذن على ابي تمام فوجده ينقلب يمينا وشمالا ، فقال له : هل بلغ بك الحر مبلغا شديدا ؟ قال : لا ، بل غيره . ومكث كذلك ساعة ، ثم قام كأنما اطلق من عقال . فقال : الآن اردت ثم استمد ، وكتب شيئا لم يعرفه ابن رشيق ، ثم قال : اتدري ماكنت فيه منذ الان؟ كنت في قول ابي نؤاس :

كالدهر فيه شراسة وليان

اردت معناه فشمس علي حتى امكن الله منه فصنعت :

شرست بل لنت بل قانيت ذاك بذا   فانت لاشك فيه السهل والجبل «١»

وكان ابو تمام يشقى في بناء واستنباط معانيه ، وكان يشعر بغرابة الفاظه التي يصطادها في اشعاره ، لانه يطلب الاغراب في فنه ، لكي يسبغ على شعره كل ما يمكن من الجمال والروعة .

وقد عاش لصناعته ، ينميها ويزيدها حليا ووشيا وترصيعا «٢» . وصور ذلك في شعره :

خذها مثقفة القوافي ، ربها   لسوابغ النعماء غير كنود
حذاء تملأ كل اذن حكمة   وبلاغة وتدر كل وريد
كالدر والمرجان ألف نظمه   بالشذر في عنق الفتاة الرود
كشقيقة البرد المنمنم وشيه   في ارض مهرة او بلاد تزيد

والدليل على ذلك ، ان من جاء بعده من الشعراء ، قلدوا صنعته ، بعد ان استقرت استقرارا كاملا ، عندما اخذت الفلسفة تتوطد دعائمها ، بعد ان ظفر العقل الاسلامي ، طفرة واسعة فاخذ الشعر العربي يتطور مع الفكر في الوان من التعبير تتطلب لاجمال اللفظة فقط بل عمق الفكر وغدا الشعر فنا يصنع صناعة «٣» . وقد كان للغة السريانية التي نقل عنها العرب الكثير من كتب اليونان اثر في الاساليب ودراسات البلاغة والخطابة والشعر والاهتمام باللفظ والرخص الشعرية ، وتجميل العبارة ، والاهتمام بموسيقى اللفظ

(١) العمدة ج١، ص١٣٩   (٢) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه ، ص٢٢٦ .

(٣) البهبيتي : ابو تمام ، ص١٨٤

والبديع حتى سمعنا ابا تمام يحدث البحتري عن الاستطراد في الشعر ويضرب له المثل «١» .

كما نسمع الخليل والاصمعي قبل ان يكتب ابن المعتز كتابه «البديع» يتحدثان عن المطابقه والوان البديع «٢».

ويقول ابن المعتز في مقدمة كتابه البديع : قد قدمنا في كتابنا هذا بعض ماوجدناه في القرآن من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم ان بشارا ومسلما وابا نؤاس ومن تقبلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم ثم ان حبيب بن اوس الطائي من بعدهم شغف به ، حتى غلب عليه ، وتفرع فيه ، واكثر منه ، فاحسن في بعض ذلك واساء في بعض .

ويقول ابن رشيق : ويزعم بعض المتعصبين ان الذي اكثر في هذا الباب ابو تمام وتبعه الناس من بعده «٣» .

ويقول الجرجاني في حديثه عن الاستعارة : وقد كانت الشعراء تجري على نهج قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه ابو تمام ومال الى الرخصة فاخرجه الى التعدي وتبعه اكثر المحدثين «٤» .

والسبب في ذلك يرجع الى ثقافة ابي تمام الواسعة والى تعمقه الفلسفة اليونانية فهو تلميذ لأرسطو حين يجمل اللفظ وحين يطلب البديع .وان الزينة اللفظية عنده لم تكن الا وسيلة

يستعيض بجمال موسيقاها. وقد اخطأ ابن رشيق حين عارض ابن الرومي في قوله عن ابي تمام: «ان الطائي كان يطلب المعنى ولا يبالي بلفظ حتى لوتم له المعنى بلفظة نبطية لاتى بها » وقال بعض من نظر بين ابي تمام وابي الطيب: انما حبيب كالقاضي العادل يضع اللفظة موضعها ويعطي المعنى

(١) العمدة : ج٢ ؛ ص٣٢ ، ٣٣

(٢) العمدة : ج٢ : ص٧ ، ٨ ، اعجاز القرآن للباقلاني ص٤١ ، ٤٣

(٣) العمدة : ج٢ ، ص٥١

(٤) الوساطة : ص ٣٢٣

حقه بعد طول النظر والبحث عن البيئة او كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج خوفا على دينه . وابو الطيب كالملك الجبار يأخذ ماحوله قهرا او عنوة ، يهجم على مايريده لايبالي مالقي ولا حيث وقع «١» .

والسبب الذي دعا بعض النقاد القدامى والمحدثين الى مهاجمة الشاعر : انه اتى بأشياء لم يألفها العرب في شعرهم فاذا وصف الحلم وصفه برقة الحاشية واذا اراد ان يصف دقة الخصر قال :

من الغيد لوان الخلاخل صورت   لها وشحا جارت عليها الخلاخل

وهم ينكرون ان يكون الخلخال وشاحا والخلخال عندهم شيء ضيق .

وقال الامدي : ان هذا الجسم الذي يتخذ الخلخال وشاحا هو اشبه بجسم الجمل «٢».

وقول الامدي يعتمد على الصراع الذي كان قائما بين القديم والجديد فقد كان العصر العباسي الاول عصر تجدد مادي ونفسي وعقلي فمن البديهي ان لصاحبهم تجددا ادبيا في نمط القصيدة . والثورة على التقاليد الشعرية العربية القديمة بالاضافة الى الامتزاج الدموي والعقلي بين العرب والفرس والسريان والهنود في تلك الامبراطورية العربية المترامية الاطراف . فمن العبث انكار تأثر البديع العربي اذ ذاك بالادبيات الغريبة عنه ، اما اللفظ فقد صفي ونقي وجود وقد استعملت الفاظ مولدة من الفارسية واليونانية واخذ البديع العربي يظهر بمظهر جديد . وقد نشأت هذه المعارضة للشعر الجديد بعاملين : اولهما : الحنين الى الماضي ،وثانيهما : ان ذلك العصر كان عصر الجمع والتدوين لاثار الماضين فاقبل الناس على قراءة القديم واستيضاح معانيه وخصائصه لاقامة حياتهم على ماضيهم والتعصب للقديم خاصة بعد التسلط الاجنبي في عصر المأمون والمعتصم ومابعدهما .

وحدث صراع قوي بين انصار القديم وانصار الحديث لايعتمد على النقد

---

(١) البهبيتي : ابو تمام، ص ٢٠٠

(٢) اخبار ابي تمام، ص ١٠٥، ١٠٦

الموضوعي ، بل على التعصب والعناد فالناس جميعا كانوا يحبون الشعر الحديث والعلماء منهم كذلك وان تعصبوا للقديم . ونجد ذلك في قصة ابن الاعرابي وشعر ابي تمام وفي قصة ابي رياش القيسي وشعر البحتري وغيرهما «١» .

وقد استخدم ابو تمام الوان التصنيع القديمة فاقتدى بمسلم ، ولكن تفوق على استاذه في الاكثار من الوشي والوانه . وقد لاحظ ذلك القدماء ويقول الباقلاني : وربما اسرف ابو تمام في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة حتى استثقل نظمه واستوخم رصفه «٢» .

ولكن ابا تمام استطاع ان يخلق الصور الجميلة عن طريق الجناس ، تلك الصورة التي لم نتعرف عليها من قبل . كقوله في مطلع قصيدة لابن الزيات :

متى انت من ذهلية الحي ذاهل وقلبك منها مدة الدهر آهل
تطل طلول الدمع في كل موقف وتمثل بالصبر الديار المواثل

الى آخر القصيدة .

ويؤيد الدكتور شوقي ضيف موقف ابي تمام في الوان التصنيع التي استخدمها فيقول : انه استخدم طريقتين : الاولى ،متعاقبة لايتعلق بعضها ببعض كما نجد ذلك عند مسلم وعند جماعة من الصناعيين في القرن الثالث من امثال البحتري اما الطريقة الثانية فتمتزج فيها الالوان ويمر بعضها ببعض فتتغير شياتها وهيئاتها كما نجد عند ابي تمام في اكثر احواله «٣» .

كما استخدم الطباق واضاف اليه الصورة والحركة ويشاكل بين الصورة والتصنيع اذ يقول :

اظن الدمع في خدي سيبقى رسوما من بكائي في الرسوم

اذ جعل آثار الدمع في خده كآثار ديار المحبوبة . وكقوله يصف صواحبه :

لآليء كالنجوم الزهر قد لبست ابشارها صدف الاحصان لا الصدفا

(١) الوساطة : ص ٥٠ ، ٥١
(٢) اعجاز القرآن : ص٥٣
(٣) الفن ومذاهبه ص٢٣٠ .

فهن لآلىء متسربلات بالعفاف والطهر «١» .

وقد ذكرت له كتب البلاغة القديمة والحديثة نماذج كثيرة من الجناس والطباق . واستشهدت بابيات من شعره . لتوضيح الموضوعات البديعية . فقد فرع التبريزي من باب التجنيس ضربا سماه التجنيس المستوفي ؛ وهو ان تتشابه الكلمتان لفظا وخطا ، واحداهما اسم والاخرى فعل . وانشد فيه قول ابي تمام :

ما مات من كرم الزمان فانه — يحيا لدى يحيى بن عبدالله «٢»

واستشهد في باب التوهيم اذ قال : ان التوهيم توهيم يوهم انه طباق او تورية او غير ذلك من المحاسن كقول ابي تمام :

تردى ثياب الموت حمرا فما اتى — لها الليل الا وهي من سندس خضر

فان قوله : حمر وخضر يوهم ان ذلك طباقا وليس بطباق اذ الاحمر لايضاد الاخضر فهذا شاهد توهم المطابقة «٣» . كما استشهد في باب المناسبة بقول ابي تمام :

مها الوحش الا ان هات اوانس — قنا الخط الا ان تلك ذوابل

فناسب بين مها وقنا مناسبة تامة وبين الوحش والخط واوانس وذوابل مناسبة غير تامة وهذا البيت من افضل بيوت المناسبة لما انضم اليها فيه من المحاسن فان فيه مع المناسبتين التشبيه بغير اداة ، والمساواة والاستثناء والطباق اللفظي ، وائتلاف اللفظ مع المعنى والتمكين «٤» .

واعتمد ابن الاثير في كتابه (المثل السائر) على ابيات كثيرة من شعر ابي تمام لشرح انواع التجنيس فاخذ للتجنيس الحقيقي قوله :

فاصبحت غرر الايام مشرقة — بالنصر تضحك من ايامك الغرر

(١) الفن ومذاهبه ، ص ٢٣١ .

(٢) تحرير التحبير ، ص ١٠٤

(٣) تحرير التحبير ، ص ٣٥١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٦٨-٣٦٩ .

فالغرر الاولى استعارة من غرر الوجه والثانية من كرم الشيء فاللفظ واحد والمعنى مختلف وكذلك قوله :

من القوم جعد ابيض الوجه والندى   وليس بنان يشتدي منه بالجعد

فاحدهما يصف به السخي والاخر يصف به البخيل «١».

والامثلة كثيرة.

كما اعتمد على ابيات من شعر ابي تمام في المشبه بالتجنيس* كقول ابي تمام :

ايام تدمي عينه تلك الدمى   فيها وتقمر لبه الاقمار

وكقوله :

بيض فهن اذا رمقن سوافرا   صور وهن اذا رمقن صوال «٢»

واستشهد كما استشهد ابن الاثير بالتجنيس المعكوس ما روى عن ابي تمام انه لما قصد عبد الله بن طاهر بن الحسين بخراسان وامتدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

اهن عوادي يوسف وصواحبه   فعزما فقدما ادرك السؤل صاحبه

انكر عليه ابو سعيد الضرير وابو العميثل هذا الابتداء وقالا : لم لا يقول ما يفهم؟فقال : لم لا يفهمان ما يقال؟ فاستحسن منه هذا الجواب على الفور وهو التجنيس المشار اليه «٣».

كما استشهد ابن الاثير على المشبه بالتجنيس المتساوي في الوزن والتركيب مع تقدم الحروف وتأخرها قول ابي تمام :

بيض الصفائح لاسود الصحائف في   متونهن جلاء الشك والريب «٤»

كما استحسن الجرجاني لابي تمام جناسه الناقص :

---

(١) ابن الاثير ، المثل السائر ، ص٣٤٣ — ٣٤٦.

* الشبه بالتجنيس هو ان تكون الالفاظ متساوية في الوزن مختلفة بالتركيب بحرف واحد لاغير .

(٢) المثل السائر ، ص ٣٥٣ — ٣٥٥.

(٣) المثل السائر ، ص٣٥٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص٣٦٠ .

يمدون من ايد عواص عواصم تصول باسياف قواض قواضب «١»

كما اكثر من الطباق المختلف لاظهار معانيه الفلسفية وذلك لصلته بالمنطق والفلسفةوكثرة استخدامه الادلة المنطقية ، كقوله :

هي البدر يغنيها تورد وجهها الى كل من لاقت وان لم تورد

فانظر الى صاحبته فهي تود من لا تود وهو يثبت هذا التضاد الغريب بتلك المفارقة الطريفة. وكان ابو تمام يقصده احيانا ويسميه «توافر الاضداد» فيقول في مديح ابي دؤاد :

قد غرستم غرس المودة والشحناء في قلب كل قاري وبادي

ابغضوا عزكم وودوا انداكم فقروكم من بغضه ووداد

لاغدقتم غريب مجد ربقتم في عراه توافر الاضداد «٢»

وكقوله في وصف الربيع :

لما بكت مقل السحاب حيا ضحكت حواشي خده التلب

فكأنه صبح تبسم عن سحر ضئيل في ضحى شحب

وكقوله :

ياصاحبي تقصيا نظريكما تريا وجوه الارض كيف تصور

تريا نهارا مشمسا قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقمر

فقد امتزجت اصباغ الطباق عند ابي تمام، بهذه الاصباغ الفلسفية الغريبة من توافر الاضداد، وكأنه يحررنا من عقال الزمان والمكان الى عالم طليق من الوهم «٣» .

وقد اطلق انيس المقدسي على ذلك اسم « التأنق البديعي » «٤» في مدح ابي تمام لابن الزيات لأن القصيدة مليئة بالرونق والجمال والصفاء :

---

(١) الوساطة، ص٤٣ .
(٢) الفن ومذاهبه، ص ٢٥٠ .
(٣) المصدر السابق ، ص٥٣ .
(٤) انيس المقدسي ، امراء الشعر، ص١٨١ .

تطل الطلول الدمع في كل موقف ... وتمثل بالصبر الديار المواثل
دوارس لم يجف الربيع ربوعها ... ولا مرخ اغفالها وهو غافل
فقد سحبت فيها السحائب ذيلها ... وقد اخملت بالنور منها الخمائل
مها الوحش الا ان هات اوانس ... قنا الخط الا ان تلك ذوابل

وقد عد صاحب اعيان الشيعة ما يقرب من اربعين نوعا من البديع الذى هو من محسنات الكلام وعد غيره له انواعا اخرى «١» .

واكثر بديعه يأتي عفو الخاطر بلا تعمل ولا قصد يتطلبها المعنى كالطباق والجناس في قوله :

السيف اصدق انباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

وقوله :

اذا احسن الاقوام ان يتطاولوا ... بلا نعمة احسنت ان تطـول

وقوله :

بيض اذا انتضت من حجبها رجعت ... احق بالبيض ابدانا من الحجب

وامثاله كثير ... وقد اعاب عليه البعض افراطه في استعمال البديع وتعمده التجنيس والطباق والارصاد، الى سقطات كان غنيا عنها ، كقوله :

فاسلم سلمت من الافات ماسلمت ... سلام سلمى ومهما اورق السلم «٢»

كما اعاب عليه عبد القاهر الجرجاني تجنيسه ايضا «٣» .

وعده البعض تهويشا لانه يصرف الذهن عن السير وراء المعنى ويسمره عن نغمة اللفظة «٤» .

ان الغموض الذي يكتنف شعر ابي تمام وليد نهضة ادبية «٥» . ومن اهتمامه

---

(١) عبقرية ابي تمام، ص٩٤.
(٢) بطرس البستاني، ادباء العرب، ص١٠٧-١٠٨
(٣) اسرار البلاغة، ص٤ - ١٠ .
(٤) عبقرية ابي تمام، ص٩٦
(٥) الفن ومذاهبه ، ص ٢٤١ .

بعلوم عصره ، كما ان الصلة بعصره وثقافة عالمه المتفلسف تمثل في طلبه المعنى الغريب طلبا مبالغا فيه واختياره اللفظ واشارته الى بعض المذاهب الفلسفية كالجهمية والجعفرية واستخدام بعض الفاظ الفلسفة كالجوهر والعرض وضربه الامثال باحداث من التاريخ «١» .

وعن الانسكلوبيديا الكولومبية : ويعرف عن قصائده غالبا بحوادثها التاريخية التي تعتبر بمثابة مصادر مهمة في التاريخ «٢»

وينكر خضر الطائي ان التعقيد في شعر ابي تمام كان بتأثير الفلسفة، ويعزو ذلك الى انه خالف سنة القول الماثورة عند العرب في فقه لغتهم وانه اغرب في العبارة اغرابا ابعدها عن التناول الا بتأمل «٣» .

واتهمه الدكتور طه حسين بانه بدأ التعقيد في الشعر العربي «٤» . وانكر الجرجاني في اسرار البلاغة والمرزباني في الموشح على ابي تمام كثرة استعمال الغريب المصدود عنه من الكلمات واسماء الامكنة وان كلامه اقرب الى تفسير بقراط منه الى الشعر «٥» .

وقال عنه الامدى : انه شديد التكلف، صاحب صنعة، ويستكره الالفاظ والمعاني، وشعره لا يشبه اشعار الاوائل ، ولا على طريقتهم، لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولدة، وانه ينحط عن درجة مسلم، لسلامة شعر مسلم وحسن سبكه وصحة معانيه، ويرتفع عن سائر من ذهب هذا المذهب وسلك هذا الاسلوب لكثرة محاسنه وبدائعه واختراعاته «٦» .

وقال عنه ابن رشيق القيرواني « يأتي للاشياء من بعد » ومعنى ذلك هيامه

---

(١) البهبيتي، ابو تمام ص ١١٢

(٢) Encyclopedia of columbia - 1963

(٣) خضر الطائي، ابوتمام، ص٨٣–٨٤ .

(٤) طه حسين، من حديث الشعر والنثر ، ص٩٢ .

(٥) بروكلمان؛ ج٢ ص٧٣ .

(٦) الامدي، الموازنة ، ص٦ .

بالغريب من المعاني «١» .

وقال عنه الجرجاني: لم يرض بهاتين الخلتين – يقصد غرابة اللفظ وتطاب البديع – حتى اجتلب المعاني الغامضة، وقصد الاغراض الخفية، فاحتمل فيها كل غث ثقيل، وارصد لها الافكار بكل سبيل، فصار هذا الجنس من شعره اذا قرع السمع لم يصل الى القلب الا بعد اتعاب الفكر، وكد الخاطر والحمل على الكريهة «٢» .

واكد انيس المقدسي ذلك اذ قال: ان من يطالع ديوانه يقف حائرا امام طلاسمه وغموض معانيه «٣». ولكنه استدرك قائلا: ولكن اذا راضت له بالدرس والتفكر رأى فيها ما يلذه من صور جميلة ومعان رشيقة «٤» ومثال ذلك مطلع قصيدته لعبد الله بن طاهر التي مر ذكرها، وذكر انه لما بدأ بانشاد هذه القصيدة في مجلس الامير قيل له: لم تقول ما لا يفهم ؟ فاجاب السائل: لم لا تفهم ما يقال ؟

وقد وصف الشاعر قصائده بقوله :

فكأنما هي في السماع جنادل ... وكأنما هي في القلوب كواكب

وغرائب تأتيك الا انها ... لصنيعك الحسن الجميل اقارب

وجاء في كتاب الموازنة: كان ابو تمام يتتبع حوشي الكلام، ويتعمد ادخاله في شعره «٥» .

وقال الامدى: كان ابو تمام مشغوفا بالشعر مشغولا مدة عمره بتخيله ودراسته، وله كتب اختياراته فيها مشهورة: منها الاختيار القبائلي الاكبر. وقد مر على يدى هذا الاختيار ومنها اختيار تلقط فيه اشياء من الشعراء المقلين والشعراء المغمورين ويلقب بالحماسة، وهو اشهر اختياراته. ومنها اختيارات المقطعات

---

(١) ابن رشيق: العمدة ج١، ص ٨٥

(٢) الوساطة، ص ٢٤–٢٥ .

(٣) اراء الشعر العربي في العصر العصر العباسي ، ص٢٠٧ .

(٤) المصدر السابق، ص ٢٠٧ .

(٥) الموازنة، ص١٢٠.

يذكر فيه اشعار المشهورين وغيرهم والمتقدمين والمتأخرين. وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر، وانه اشتغل به وجعله وكده. واقتصر من كل الاداب والعلوم عليه. فانه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث الا قرأه واطلع عليه «١». وقيل: انه كان يحفظ اربعة عشر الف ارجوزة غير القصائد والمقاطيع، وقال هو عن نفسه: لم انظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء خاصة دون الرجال «٢».

ولعل ذلك راجع في الاكثر الى كثرة محفوظه ودرسه شعر الاقدمين وشغفه بالقديم وشدة اعجابه بشعره حتى لم يكن ليرضى ان يمسه بادنى تهذيب.

قال ابو هلال العسكرى: كان ابو تمام يرضى باول خاطر فنعي عليه عيب كثير «٣». وعن الاغاني روى عن بعض الشعراء ان أبا تمام انشده قصيدة له احسن في جميعها الا في بيت واحد فقال له: يا ابا تمام لو القيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب. فقال له: انا، والله، اعلم منه مثلما تعلم، ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل اولاده، فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلو في نفسه «٤». ويعلل تعقيده باختلاف البيئة والاستعداد الفكرى وطبيعة العنصر. وانكر خضر الطائي ان يكون للعنصر اليوناني والثقافة اليونانية اثر في هذا التعقيد «٥».

ولكن احدا لا ينكر ان ثقافته الواسعة وازدياد معرفته بالعلوم والشعر والرواية صبغوا شعره بالتعقيد لانه اراد ان يعمق الشعر عن طريق الفاظ ذات دلالات والوان عدة ليقربها الى السامع ففشل مع القارىء السطحي ونجح مع القارىء المثقف وان الذين لم يفهموه كان السبب في عدم فهمهم دقة معانيه

(١) الموازنة، ص٢٣، ٢٤.
(٢) ابن خلكان، ج١ ص١٧٠.
(٣) امراء الشعر العربي في العصر العباسي، ص ٢١٣.
(٤) الاغاني، ج١٥ ص١٠٠
(٥) خضر الطائي : ابو تمام، ص١٠٤ — ١٠٥.

وقصورهم عن فهمه، وقد فهمه العلماء واهل النفاذ في الشعر فاذا عرفت هذه الطبقة فضله لم يضره طعن من طعن بعدها عليه «١» كما انه عمد الى اظهار علمه باللغة وبكلام العرب فتعمد ادخال الفاظ غريبة في مواضع كثيرة من شعره مثل قوله :

هن البجارى يا بجير   اهدى لها الأبوس الغوير

وقوله :

قدك اتئب اربيت في الغلواء

وقوله :

امرم بكر تبارى ايها الحفض «٢»

والدليل على ذلك انه افتتح الكثير من قصائده ببكاء ديار الحبيبة ومخاطبة الطلول برغم انه زعيم المحدثين في الشعر العربي وكانما كان يتحدى بذلك مذهب ابي نواس تحديا دافعه العصبية للعرب على العجم وكذلك وصفه الرحلة الى ممدوحه وذكر الصحراء والابل والظلام واغراقه في ذلك احيانا اغراقا يقارب بين شعره وشعر الجاهلية «٣». ويغلب التكرار على لفظ ابي تمام فيجعله ظاهرة من ظواهر شعره وهي مرصعة ببديعه وكان القدماء يسمونها رد الاعجاز على الصدور «٤». وامثلته على ذلك كثيرة يمتليء بها ديوانه ، كقوله :

الجو جوى اذا غنمت بغبطة   والارض ارض والسماء سمائي

وقوله :

لم يعط نازلة الهوى حق الهوى   دنف اطاف به الهوى فتجلدا

وليس هذا التكرار بسبب الضعف او العجز او الافتقار الى الفكرة «٥»

---

(١) الامدي، الموازنة، ص١٩ .
(٢) الامدي، الموازنة ص٢٥ .
(٣) البهبيتي؛ ابو تمام ، ص١١٢ .
(٤) كتاب البديع لابن المعتز ؛ ص٤٧–٤٨ .
(٥) البهبيتي، ابو تمام، ص٢٣٥، ٢٣٦ .

وهو لا يجمد عند الصور التي تشيع في جمهور اهل الادب بل يستنبط الصور فهو يصطاد المعاني كما يصطاد الالفاظ فعندما نظم قصيدته البائية التي اولها:

على مثلها من اربع وملاعب		اذيلت مصونات الدموع السواكب

حتى اذا انتهى الى قوله :

واحسن من نور يغنمه الندى

وقف عند هذا الشطر واذا بسائل يسأل على الباب: من بياض عطاياكم في سواد مطالبنا ! فالهم ابو تمام الشطر الثاني من البيت فقال:

بياض العطايا في سواد المطالب «١»

وقال عنه ابن الاثير يصف الفاظه: كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد «٢». وقد اطلع ابو تمام على انواع شتى من الصور الادبية في كلام العرب وحين رأى بشارا وابا نواس وابن الوليد، جروا على تميزها ، واستعملوها في شعرهم، تبين فكرتهم، وصهرها في بودقته، ثم ابرزها للناس بعد ان دبجها بزي بلغ غاية الصنعة في الحدود التي رسمها الشعر العربي للشعراء من قبل. وقد ابتدع ابو تمام نظرية جديدة في الشعر هي ان كل الفاظ اللغة من حقيقة ومجاز يصرفها بين يديه ويبتكر لغة مجازية لهذه اللغة التي سارت كأنها ملكة، وقد افسد هذا التعمل طائفة من شعره ولكنه وافق طبعه في كثير منه فادى الى احسن النتائج وافضلها «٣». ومن هنا لامه بعض العلماء وعدوا عمله عدوانا على اللغة ولكن الرجل لم يبال الابما صوره لنفسه وما اخذ يحققه من آمال وبينما كان الناس يحاورون في تفسير تفاعيله كان هو ماضيا يعمل بقانونه الخاص ويحيا لاجله ويكافح في سبيله. وما كاد الشاعر يحتل مكانه بين الشعراء ويقربه الخلفاء والامراء

---

(١) عبقرية ابي تمام؛ص ١٢١ –١٢٢ .
(٢) المثل السائر ، ص١٠٦ .
(٣) محمد مهدي البصير : في الادب العباسي ، ص ٢٢٣

ويذيع صيته، حتى كثر الخلاف حوله . ولم يكن ابو تمام ليهتم كثيرا بذلك لانه يعرف حق المعرفة انهم حساد لانقاد لأنه عرف كيف يصل ولم يعرفوا فانقطعوا. واصبحت العداوة لابي تمام بدعة العصر . لان البعض كان يعتقد ان الرجل لايكمل ادبه الابالطعن على العلماء والجهابذة والوضع من ماضيهم والاستحقار لباقيهم «١».

وقد اسرفوا في ذكر عيوب الطائي بما يشبه التجني . فقد عابوه على اكثاره من الصنعة وعلى الفاظه واستعاراته ومجازاته وبديعه . والكثير من هذه العيوب لاتعد عيوبا اذا ما نظرالیها بمنظار النقد الموضوعي . فقد جاء فيالعمدة :

والعرب لاتنظر في اعطاف شعرها بان تجنس او تطابق او تقابل فتعترك لفظة للفظة او معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وابرازه واتقان بنية الشعر واحكام عقد القوافي . وتلاحم الكلام . واستطرفوا ماجاء من الصنعة نحو البيت او البيتين في القصيدة . يستدل بذلك على جودة الشعر وصدق حسه . وصفاء خاطره . فاما اذا اكثر ذلك منه . فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وايثار الكلفة «٢» .

وكان ابو تمام اكثرهم مخالفة للطبع وايثارا للكلفة فهو صاحب مذهب جديد . فقد كان شعره يصعب على رجل كثعلب . فكان يطاب ممن اطلع عليه ان يدرسه ثم يشرحه له «٣» فكيف بالقارىء الاعتيادي ؟ ! ولكن كتب البلاغة استعانت بشعر ابي تمام لتوضيح الموضوعات البلاغية بايراد امثلة من شعره ونجد ذلك كثيرا في كتاب المثل السائر لابن الاثير فقد استعان بقول ابي تمام :

قد بلونا ابا سعيد حديثـــا وبلونا ابا سعيد قـديمـا
ووردناه ساحلا وقليبـــا ورعيناه بارضا وجميمـا
فعلمنا ان ليس الا بشق النفـ س صار الكريم يدعى كريما

---

(١) الصولي ، ص٦ .
(٢) العمدة ، ج١ص ٨٢ .
(٣) الصولي ؛ ص١٤ .

يقول ابن الاثير : فالساحل والقليب يستخرج منهما تأويلان مجازيان «١».
الى اخر الحديث . واورد قول ابي تمام :

بالشعر طول اذا اصطكت قصائده في معشر وبه من معشر قصر

جاء به مثلا على التأويل بالمعنى «٢».

واستشهد بقوله :

كم صارم عضب اناف على فتى فهم لأعباء الوغى حمال
سبق المشيب اليه حتى ابتزه وطن النهى من مفرق وقذال

فقد جاء بالبيت الثاني كمثال على اللفظة المناسبة في المكان المناسب «٣» .

واستحسن منه اخذه الكلمات من افواه الناس واستخدامها في الشعر «٤» .
كما اخذ من شعره مثالا على الشعر الجميل الذي لايمكن ان ينثر اذ يعسر على الناثر تبديل الفاظه :

تردى ثياب الموت حمرا فما اتى لها الليل الا وهي من سندس خضر«٥»

واتخذه مثالا في تجديد المعاني «٦» .

كما انه لم يدع بابا من ابواب البلاغة الا استشهد بها بامثلة من شعره «٧» .

كما استشهد عبد القاهر الجرجاني في كتابيه ،دلائل الاعجاز واسرار

---

(١) المثل السائر، ص٩٠-٩١ وكذلك ص١١٧ وكذلك في كتاب اسرار البلاغة للجرجاني، ص٢٨٨ .
(٢) المثل السائر، ص٨٤ .
(٣) المصدر السابق، ص٩٨، ٤٠٠ .
(٤) المصدر السابق ، ص١٠٤ .
(٥) المصدر السابق، ص١٣٣-١٣٤ .
(٦) المصدر السابق، ج٢ ص٧ .
(٧) المصدر السابق ص١٣٤ ، ٢٩٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧ ، ٤١٣، ٤١٤، ج٢ص٥٨، ٦١، ١٠١ ، ١١٨، ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣٥١، ٣٥٣ ، ٨٠ — ٨١ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٦٥ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣.

البلاغة ، بالكثير من شعره «١» .

وقد امتاز ابو تمام بحسن استخدامه للمعاني والالفاظ عن طريق المجاز والاستعارة والتشبيه ، كقوله واصفا جنديا عباسيا :

خلط الشجاعة بالحياء فاصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال

وكقوله في تشبيه صورة بمعنى :

وفتكت بالمال الجزيل وبالصدى فتك الصبابة بالمحب المغرم

وهو فتك معنوي وهو الطف انواع تشبيه الصورة لانه نقل صورة الى غير صوره «٢» .

ومما اورده ابن الاثير من التشبيهات المركبة قول ابي تمام :

معشر اصبحوا حصون المعاني ودروع الاحساب والاعراض«٣»

ومن جمال قوله في مدح المعتصم :

جلا ظلمات الظلم عن وجه امة اضاء لها من كوكب الحق آفله

وقوله :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدى الفتى في دهره وهو عالم

ولو كانت الارزاق تجرى على الحجى هلكن اذن من جهلهن البهائم

ومن استعاراته الجميلة :

ماضبر اروع يرتقي في همه روعاء ان لايرتقي في سلمي

وكقوله :

ادنت نقابا على الخدين وانتقبت للناظرين بقد ليس ينتقد

وكقوله :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر

---

(١) دلائل الاعجاز ص٣٣، ٣٤، ٤٠، ٥٣، ٧٢، ٣٣١–٣٣٢، ٣٢٦ : ٢٣٨، اسرار البلاغة ، ص٣٩، ٥٤، ٨٧، ٩٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٨٨ .

(٢) ابن الاثير، ص١٣٠ .

(٣) المصدر السابق، ص١٣٨ .

وقوله :

وقد علم الافشين وهو الذي به يصان رداء الملك عن كل جاذب

وقوله :

وكم سرق الدجى من حسن صبر وغطى من جلاد فتى جليد

وكقوله :

ويضحك الدهر منهم عن غطارفة كأن ايامهم من حسنها جمع «١»

وقد عد الامدي : ان الزحاف ، واضطراب الوزن في بعض ابياته .

واحتواء شعره على الحوشي والتعقيد وسوء النسخ وقبح الاستعارة والغموض والخروج على اللغة ، كل ذلك كان بسبب تصنيعه «٢» .

وقد ذكر صاحب الوساطة من استعاراته القبيحة :

باشرت اسباب الغنى بمدائح ضربت بابواب الملوك طبولا

وكقوله :

لها بين ابواب الملوك مزامر من الذكر لم تنفخ ولا هي تزمر «٣»

وقد اخذ عليه صاحب الموشح مآخذ كثيرة بسبب اهتمامه بالمحسنات .

وليس الغريب في شعر ابي تمام حاصلا من اللفظ الغريب والصور الجريئة وحدهما بل جاء من الاشتقاقات الجريئة التي تسمع لاول مرة فاذا احوجه الشعر الى مخالفة السماع خالفه بلامبالاة للقياس «٤» مثال ذلك قوله :

وتبسم العقل ابتسام اقاحه متزاهراً عن باكر الانـــداء

والشائع : اقاحيه .

وقوله :

بالقائم الثامن المستخلف اطأدت قواعد الملك ممتدا لها الطول

والصواب : اطدت .

---

(١) الوساطة ، ص٣٦

(٢) الامدي ، ص٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ؛ ١٨٠ ، ١٥٨ .

(٣) الوساطة ، ص٣٦ .

(٤) عبقرية ابي تمام ، ص٧٤ .

وقد يأخذ لفظة اعجمية غريبة كقوله :

«كشخنتين على غير جرم» الى اخر البيت

و «كشخنتين» كلمة فارسية .

ومن اغرابه كثرة الاعلال . كقوله :

سقى الله من اهوى على بعد نائه واعراضه عني وطول جفائه

ولم يسمع ذلك عن «نأى» . وكثيرا ما ينقل اللفظ من معنى الى معنى مشابه توسعة كقوله :

ولا ترين البكـــى ســـبة والصق جوى بلهيب روائي

والرواء اصله للماء فاراد به اللهيب العظيم «١» .

ويعود ذلك الى اسباب ،منها : محاولته توضيح المعاني العميقة التي يريدها وكثيرا ماتعجز اللفظة العادية عن ايضاحها ، او بسبب الحبسة التي في لسانه ، فقد كان يختار الالفاظ التي يستطيع نطق حروفها رغم غرابتها ، ويترك الالفاظ التي لايستطيع لفظ حروفها رغم سهولتها . كما كان صوته اجشا تناسبه الكلمات الضخمة الغريبة .

ويذكر ابن الاثير عن شعره في عرضه للخفيف الحسن قوله :

دار اجل الهوى عن ان ألم بها في الركب الا وعيني من منائحها

فقوله : عن أن ، في هذا البيت من الخفيف الحسن «٢»

بينما يعدد عبد القاهر الجرجاني في دلائل الاعجاز ماثقل من لفظه في شعره «٣» .

ويؤكد هذا الرأي بطرس البستاني «٤» ، اذ يقول : من غريب اللفظ ووحشيه ،

---

(١) عبقرية ابي تمام، ص٧٤-٧٦ .

(٢) المثل السائر، ص٤٠٠ .

(٣) دلائل الاعجاز . ص٣٢-٣٤، ٤٠ .

(٤) ادباء العرب، ص١١٠ .

وشغف به وافرط في استعماله حتى تأبد اكثر شعره واخشوشن . وسمج وقعه في الاذن ، فضاعت فيه معانيه الحسان . وفي هذا الرأي تجن وتهجم وعدم موضوعية في النقد،لان ابا تمام ابتكر افكارا وصورا جديدة وكان يحس دائما ان اللغة لاتستطيع ان تؤدي مايريد . وما اللغة ؟ أليست رموزا غامضة «١» ؟ ! .

وكما يقول الدكتور شوقي ضيف:لم يناقش النقاد شعر ابي تمام انما ناقشوه في اسلوب ملتو او عبارة غريبة او صورة غير مألوفة وانهم ناقشوا ظاهر العمل لاباطنه ، وما فيه من فلسفة وثقافة وتلون شعرى ويضيف الدكتور ضيف ان شعر أبي تمام خير مثل يصور ربيع الفكر العربي ومقدرته على الازدهار والاثمار ، كقوله :

ومعرس للغيث تخفق فوقه رايات كل دجنة وطفاء
نشرت حدائقه فصرن مآلفا لطرائف الانواء والانداء
فسقاه مسك الطل كافور الندى وانحل فيه خيط كل سماء «٢»

كما نجد عنده وفرة التأويلات لكثرة تعمقه بالتفكير والخيال وخروجه بصور متعددة كقوله :

ولهت فاظلم كل شيء دونها وانار فيها كل شيء مظلم

وقد اختلف الشراح في شرح هذا البيت ، فاختلف المرزوقي «٣» عن التبريزي «٤» في شرحه .

كما كان للرمز اثر في الغموض الذي ساد شعر ابي تمام . وهو ناتج عن ثقافته الواسعة ، اذ امتزج الجانب العقلي في شعره بالتجسيد للصورة واعطائها البعد المادي والمعنوي . كقوله لابن ابي دؤاد :

---

(١) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه ، ص ٢٤١ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٤-٢٤٥ .
(٣) المرزوقي ؛ المشكل ، ص ٤١ .
(٤) التبريزي ، ج ١ ص ٣٦٠ .

يا ابا عبد الله اوريت زنـــدا في يدي كان دائم الاصلاد
انت جبت الظلام عن سبل الآ مال اذ ظل كل هاد وحـــاد

فنجح في الزناد الذي يكشف الظلمة . والامثلة كثيرة في شعره وهو يهتم بمعانيه اهتمامه بالفاظه .

ويذكر صاحب العمدة انه اكثر المولدين توليدا «١» .

وقد استطاع ان يستجمع اللفظ والمعنى . وسبق في ذلك من سبقه من شعراء عصره . فهو يأتي باللفظ حيث يقع المعنى مهما حدث من الصعوبة او الخفاء او الاشتباه كقوله :

كلف برب الحمد يزعم أنه لم يبتدأ عرف اذا لم يتمم

ففي كلمة «رب» اشتباه «٢» .

وقد استطاع ان يستمد لمعانيه اساليب بلغت غاية الروعة في المدح وحسن المدخل ومراعاة المناسبة واداء مايحب على شعر المدح في الاسراف في الغلو والمبالغة «٣» .

وهو كثيراً مايعمد الى اخفاء المعاني لينسجم مع الحضارة ومع العصر الذي يعيشه كقوله :

ولهت فاظلم كل شيء دونها واضاء منها كل شيء مظلم

فالبيت يحتاج الى استنباط . فالوله والظلام الذي ساد بينهما كان بسبب مانالته من الجزع لولهها فهي اذن تحبه . والامثلة على ذلك كثيرة «٤» .

وقد زاد في اخفائه للمعاني لجوؤه الى المعاظلة اللفظية والمعنوية . ومن معاظلاته المعنوية قوله في مدحه لخالد بن يزيد الشيباني :

ودعا فاسمع بالاسنة واللهى صم العدا في صخرة صماء

(١) العمدة ، ص٢٣١ .
(٢) عبقرية ابي تمام ، ص١٠٧ .
(٣) عبقرية ابي تمام ، ص١٠٨ .
(٤) عبقرية ابي تمام ، ص٨٣-٨٨ .

ولا يمكن فهم البيت الا بالتقديم والتأخير ، فهو يريد ان يقول :

ودعا صم العدا في صخرة صماء فاسمع بالاسنة واللهى

اما معاظلته اللفظية فتتم عن دخول الحرف على الحرف وتكرير الحرف المفرد في كلمات متتابعة وتتابع الصفات ثم كثرة الاضافات . وقد وقع ابو تمام في كل ذلك . فقد ادخل الحرف على الحرف في قوله الى خالد :

الى خالد راحت بنا ارحبية مرافقها من عن كراكرها نكب

ويرى ابن الاثير ان تضايف الحرفين من وعن ، كان مقبولا لولا اضافتهما لكلمة كراكر «١» . وامثال هذه المعاظلة كثيرة .

ومعانيه تتسع بالمدح ، وتدق في الحكمة ، وتهتم بالعلة والسبب . وتقذع في الهجاء . وترق في الرثاء . وعده البعض من اصحاب المذهب الشامي «٢» .

وقد جاء بوفرة المعاني في العبارة الواحدة كقوله يمدح :

بالشعر طول اذا اصطكت قصائده في معشر وبه عن معشر قصر

ولا يخفى ان للبيت معنيين : ان الشعر يتسع مجاله بمدحك او ان الشعر يفخر بمدحك . وقد اكثر ابو تمام من الاستطراد والاستيعاب «٣» فقد اراد ان يهجو عثمان بن ادريس فمال الى فرس يصفه ثم عاد الى هجاء عثمان ويظن السامع انه يصف فرسا حتى يفاجئه بما يريد :

وسابح هطل التعداء هتان على الجراء امين غير خوان

اظمى الفصوص ولم تظمأ قوائمه فخل عينيك في ظمان ريان

لو تراه مشيما والحصى زيم بين السنابك من مثنى ووحدان

ايقنت ان لم تثبت ان حافره من صخر تدمر او من وجه عثمان

---

(١) عبقرية ابي تمام ، ص٨٩-٩٣ .

(٢) انظر عمر فروخ : عبقرية ابي تمام ، البهبيتي ، ابوتمام ، امراء الشعر العباسي .

(٣) يقول ابن رشيق : الاستطراد هو ان يصف الشاعر شيئا ويريد غيره . فان قطع او رجع الى ما كان فيه فذلك استطراد — العمدة ج١ ص٣١ .

وخير مثال على استيعابه «*» قصيدته الهمزية التي يمدح بها محمد بن حسان الضبي فانه لم يأت بجواب رب التي هي في البيت الثالث الا في البيت السابع من القصيدة وقد اعانه الاستيعاب على ان يلم بالمعاني الماما سريعا «١» ، مما اظهر عنده الوحدة العضوية .

كما عمد الى التفصيل والتجزيء فاذا وصف الكريم وصفه بالجبل ثم يذكر القمة والسفح والهوة ومزالق الصعود ، كقوله يمدح :

ودان الجد اتاني عطاياه من عل ومنصبه وعر مطالعه جرد
فقاد انزل المرتاد منه بماجد مواهبه غور وسؤدده نجد

وهو يكثر في معانيه من ذكر العلل والاسباب ويعود ذلك الى وفرة ثقافته كقوله :

ان شئت ان يسود ظنك كله فأجله في هذا السواد الاعظم

وقوله :

لولا اشتعال النار فيما حولها ما كان يعرف طيب عرف العود

وهو يهتم في تجسيد معانيه ، واظهارها ، وكأنها تبدو حقيقة ملموسة .
ومن جيد تصويره ، قصيدته في وصف الربيع :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر
ياصاحبي تقصيا نظريكما تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابــه زهر الربى فكأنما هو مقمر

وقوله يصف مطرا في قصيدة مدح بها ابن الزيات :

ديمة سمحة القياد سكــوب مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لاعظام نعمــى لسعى نحوها المكان الجديب
لذ شؤبوبها وطاب ، فلــو تسـ طيع قامت فعانقتها القلوب
فهي ماء يجري وماء عليــه وعزال تنشا واخرى تذوب

(*) الاستيعاب : هو ان يبتديء الشاعر بشيء ثم لايخبر عنه ولاينتهي عن الكلام فيه الا بعد امد طوير — عبقرية ابي تمام، ص١٤٢ .

(١) عبقرية ابي تمام ص١٤٢–١٤٣ .

كشف الروض رأسه واستسر الـ ... محل منها كما استسر المريب
ايها الغيث حي اهلا بمغـدا ... ك وحين السرى وحين تؤوب

ومن جيد تصويره قوله في احتراق جسد الافشين المصلوب :

ناراً يساور جسمه من حرها ... لهب كما عصفرت شق ازار
طارت لها شعل يهدم لفحها ... اركانه هدما بغير غبـار

وهو يضع الكلام في موضعه ، كما قال ابن رشيق في حديثه الذي مر بنا سابقا وهذا رأى ابن الاثير ايضا «١»

والتركيب عند ابي تمام قوية لتمازج اللفظ والمعنى ولكن تكلفه للمعاني البعيدة وغرامه بالصناعة وبحثه عن الكلام الغريب ادخلت على شعره شيئا من الغموض والتعقيد فجاءت تراكيبه معقدة احيانا كقوله :

خان الصفا اخ خان الزمان اخا ... عنه فلم يتخون جسمه الكمد «٢»

والذي يتملى ديوان ابي تمام ويسفر على تحليل معانيه يجد بدائع شعره مثل قوله :

واذا اراد الله نشر فضيلـة ... طويت اتاح لها لسان حسود

وقوله في سبيل بلوغ الارب :

ولكنني لم احو وفرا مجمعا ... ففزت به الا بشمل مبـرد

حتى يقول :

وطول مقام المرء في الحي مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رايت الشمس زيدت محبة ... الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وقد شهد البلغاء لابي تمام بالتقدم في ذلك . قال ابن لاثير في كلامه عن المعاني التي تستخرج من غير شاهد الحال : « ان لانكارها سراً لايهجم على مكامنه الاجنان الشهم ، ولا يفوز بمحاسنه الا من دق فهمه حتى جل

---

(١) العمدة ،ج١ ص٨٧، المثل السائر ص٩٨، ١٠٩، ١٣٤، ٤٠٠؛ ١٣١، ج١ص٧؛ ٥٨، ٦١ .
(٢) عمر فروخ ؛ ابو تمام؛ ص٧٩، الوساطة ، ص١٨ ؛ سر الفصاحة، ص١٥١ .

عن دقة الفهم ثم يقول : « قد قيل ان ابا تمام اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً للمعاني وقد عددت معانيه المبتدعة «أي التي لم يسبق اليها» فوجدت مايزيد عن عشرين معنى . واهل هذه الصناعة يكبرون ذلك ، وما هذا على مثل ابي تمام بكثير » «١» . وقال ابو الفرج الاصفهاني : « وفي عصرنا هذا «القرن الرابع الهجري» من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف » «٢» بل هي التي دفعت ابا دلف العجلي ان يصيح وقد انشده ابو تمام قصيدته التي مطلعها :

على مثلها من اربع وملاعب اذيلت مصونات الدموع السواكب

يامعشر ربيعة اما مدحتم قط بمثل هذا الشعر . فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم يرمون بها اليه . فقال ابو دلف : فتقبلها منكم واعاركم لبسها وسأنوب عنكم في ثوابه . ثم امر له بخمسين الف درهم وقال : والله ما هي بازاء استحقاقك وقدرك فاعذرنا «٣» .

وقد كان ابو تمام يحسن صبغ صوره ويستعين بالتجسيد والتشخيص فقد جسم النأى والصدود حين قال لبعض ممدوحيه :

ومـن زمـن البستنيـه كأنه اذا ذكرت ايامه زمن الورد

وكأن هذه الثياب الغريبة تشبه غرابة ثوب الزمن ، ومن هنا كثر نقد شعر ابي تمام ، لانه لم يسر على منوال الشعر القديم . وقد رد الدكتور شوقي ضيف الامدى ردا جميلا في كتابه الفن ومذاهبه «٤» وقال في مقارنته بمسلم وابن الرومي : فأن التصوير لم يستغرقهما على نحو استغراقه لابي تمام وان الانسان ليخيل اليه كأنما اصبح الشعر عنده ضربا من لوحات الرسامين فهو معني فيه دائما بالتصوير مشغوف بكل خيال نادر طريف «٥» .

---

(١) المثل السائر ، ص١٩٣ .

(٢) الاغاني ، ج١ص١٠٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص١٠٣ .

(٤) الفن ومذاهبه ، ص٢٣٥–٢٣٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص٢٣٩ .

ومن انسجام اللفظ والمعنى في شعر ابي تمام ظهرت عنده الوحدة العضوية فقد تزاوج حسه وعقله جميعا فالفكر والفن لا يفترقان، فهو يحس الجمال، ويتعمق بواطن الاشياء فالقصيدة بفضل الفكرة الجارية فيها ذات وحدة وتماسك تتلازم الفاظها مع معانيها فهو يقول عن فنه:

وكأنما نظم القوافي لؤلؤ اثبته في جندل منضود

والتسلسل الفكري في وحدة القصيدة لا يقف عند الحد المعنوي بل يتعداه الى الاثر اللفظي فهو لا يهتم بوحدة البيت كاسلافه، بل بوحدة القصيدة ككل، فقد يأتي مثلا بالمبتدأ في البيت، وبالخبر بعد ابيات كثيرة. لان التلاحق المنطقي والاقيسة المنطقية للمعاني في القصيدة يقتضي ذلك «١». ويتعمق ابو تمام وراء الاشياء المادية ويتناول النفس والروح، كقوله:

تجد صلا تخال بكل عضو له من شدة الحركات قلبا

ويمتزج القياس المنطقي بالموسيقى والشعر والتصوير فتظهر وكأنها اقيسة فنية اذ يقول في الرثاء:

ان ريب الزمان يحسن ان يهـ ـدي الرزايا الى ذوي الاحاب

فلهذا يجف بعد اخضرار قبل روض الوهاد روض الروابي

كما عني بجمع الاضداد يقرب بينها ويراها في مظاهر الطبيعة وخوالج الفكر متعاكسة متنافرة ومجتمعة مترابطة وكانه قد اطلع على نظريتي هيكل وماركس القائلة بان التناقض هو السبب في تطور الاشياء «٢» كقوله:

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من النضارة يمطر

ويقول ابن الاثير: وقد قيل: ان ابا تمام اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعاني. وقد عددت معانيه المبتدعة، فوجدت ما يزيد على عشرين معنى. واهل هذه الصناعة يكبرون ذلك ثم يقول: فاما ما ورد لابي تمام:

---

(١) البهبيتي، ابو تمام، ص٢١٥-٢١٨ .

(٢) نديم عدي، تاريخ الادب العربي، ص٥٧ .

— يا ايها الملك النائي برؤيته وجوده لمراعي جوده كثب «١»
ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا ان السماء ترجي حين تحتجب
— ولكن دارة القمر استتمت فدلتنا على مطر قريب
— واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

ومن قوله في الهجاء :

— وانت تدير قطب رحى عليا ولم ير للرحا العلياء قطبا
ترى ظفرا بكل صراع قرن اذا ما كنت اسفل منه جنبا
— لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس
— لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

وكثرت المعاني المخترعة عند ابي تمام وكما ان هذا التفكير الدائم والنظر في الاشياء والاحداث والعواطف ، جعل شعر ابي تمام مسرحا لمعان لم توجد في شعر غيره «٢» . وقد احسن ابو تمام في الابتداء والختام فقد سرد الحاتمي طائفة من ابتداءات ابي تمام وانتهاءاته ونماذج من حسن تخلصه ولطف اقتضابه وبراعة وصفه للقوافي فاستحسن ابتداءه اذ قال :

لا انت انت ولا الديار ديار خف الهوى وتقضت الاوطار

وزعم ان لن يستطيع احد ان يبتدىء بمثل ابتدائه حيث يقول :

ما في وقوفك ساعة من باس تقضي حقوق الاربع الادراس

وزعم ان ابا تمام هو الذى وصف القوافي بما لم يستطيع احد وصفها به فقال :

جاءتك من نظم اللسان قلادة سمطان فيها اللؤلؤ المكنون
انسية وحشية كثرت بهـا حركات اهل الارض وهي سكون
ينبوعها خضل وحلي قريضها حلي الهدى ونسيجها موضون

---

(١) المثل السائر ص١٩٢ .

(٢) الهبيتي ، ابو تمام ، ص٢١٨-٢١٩ .

قد حاكها صنع الضمير بمده حب اذا نضب الكلام معين
اما المعاني فهي ابكـــار اذا نضت ولكن القوافي عون «١»

وجاء في الوساطة: ان الشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة. فانها المواقف التي تستعطف اسماع الحضور وتستميلهم الى الاصغاء وقد ذهب ابو تمام والمتنبي في التخلص كل مذهب واهتما به كل اهتمام «٢».

وكان ابو تمام شاعرا ثائرا على عمود الشعر. اذ كان يتصيد المعاني ويلبسها الالفاظ، وكان ينصب القافية الى البيت ليعلق الاعجاز بالصدور. هذا ما قاله عنه صاحب العمدة. واضاف: وذلك هو التصوير في الشعر ولا يأتي به كثيرا الا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه «٣»، وقال: كان ابو تمام على جزالته وتقدمه مقصرا في القطع من رتبة القصائد «٤» ويعزى ذلك الى اهتمامه بالمعاني اكثر من اهتمامه بأى شي اخر. وكان ابو تمام يعنى بتنقيح الابيات، وباللفظ وبالتركيب والايغال في التشبيه. والاستعارات الى ما يشبه الرمز. كما ذكرنا سابقا. كما يهتم بالغوص في المعاني. واقامة الادلة وضرب الامثلة، وادخال فنون العلم في الشعر. وكان يبطؤ في نظم الشعر ليقتنص المعنى البعيد او الاستعارة المتخيلة او التجنيس المطلوب كما يعنى بتهذيب شعره. وقد ذكر ذلك كثيرا في ديوانه كقوله:

ساجهد حتى ابلغ الشعر شأوه وان كان لي طوعا ولست بجاهد

ويعد ابو تمام من المجددين في الاوزان الشعرية فمن قوله في التجديد:

ثقيل ردف دقيق خصر شقيق شمس نشيج بـــدر

وهذا بيت ليس من الابحر الستة عشر بل هو بحر جديد استحدثه ابو تمام «٥».

---

(١) زكي مبارك، الموازنة بين الشعراء، ص٣٨ .

(٢) الوساطة ، ص٤٨ .

(٣) العمدة، ج١ص١٤٠ .

(٤) العمدة ج١ص١٦٣ .

(٥) انظر البهبيتي، ابوتمام .

بينما ينكر خضر الطائي ذلك «١».

كما استحدث ابو تمام الموشح، فقد وردت لابي تمام ابيات فيها تقسيم يشبه ما ورد في الشعر الذي يعد طليعة للتوشيح قسم فيها ابو تمام الاشطر اقساما متساوية او شبه متساوية والتزم القافية في اخر كل جزء من اقسام الاشطر «٢»

كقوله:

يقول فيسمع ويمضي فيسرع   ويضرب في ذات الاله فيوجع

وقوله:

انا الحسام انا الموت الزؤام انا   الحرب الضرام انا الضرغامة العتد

وقوله:

ومن فاحم جعد ومن قمر سعد   ومن كفن نهد ومن نائب ثمد

وينكر خضر الطائي انها من التوشيح وانها جارية على فني التسميط والتفويف وهما من فنون البديع «٣». ولا اجد في رأي خضر الطائي صوابا. اليس التقسيم المتساوي والتزام القافية الواحدة في كل جزء من اجزاء الشطر ضربا من التوشيح؟! ومن اين جاء التوشيح عند شعراء الاندلس اليس من التأثر المتجدد في المشرق.

وقد اخلص ابو تمام لشعره فقد استطاع بواسطته ان يحصل على المال، وان يبلغ المجد، فهو لا يمدح كرجل يجهل مقام فنه، ولم يتخذه اداة الى ممدوحيه، بل جعله مساويا حينا، واعلى منهم احيانا، «٤» ومن هذا قوله:

فدع ذكر الضياع فلي شماس   اذا ذكرت وبي عنها نفار
وما لي صنيعة الا المكايا   وشعر لا يباع ولا يعار
وما انا والعقار ولست منه   على ثقة وجودك لي عقار

---

(١) خضر الطائي، ابو تمام، ص١١٩، ١٢٠ .

(٢) عمر فروخ، ابو تمام ص٩٦، البهبيتي، ابو تمام .

(٣) خضر الطائي، ابو تمام، ص١١٥–١١٦ .

(٤) عبقرية ابي تمام، ص٤١ .

وهكذا صار كثير من شعر ابي تمام قياسا يتألف من مخيلات تؤثر في النفس وقد فشا بعده في شعر العرب وان سبقه الى ذلك بشار ولكن ابا تمام اجاد فيه «١». وقد شرح الجرجاني في كتابه اسرار البلاغة مستشهدا بأمثلة لابي تمام في قوله:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العالي

في هذا الباب «٢». ومن ذلك قوله:

مطر يذوب الصحو منه وبعده   صحو يكاد من النضارة يمطر

وقوله في الشكوى:

ما زلت القي ذاك بالصبر لابسا   ردائيه حتى خفت ان يجزع الصبر

كل ذلك جعل ابا تمام يعطي القصيدة شكلها النهائي، اذ ختم الخصومة السابقة بخاتمة الذي اعطى القصيدة العربية طابعها المشبه. لان يكون ابديا. فكثيرا ما يفتتح قصائده بالغزل، ثم ينتقل من الغزل الى وصف رحلته الى ممدوحه فاذا انتهى الى الممدوح اخذ في مدحه وقد استحال هذا المدح على يده تصويرا للبطولة في عصره وكانت ابرز خلال الممدوح فيه قدرته في الحرب واصابته في الرأي فممدوح ابي تمام يرتسم امامك بطلا من ابطال القصص «٣».

اغراضه:

ومن هنا. ظهرت مظاهر جديدة في شعر ابي تمام هي الاهتمام بالتاريخ. لالتصاقه بالواقع والشعر الملحمي. فقد ارتبط شعر ابي تمام بالواقع ارتباطا قويا وهذه خاصة من خصائص الشعر العربي القديم فهو يحس الاشياء ويدركها ادراكا عميقا ويصفها وصفا ماديا بحيث لا يدع شيئا «٤». واحسن مثال

(١) المصدر السابق ص١٣٤ .

(٢) اسرار البلاغة، ص٢٣١ .

(٣) البهبيتي . تاريخ الشعر العربي حتى اخر القرن الثالث الهجري ، ص١٩١—١٩٤ .

(٤) الرؤوس، ص١٣٩، تاريخ الشعر العربي، ص١٩٤ .

على ذلك الشعر الجاهلي وشعر صدر الاسلام وشعر العصر الاموي في غالبه.

ولابي تمام دقة في الملاحظة . وقدرة لغوية، تستوعب اكثر المفردات، وهي ومضات عجيبة من عبقرية هذا الرجل. وقد سماها ابن الاثير «الكلمات الجامعة» وضرب مثلا عليها قول ابي تمام:

سبق المشيب اليه حتى ابتزه وطن النهى من مفرق وقذال

فقوله «وطن النهى» من الكلمات الجامعة وهي عبارة عن الرأس ولايجاء بمثلها في معناها بما يسد مسدها. ويرى مارون عبود ان قوام فن ابي تمام هو منحه الحياة لما لا حياة فيه واسناد الشيء الى غير ما هو له اذ توغل في المجاز وابدع فيه لبعث الحياة في الصور كقوله:

نامت همومي عني حين قلت لها: هذا ابو دلف حسبي به وكفى

وقوله:

اعني افرق شمل دمعي فانني ارى الشمل منهم ليس بالمتقارب(١)

ومثل ذلك وصفه لحرق الافشين:

نارا يساور جسمه من حرها لهب كما عصفرت شق ازار
طارت لها شعل يهدم لفحها اركانه هدما بغير غبار

ومن روائعه في وصف المصلبين قوله:

بكروا واسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم ابدا على سفر من الاسفار

ويقول ابن الاثير في اوصاف ابي تمام: وهذا الضرب ليبتدعه مؤلف الكلام من غير ان يقتدي فيه بمن سبقه وربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ويتبينه له عند الامور الطارئة (٢). «وللحلة السابرية» التي كساه اياها محمد ابن الهيثم، ووصفه لقلم بن عبد الملك الزيات، ووصفه الفرو، ورثاؤه

---

(١) الروس، ص ١٤٠ .

(٢) عبقرية ابي تمام ص ١٥٢ .

لابنه واخيه فكأنه كيان يشهد مرض ابنه ونزع اخيه ليلتقط ويصف «١» واصدق مثال على التصاقه بالواقع وصفه لفتح عمورية فقد نقل لنا شعر غزو المعتصم انتقاما لغارة تيوفيل الرومي على زبطره وتنكيله لها وسبي نسائها، وصراخ الهاشمية الاسيرة، ونهوض الخليفة من على عرشه، وهو يهتف: لبيك لبيك. الى اخر الواقعة، كل ذلك مسجل في القصيدة لا يعتمد على تخيل او ايهام وتمتاز قدرته هنا بالصياغة اللفظية ومثل ذلك قصيدته في صلب الافشين . ومن ذلك قصيدته التي مطلعها:

ارايت اي سوادف وخدود عنت لنا بين اللوى فزرود؟

وقد جمع له شارح همزياته جملة من هذه التاريخيات، وكانت هذه الطريقة وسيلة من وسائله للتقرب الى القبائل ونفوس ممدوحيه الذين يقصدهم بمدحه. ولعله كان يدرس هذه الاحداث قبل نظم القصيدة وينقحها ليبهر بها نفوس السامعين. حتى اعتبره البهبيتي مؤرخ عصره ومصوره فلم يقع حدث هام في تاريخ الامة الاسلامية الا سجله ابو تمام وتغنى به . فقد وصف هجوم ثغور المسلمين وغزو المأمون الروم وانقسام الناس على انفسهم حتى ان معظم شعره يتصل بالتاريخ اتصالا وثيقا «٢» . ومثل ذلك رثاؤه لمحمد بن حميد الطوسي . ويطابق قول ابن الاثير في تاريخه الكامل «٣». ويقول البديعي: ان ابا تمام لما بلغه خبر قتله —محمد بن حميد الطوسي— غمس طرف ردائه في مداد ثم ضرب به كتفيه وصدره. وانشد القصيدة التي تمنى ابو دلف لو كان هو المقتول وقيلت فيه:

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر «٤»

الى اخر القصيدة .

وتظهر اثار حرب بابك الخرمي في شعره ، والهمته هذه المواقع

---

(١) الرؤوس، ص ١٤٢ .

(٢) البهبيتي، ابو تمام، ص ٢١٢ .

(٣) ابن الاثير، ج ٦، حوادث سنة ٢١٤ ص، قصيدة ابي تمام في تأبين هذا البطل العربي .

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٣، ١٠٤ .

شعرا ظل يتردد زمنا بعد ذلك . ويقول البهبيتي: ان هذه الموقعة قد اعطت شعر ابي تمام لونا جديدا ذلك انشعر ابي تمام قبلها كان لا يكثر فيه وصف الحرب، اما بعد هذه الموقعة فقد كثر كثرة جعلته من مميزات شعره .(١) وقد اصطبغ شعر ابي تمام بالدم لكثرة اهتمامه بوصف الحروب . واجماله ذلك الذي يصف فيه الخراب والحريق. وفي قصيدة فتح عمورية. وحرق الافشين، وحرب بابك الخرمي، احسن الامثلة على ذلك. ومن هنا، عد ابو تمام شاعر البطولة الاسلامية (٢). ولكنه كثيرا ما يلجأ الى الاساطير اليونانية القديمة في قصائده تلك، وذلك يعود الى ثقافته اليونانية. وقد عد البعض (٣) قصيدة فتح عمورية ملحمة اذ قال: لنأخذ الان مثلا على ملحمة عمورية التي خلدها ابو تمام في قصيدة لا تزال من عيون الشعر، لا باعتبارها قصيدة في مدح الخليفة المعتصم، والمدح اهون ما جاء فيها، ولكن باعتبارها ملحمة تشرف على وصف المعركة وصفا حيا من بدئها الى منتهاها حتى خلصت الينا عملا فنيا رائعا متماسكا. ويستمر خليل الهنداوي في تحليل القصيدة. وتتبع ابي تمام لاحداث المعركة، ويقارن بين ما قاله مؤرخو الروم، وبين ما جاء في ابيات القصيدة، من هدف واقعي للحدث التاريخي. ولكنه لم يستطع ان يبرهن على ان هذه القصيدة من نوع الملحمة الا في شيء واحد هو اعتمادها على البطولة والشجاعة في القتال. ويؤيد حنا الفاخوري رأي خليل الهنداوي اذ يعد قصيدة فتح عمورية وبعض ابيات اخرى تأتي في عرض مدائحه مثالا للشعر الملحمي في ادبنا لما فيه من تصوير واسع مهيب لاحداث خطيرة وخيال رحب يعتمد الواقع التاريخي، ويتغنى بحرية في تفخيمه. والتكيف به بالاضافة الى الفاظ فخمة هدارة واسلوب جزل تزخر فيه الصناعة اللفظية على مختلف ضروبها كما يغمر الانفعال النفسي في كل بيت من ابياته مما مهد السبيل

---

(١) البهبيتي، المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٢) البهبيتي، المصدر السابق ص٢٢٥ .

(٣) خليل الهنداوي، ملحمة عمورية، مجلة العربي، العدد ٧ سنة ١٩٦٥ .

للمتنبي «١» .

ولا نجد في هذا تبريرا كافيا لكون قصيدة عمورية من الشعر الملحمي . ولكن يمكن ان نعتبر هذا النوع من الشعر ضمن الشعر القصصي، لا في وصفه للمعارك فقط انما في تصويره لممدوحيه اذ تستحيل صورة الممدوح بطلا من ابطال الملاحم التي حرم منها الادب العربي، كما يفعل ذلك في طريقة هجائه وهو يعمد الى التاريخ. ليقتبس منه، ومن الحاضر ليلبسه روح العصر كما في مدحه المعتصم بعد اخذ بابك اذ قال :

آلت امور الشرك شر مآل وامر بعـــد تخمط وصيال

فالقصيدة مثل جيد من القصص الشعرى العربي، اذيذكر فيها قصة ثورة بابك وهزائمه وصراعه بدون كذب او غلو، وبحدود ما ذكرته كتب التاريخ. وكما جاء في كتاب ابن الاثير . ويرى البهبيتي ان الرجوع الى القصيدة للمقارنة بينها وبين التاريخ هو خير ما يعمل في مثل هذه الحرب «٢» .

وهذا ما فعله في مدح ابي سعيد محمد بن يوسف وفي رثائه لمحمد بن حميد الطوسي .

ومن الفنون المهمة التي شاعت في شعر ابي تمام المديح والرثاء ووصف الطبيعة. فقد تقدم في وصف الطبيعة على الاشارات العابرة التي وصفها ابو نواس، فقد استحالت عند ابي تمام الى نظرات تأملية فلسفية كما فعل في وصف الربيع :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر

وكثيرا ما يمزح الطبيعة بمظاهر الحياة وبرؤيته الخاصة واصداء نفسه :

غنى فشاقك طائر غريـــد لما ترنم والغصون تميـــد «٣»

ومن مظاهر وصف ابي تمام للطبيعة دقة الملاحظة في الموصوف. ونقل الواقع المحسوس لكل جزئياته وتفاصيله، بالاضافة الى التأمل الفكرى، واسبار غور

---

(١) حنا الفاخوري، تاريخ الادب العربي، ص٤٩٨ .

(٢) البهبيتي، ابو تمام، ص١٣٨ .

(٣) تاريخ الشعر العربي، ص٥٠١، ٥٠٢ .

الاشياء المحسوسة. واستخراج معانيها، ورموزها وهو لا يقف عند الظاهر المحسوس بل يتخطاها الى الاعماق عن طريق المجاز والمحسنات البديعية كقوله :

دنيا معاش للورى حتى اذا حل الربيع فانما هي منظر

وقد شغل ابو تمام في المديح فلا يكاد يغفل احدا من علية القوم الا ويسرع لمدحه. حتى بلغ عدد ممدوحيه نحوا من ستين شخصا، وكان ينظر الى ممدوحيه نظرة جدية يعرف بواسطتها كيف يحصل منه على ما يريد. فقد اتصل ابو تمام بالمأمون، والمعتصم، والواثق، والمستعين، من الخلفاء. كما مدح عبد الله بن طاهر وخالد بن يزيد الشيباني، والي الموصل، في أيام المأمون ومدح ابنه محمدا والحسن بن رجاء ومحمد بن حسان الضبي الجواد ومحمد ابن عبد الملك الزيات واحمد بن ابي دؤاد وكان يعرف انهما خصمان متنافسان فجعل يتردد بينهما بمدائحه لينتفع بعداوتهما «١». وقد تبدو عقدة الفقر واضحة في انتهازيته، وفي اتصاله بممدوحيه فقد جعل ابن ابي دؤاد وسيلته الى المعتصم حتى اذا كان المعتصم في آخر ايامه حثه على ان يبايع لابنه الوثاق. وقد عرف ان ذلك يرضيه، فمهد لنفسه بذلك عند الواثق «٢» وفي اتصاله بابي سعيد الطائي ذكر صلته به ونسبته الى طي «٣». وامثال ذلك كثير. وكان يصطنع الكبرياء احيانا، ليؤثر ذلك في اعلاء مقامه، ومن ذلك ما قيل انه لم ينحن على الف دينار التي نثرها عبد الله بن طاهر ولعل مقابلة ابي العميثل له ونثر الدنانير بالصورة التي نثرت عليها كان السبب في استعلائه وتكبره عنها. وقال صاحب الاغاني عن ابي تمام: انه كان يعرف كيف يصرف مدحه فلم ينتفع في ايامه شاعر بدرهم «٤». ويمتاز مديحه بالاشادة بالقومية العربية والدين الاسلامي وقد اعجب ذلك بني العباس لاحتفاظه بحبه آل البيت، كما

---

(١) تاريخ بغداد، ج٨ص١٤١ .

(٢) اعيان الشيعة، ج١٩ص٢٥٥ .

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٧ .

(٤) المصدر السابق، ص٣١٦ .

في مدحه المأمون، ومدحه الواثق، وابي سعيد الثغرى، بعد وقعة بابك، واستخدامه للحوادث القديمة والحديثة، اذ كانت لها علاقة بالممدوح من قريب او بعيد، ليرفع بها مرتبته كما فعل في مدح ابي دلف العجلي، ومحمد ابن عبد الملك الهاشمي، وخالد بن يزيد الشيباني. واستطاع ان يحتفظ بمنزلته ومكانته، امام ممدوحيه، دون ان يحط منها، في اطار من فخامة الالفاظ والتراكيب، واعمال الفكر بما يستمده من ثقافته الواسعة وحكمته التي خبرها وعاشها «١»، فاذا لم تنفع الحيلة في فتح الابواب لابي تمام، لجأ الى العتاب، او الهجاء، كما فعل مع مالك بن طوق حين حجبه فكتب اليه لائما متهكما، يقول:

مالي ارى القبة البيضاء مقفلة دوني وقد طال ما استفتحت مقفلها
اظنها جنة الفردوس معرضة وليس لي عمل زاك فادخلها «٢»

وقد تناول الشاعر بهجائه نحو عشرين شخصا، منهم ستة اشخاص كان قد مدحهم، منهم عياش بن لهيعة الذى هجاه هجاءا مقذعا وقد اختصه باثنتي عشرة قطعة من المديح «٣».

وقد يكون هجاؤه عنيفا تارة، ورفيعا مترفعا في عتاب تارة اخرى، فيه سف وخيبة امل. اما رثاؤه فزاخر بالعاطفة. ويظهر فيه ابو تمام رقيق الحس ينفث حسراته في عبارات فخمة جميلة يعبر عنها بالمجاز والاستعارات والكنايات. وقال ابو القاسم الامدى: هو اشعر الناس في المراثي وليس له اجود واحسن من قوله:

الا ان في كف المنية مهجة تظل لها عين الالى وهي تدمع
هي النفس ان تبك المكارم فقدها من بين احشاء المكارم تنزع «٤»

---

(١) الاغاني، ج ١٥ ص ٩٨.

(٢) عمر فروخ، ص ١١٤-١٢٢.

(٣) عبقرية ابي تمام، ص ٣٠، ٣١.

(٤) عمر فروخ، ابو تمام، ص ١٣١.

واجود رثائه رثاء بني حميد الطوسي ففيها تظهر انسانية الشاعر واخلاصه ووده .

كما تغلب الجزالة والرصانةوالصناعة اللفظية على مراثيه وقد تبدو احيانا عواطفه مزيفة ولكنها في كثير من الاحيان تصدر من الاعماق الحزينة الآسية.

وقصائده في الفخر قليلة يبدى فيها اعجابه بعقله ونفاذ بصره، وقدرته على احتمال الصعاب، كما يفخر بقبيلة طي، وهو في فخره يشكو من قسوة الحياة والامها، وليست له قصائد فريدة في هذا الباب «١» .

وحكمة ابي تمام تصرفات عقلية في المعاني التي يطرقها والتي تأتيهعن طريق تجاربه في الحياة ونظرته اليها، واخذ كل ذلك من ثقافته ، واطلاعه وكثرة تجواله والمامه بعلوم عصره « ٢ ». كل ذلك يكسوه بما اوتي من صنعة وقابلية لفظية وغوص في المعاني كقوله:

قد تألف العين الدجى وهو قيدها ويرجى شفاء السم والسم قاتل

وكقوله:

واى فتى ينقاد للحلم امـره واكثر رشدا الى الغي قائده

وقوله:

والحظ يعطاه غير طالبـــه ويحرز غير مجتلبـــه

وكقوله:

اولى البرية طرا ان تؤاسيه عند السرور الذى آساك في الحزن
ان الكرام اذا ما اسهلوا ذكروا من كان يألفهم في الموطن الخشن «٣»

اما زهديات ابي تمام فهي قليلة ويقول حنا الفاخورى : تتجلى نفس ابي تمام عميقة الاحساس في زهدياته شديدة التأثر بالحالات النفسية الجدية، وانها على قلتها تصور بامانة نفس الشاعر الكثيرة الامال والمطامح ، وقد ظفرت

---

(١) الثعالبي ، الاعجاز والايجاز ، ص٨٧ ، خاص الخاص، ص٩٦ .

(٢) عمر فروخ ، ابو تمام ، ص١٣٦

(٣) محمد كرد علي ، امراء البيان ، ج١ ص٢٦١ .

ببعض رغائبها وغرقت في طلبها الى حد الافراط ثم رأت كل شيء ينهار ويزول مع تقدم السن والشيب ولا يدع اثرا غير الاسف «١». ولم يكن ابو تمام زاهدا زهدا ينبعث من نفسه وروحه فلم تخل زهدياته من ماديات الحياة وانما طرق هذا الباب بالوجه الذي دعته اليه الصنعة «٢». ويؤكد عمر فروخ ذلك الرأي اذ يقول: فاذا رأينا زهدا لابي تمام فليس معنى ذلك انه تزهد فهو لم يبلغ السن الذي تلجيء الانسان الى ان يحاسب نفسه على اعماله السالفة وليس لابي تمام في هذا الباب جيد ولا جديد. واما الابيات الستة والاربعون التي اثبتها الخياط فهي ركيكة جدا لا يعقل ان تصدر عن مثل ابي تمام كقوله:

فلا بد يوما ان تصير لحفرة باثنائها تطوى الى يوم تنشر «٣»

ولا تتفق سيرة ابي تمام وحبه لماديات الحياة والنواحي الروحية التي تنبعث في نفس الزهاد وتبعدهم عن سفاسف الحياة وتمنيهم بجنة عرضهاالسموات والارض.

اما غزل ابي تمامفهو قليل كان يتكلفه في اول قصائده لا عن عاطفة، بل عن تقليد احيانا، وعن صنعة في احيان اخرى، وله مقطوعات صغيرة قلما تجاوز الواحدة منها بضعة ابيات وهي ومضات انسانية عابرة حيث تمحي اثار التكلف والصنعة «٤»، فترق الالفاظ وتعذب الاوزان مع هدوء واستقرار. وسبب ذلك يعود الى مادية ابي تمام وحبه للمحسوسات لا للروحيات وايمانه بالجسد لا بالروح. ولم يعرف ابو تمام بحبيبة لها اسم معين «٥»، واغلب غزل ابي تمام في الغلمان ولكنه لم يتهتك تهتك ابي نواس، ولم يتعهر فلم يرو له

(١) حنا الفاخوري، تاريخ الادب، ص٤٩٦.
(٢) خضر الطائي: ابو تمام ص٧١.
(٣) عمر فروخ، ابوتمام، ص ١٤٢.
(٤) حنا الفاخوري، تاريخ الادب العربي، ص٤٩٤.
(٥) عمر فروخ، ابوتمام، ص١٣٦.

من فاحش القول غير شيء قليل «١».

ولكن ابن المعتز روى في طبقات الشعراء، عن الحسن بن رجاء الضحاك قال: كنا مع امير المؤمنين المعتصم بالرقة، فجاء ابو تمام، وانا في حراقتي، فجعل ينشدني ويلتفت الى الخدم والغلمان الواقفين بين يدي، ويلاعبهم ويغامزهم — وكان الطائي من اكثر الناس عبثا ومزاحا — فقلت له: يا طائي قد ظننت انك ستصير الى امير المؤمنين، مع الذي ارى من جودة شعرك، فانظر: انك ان وصلت اليه لا تمازح غلاما ولا تلتفت اليه، فانه من اشد الناس غيرة، واني لا آمن ان وقف منك على شيء ان يأمر غلمانه فيصفعك كل واحد منهم مائة صفعة. فقال: اذا اخرج من عنده ببدر مملوءة صفعا. «٢»

وله في العيافة والزجر ابيات قليلة يسخر فيها من العيافة اذ يقول:

اتضعضعت عبرات عينك ان دعت ورقاء حين تضعضع الاظلام
لا تنشجن لها فان بكاءها ضحك وان بكاءك استغرام
هن الحمام وان كسرت عيافة من حائهن فانهن حمام «٣»

وقد صنف ابو بكر الصولي كتابا جمع فيه اخبار ابي تمام وشعره، وتصرفه في انواع علومه، ومذاهبه، واستدل الصولي على ما وصف عن ابي تمام بما يوجد من شعره من ذلك قوله في صفة الخمر:

جهمية الاوصاف الا انهم قد لقبوها جوهر الاشياء «٤»

وذهبوا في تعليل جوهر الاشياء مذهبا فلسفيا.

وحكي عن بعض العلماء بالشعر انه سئل عن ابي تمام فقال: كانه جمع شعر العالم فانتخب جوهره «٥» ويؤكد المسعودي ان لابي تمام اشعارا حسانا

---

(١) بطرس البستاني، ادباء العرب ص٩٥، حنا الفاخوري، تاريخ الادب العربي، ص٤٩٤

(٢) طبقات الشعراء، ابن المعتز، ص٢٨٣.

(٣) زهر الاداب، ص٥٠٢.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ص٧٤، ٧٥.

(٥) المصدر السابق، ص٧٤.

ومعاني لطافا واستخراجات بديعة «١».

ويقول مارون عبود: ان ابا تمام هو من الشعراء المحككين من السلالة الزهيرية المتحدة الجذور والفروع في الادب العربي، ولو لم يقل الشعر في المواضيع الجديدة التي اشرنا اليها، لما كان الا شاعرا مداحا نواحا كما قال فيه ابن عمه البحتري «٢».

وقد توفي ابو تمام في الموصل سنة احدى وثلاثين ومائتين للهجرة. وبنى عليه احد بني حميد الطوسي قبة خارج الميدان «٣». ويشك البهبيتي بأنه قد مات شابا ويعتمد على قول ابن خلكان في تعليقه على قول من قال: انه مات وقد نيف على الثلاثين سنة بقوله: هذا يخالف ما سيأتي من تاريخ مولده ووفاته ثم يذكر بعد ذلك سني مولده وتختلف الروايات في مولده ووفاته ويخمن البهبيتي بانه مات كهلا «٤».

وقد رثاه الكثير من الشعراء وجاء في كتاب اخبار ابي تمام للصولي قوله: حدثني محمد بن خلف قال: حدثني هارون بن محمد بن عبد الملك قال: لما مات ابو تمام قال الواثق لابي: قد غمني موت الطائي الشاعر «٥» .

---

(١) المصدر السابق ؛ ص٧٤.
(٢) مارون عبود ، الرؤوس ص١٤٤.
(٣) محمد محيي الدين عبدالحميد ، شرح ديوان ابي تمام ، ص٨.
(٤) البهبيتي ، ابو تمام الطائي ، ص٦٠ .
(٥) اخبار ابي تمام ، ص١٧٢.

شعر ابي تمام في ميزان النقد القديم

الدكتور سالم الحمداني

فكر يجول مجال الروح في البدن   نشر يسير به شعر يهذبه

« ابو تمام الطائي »

اذا فتشت عن ازدهار الادب العربي فما عليك الا ان تقرأ لشعراء القرنين الثالث والرابع الهجريين، فلا اخال الا انك واجد بغيتك في شعر مسلم وابي تمام والبحترى والمتنبى وغيرهم، وان اردت ان تظفر بحركة نقدية خصبة فاقرا ما اثاره النقاد حول شعر هؤلاء، ولااخالك ايضا الا واجدا ما تريد فيما شغل به النقاد انفسهم منذ القرن الثالث الهجرى حتى هذا اليوم.

ولست ارى حركة اخصب ولا اروع ولا اوسع من تلك الحركة التي اثارها شعر ابي تمام، لقد شغل شعر الرجل المشرق الاسلامي كما شغل مغربه وانهمك الكتاب والنقاد في دراسة هذا الشعر وكان نتاج ذلك حركة نقادية خصبة لم تشهدها كل عصور الادب من قبل.

ومن هنا، كان شعر ابي تمام مثار حركة نقدية لا تزال اصداؤها تعكس آراء النقاد، منذ القرن الثالث الهجرى حتى عصرنا هذا. ولئن احتفظ تاريخ الادب العربي، منذ ذلك العهد، بنتاج نقدى ضخم اثاره مذهب ابي تمام فذلك لا يعنى ان حركة النقد حول هذا الشعر قد اكتفت بما تركت من تراث نقدى اصيل ولا يعني ايضا ان تلك الحركة النقدية الواسعة قد اتت على كل ما

في شعر الرجل من روعة وابداع فلا زال شعر الشاعر يوحي باروع الخطرات النقدية لدى النقاد ولا زال النقاد حتى هذا العصر يجدون فيه مجالات نقدية يستطيع كل عصر ان يضيف الى ما سبق وان ينقد بروح العصر نفسه ما كان على بقية العصور من قبله . ذلك ان شعر ابي تمام يخفي بين طياته من الافكار والمعاني والصور ما يجعل اثره يمتد الى ابعد العصور .

ولسنا نريد ، هنا ، ان نبحث عن تاريخ النقد من خلال شعر ابي تمام ولكننا نريد ان نضع شعر ابي تمام في ميزان النقد القديم لندرس الاثار التي تركها في ذلك النقد ولنتعرف على مذهب الرجل من خلال تلك الحركة النقدية الواسعة التي اثارها شعره .

ان اية دراسة عصرية لشعر ابي تمام لا بد لها ، في راينا ، ان تاخذ بنظر الاعتبار نقطتين في غاية الاهمية :

الاولى : ثقافة ابي تمام التي تتصل بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام والتاريخ وغير ذلك مما انعكس اثره في شعره بل وجه فنه في كثير من الاحيان وهذا يفيدنا في انصاف الرجل مما اثاره حوله نقاد عصره . ومن اجل ذلك خاصموه وانتقصوا من قيمة شعره .

وثانيتهما : ان نفهم روح العصر الذى عاش فيه ابو تمام لنرى هل كان شعره يتلاءم مع التيار الادبي العام الذى كان يترسمه العلماء والادباء والنقاد؟ وهذه النقطة تفيدنا في الحكم على الذين نقدوا شعره ، فخاصموه في مذهبه. وفيما يخص هذه الناحية ، فالمعروف ان اشد الناس نقدا للشعر هم الرواة واللغويون ثم الشعراء «١» وقد كان اكثرهم لا يتصلون بالثقافة الحديثة ، فكرهوا الحديث على هذا الاساس واحبوا ما اتصل بعامود الشعر العربي وآثروه على ما يتصل بعمود الفلسفة والثقافة الحديثة فهؤلاء كانوا يترصدون للشعراء ويراقبون شعرهم ليروا الى اى حد كان هؤلاء الشعراء يخضعون لقواعد الشعر وقواعد اللغة؟ فاذا ما شذ شاعر عن تلك القواعد ، صار في نظرهم خارجا عن طريقتهم

(١) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٤٠ .

وصار شعره شاذا نابيا عن ذوق العصر وطريقته، وفي مثل هذه الحال يصير الشاعر هدفا للخصومة، ويتعرض شعره للنقد والتجريح .

وعلى العموم، فان جميع النقاد القدماء من لغويين ونحويين ورواة لم يستسيغوا من الشعر ما خرج على روح العصر، ولم يقبلوا ما نبا عن الذوق العام الذى الفوه وتعودوه، ومن هنا، كانت خصومتهم لشعر ابي تمام وهو دون ريب قد كسر الطوق الذى اعتمدوه اساسا لذوقهم. وخرج على ما اعتادوه من شعر سهل ومطبوع، يفهم دون اعمال فكر او اجهاد عقل، او غوص الى الاعماق .

ومن هنا، وقفوا لابي تمام بالمرصاد وخاصموه وتعصبوا عليه، بل تعدوا الى اكثر من هذا حين رفض بعضهم كثيرا من شعره. ولكن يجب الا نتصور ان هذا الموقف من جانب الخصوم كان سببه فن ابي تمام وخروجه على قواعد النظم المألوف. فان بعضهم، وخصوصا الشعراء، كانت تدفعهم الغيرة لمخاصمته. لان ابا تمام لم يكن شاعرا عاديا، يأخذ مكانه من الشهرة كما يأخذون، ولعل الاهم من ذلك ان الشعر كان مصدر رزق لكثير من الشعراء، فكان وجود ابي تمام يسبب ضيقا لهؤلاء لان الواحد منهم لم يكن ليستطيع الحصول على ما يريد في حضور ابي تمام. من ذلك ما اورده صاحب الاغاني من ان «(١)» «احدا ما كان يقدر ان يأخذ درهما بالشعر في حياة ابي تمام، فلما مات اقتسم الناس ما كان يأخذ» .

ومهما تكن اسباب الخصومة لابي تمام، فان عددا كبيرا من نقاد الشعر ورواته قد اججوها حملة شعواء على الشاعر، فمنهم من كان يدفعه حقده وكراهيته كدعبل بن علي الخزاعي، فقد كان يدفعه حسده لان يخاصمه، بل يرفض شعره. ويقول حين سئل عنه : «(٢)» لم يكن ابو تمام شاعرا انما كان خطيبا وشعره بالكلام اشبه منه بالشعر . وذكر محمد بن داود

---

(١) الاصفهاني، الاغاني ١٥/٩٨ .

(٢) الصولي، اخبار ابي تمام، ص ٢٤٤

ان دعبلا كان يميل عليه ولم يدخله في كتابه « كتاب الشعراء » ومن هؤلاء الخصوم كان ابن الاعرابي اللغوى المشهور . فقد كان هذا شديد الحملة عليه، بسبب خروجه على كثير من قواعد اللغة . وكان يقول عنه : « ١ » « ان كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل ».

ويبدو ان علماء اللغة كانوا من اشد خصوم شعر ابي تمام. ولذلك لم تشفع له عندهم مئات من قصائده وفرائده. كانوا هم انفسهم يعجبون بها على انها لغيره. فاذا احسوا انها لابي تمام ، صبوا عليها جام غضبهم . وغيروا فيها رأيهم. فقد « ٢ » « حدث عبد الله بن المعتز قال : حدثت ابراهيم بن المدبر ورايته يستجير شعر ابي تمام ولا يوفيه حقه ، بحديث حدثنيه ابو عمر بن ابي الحسن الطوسي وجعلته مثلا لهم قال : وجه بي ابي الى ابن الاعرابي لاقرأ عليه اشعارا ، وكنت معجبا بشعر ابي تمام. فقرأت عليه من اشعار هذيل ، ثم قرأت ارجوزة ابي تمام على انها لبعض شعراء هذيل

وعاذل عذلته في عذله فظن اني جاهل من جهله

حتى اتممتها فقال : اكتب لي هذه ، فكتبتها له ثم قلت : احسنة هي ؟ قال : ما سمعت باحسن منها. قلت : انها لابي تمام . فقال : خرق خرق ».

ويظهر من هذا النص ان ابن الاعرابي هذا لم يطعن في القصيدة ، بل اعجب بها ، الا ان بغضه لابي تمام هو الذى دفعه الى هذا الفعل. ولو اننا حاولنا ان نضع مثل هذا التصرف في اى ميزان نقدى سليم ، لما حكمنا على الرجل الا بالتعصب والحقد.

على ان بعض الخصوم لم يكن يدفعهم غرض الى رفض شعر ابي تمام ، سوى تعصبهم للقديم ، وخروج ابي تمام عليه ، وكسره طوقه. من هؤلاء نذكر الاصمعي اللغوى والراوية الثقة المشهور ، فقد جاء في الموازنة ان « ٣ » « اسحاق بن ابراهيم الموصلي انشد الاصمعي :

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٤٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٥ .
(٣) الامدي ، الموازنة ص ٢٣ .

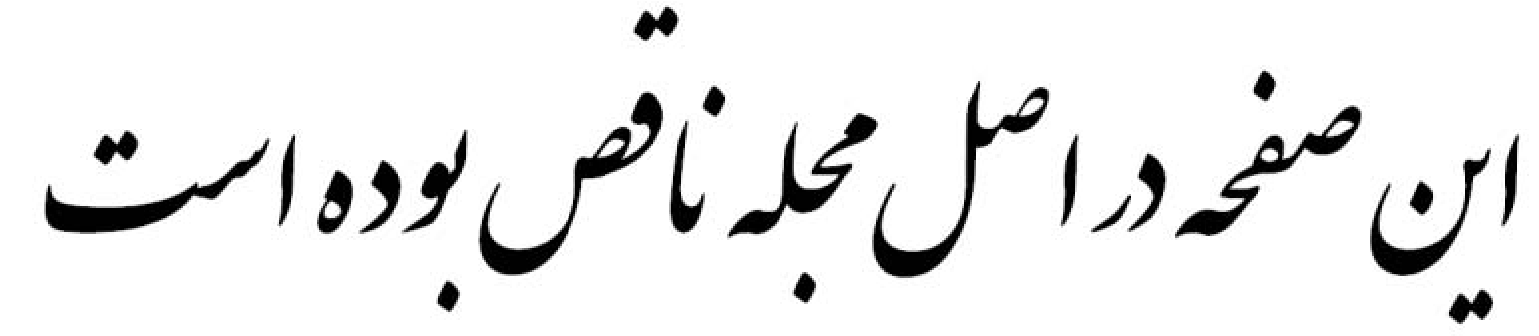
هل الى نظرة اليك سبيـــل فيروى الصدى ويشفي الغليل
ان ما قل منك يكثر عنـدى وكثير ممن تحب القليـــل

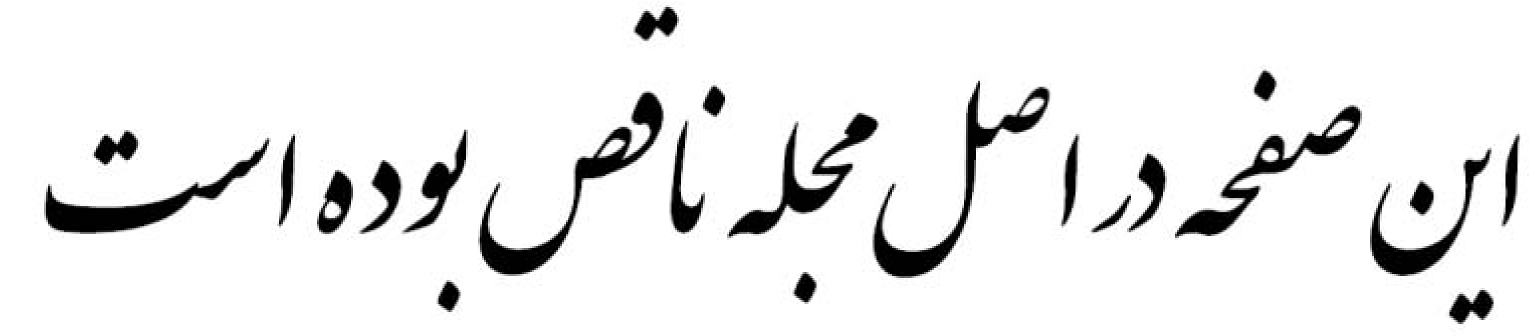
فقال الاصمعي: لمن تنشدني؟ فقال: لبعض الاعراب. قال: والله هذا هو الديباج الخسرواني. قال: فانهما لليلتهما. فقال: لا جرم والله ان اثر الصنعة والتكلف بين عليهما».

ولسنا نريد، هنا، لان نتعرض الى اخبار هؤلاء الخصوم، فهي كثيرة جدا. ولكننا نذكر منهم ابراهيم بن المدبر وابا سعيد المكفوف، وعبد الصمد ابن المعذل وديك الجن وابن الخثعمي والقاسم بن مهرويه وهؤلاء الذين اشرنا اليهم كلهم من نقاد القرن الثالث، اي انهم عاصروا ابا تمام، او عاشوا في عصره، فمنهم من دفعه حرصه على مذهب العصر الى خصومة ابي تمام، وهم الشعراء ومنهم من خاصمه لحسده له على مكانته وشهرته. ولا شك ان الامثلة التي ضربناها لندل بها على خصومة هؤلاء لشعر ابي تمام، تدل على ان النقد على هذا العصر يشوبه التأثر الشخصي والنقد الذاتي الذي لا يخضع الى موازين النقد البناء.

على اننا اذا اجتزنا هذا القرن الى غيره من القرون، خصوصا القرن الرابع الذي استوت فيه اضخم عملية للنقد العربي المنهجي، وجدنا الناحية التأثرية، والنزعة الشخصية تخف الى حد بعيد. ولعل مرد ذلك هو ان نقاد القرون التالية هؤلاء. قد بعد العهد بينهم وبين ابي تمام، اي زالت الاسباب الشخصية التي توفر عليها النقد في القرن الثالث.

ومن ناحية اخرى، فان عملية النقد قد استوى عودها، واستقر امرها الى حد بعيد، بفعل استواء الحضارة وتطورها وتقدمها. اي ان روح العصر كادت ان تتقبل مذهب ابي تمام او على الاقل لم ترفضه بل تناقشه وتنقده وترده الى اصوله، وتربط ما بينه وبين ثقافة العصر، وتعلل فتقبل او ترفض. وهذا ما وجدناه عند اكثر النقاد الذين عرفتهم كل عصور الادب، من مثل الامدي صاحب كتاب الموازنة، رغم ما نشم في رائحة نقده من تعصب


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

مدحي له وشغفي به، في قديمه وحديثه، احسن من قول ابي تمام في المعتصم، ولا ابدع معاني، ولا اكمل مدحا، ولا اعذب لفظا ثم انشد.

فتح الفتوح تعالى ان يحيط به نظم من الشعر او نثر من الخطب

ثم اخذ يروي القصيدة. فلما فرغ منها قال: «هل وقع في لفظة من هذا الشعر خلل؟ كان يمر للقدماء بيتان يستحسنان في قصيدة فيجلون بذلك، وهذا كله بديع جيد».

ولا شك ان في كلام الحسن بن وهب هذا انفاسا نقدية جديدة لم نألفها عند القدماء. وقد نبه هو اليها حين قال: «كان يمر للقدماء بيتان ....الخ».

وهو يشير بذلك الى الخطرات النقدية القديمة التي كانت تتسم بالسرعة والفردية والذاتية البعيدة عن النظرة الشاملة الدقيقة..

وكان ممن فضله من نقاد القرن الثالث. علي بن الجهم وعمار بن عقيل، وابن الرومي، ومحمد بن عبد الملك الزيات. ومحمد بن حازم الباهلي. «١»، وغيرهم.

واذا تجاوزنا ذلك الى القرن الرابع وقفنا امام حشد كبير من النقاد الذين اعجبوا بشعر ابي تمام وشغفوا بمذهبه الجديد. ويطالعنا من هؤلاء نقاد لهم وزنهم لافي تاريخ النقد فحسب، بل في تاريخ الشعر والكتابة، وكل فنون الادب، من امثال: ابن جني وعلي بن عيسى الرماني، والخالديين. والحاتمي وابن العميد والصاحب بن عباد والمرزباني، وحتى الجرجاني فهؤلاء كلهم اكبروا الى حد بعيد ماذهب اليه ابو تمام في فنه الجديد.

ودليل اعجاب هؤلاء بشعره أن بعضهم تقدموا لشرحه، وبعضهم الاخر قام بشرح حماسته. من ذلك ماقام به ابن جني حين الف كتابه «التنبيه في شرح مشكل ابيات الحماسة» وكتابه الاخر «المبهج في شرح اسماء رجال الحماسة» ثم «المشكل في شعر ابي تمام» وهذا دليل على اهتمام الرجل بشعر هذا الشاعر. وقريب من ذلك ما قام به علي بن عيسى الرماني حين شرح

---

(١) انظر: الصولي، اخبار ابي تمام.

حماسته . ودافع عن سرقاته . اما الخالديان «١» فانهما اعجبا بشعر ابي تمام . ولذلك تعمدا ايراد الكثير من شعره وكانا يتعهدان كل بيت من ابياته او معنى من معانيه ، بما يستحقه من الثناء بالعبارات المعبرة عن الاعجاب ويبدو ان ابا العلاء المعري كان معجبا هو الاخر بشعر ابي تمام . فقد مدحه في رسالة الغفران «٢» «لانه كان صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ ، مستتبعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من المحار ...

وقد علق الدكتور ربداوي على ذلك بقوله : ماأظن ان ناقدا لخص مذهب ابي تمام باوجز مما ذكره المعري» . حتى صاحب الاغاني ، فانه يشيد بشعر ابي تمام ، ويكبر علمه ، ويعجب من فضله ، وقد وقف يسفه اولئك الذين طعنوا بشعر ابي تمام . ويصفهم بالجهل والحماقة اذ يقول : «٣» «واقوام يتعمدون الرديء من شعره ، فينشرونه ، ويطوون محاسنه ، ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك ، ليقول الجاهل منهم : انهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه الا بادب فاضل وعلم ثاقب » .

ويلاحظ ان النقد منذ نهاية القرن الرابع الهجري ، بدأ يتحول الى نقد بلاغي . يعتمد في اساسه على دراسة اعجاز القرآن . ولذلك وجدنا المتأخرين من نقاد هذا القرن اكثرهم من البلغاء . من امثال : العسكري والرماني . وصار نقدهم للشعر يدور حول قضايا اللفظ والمعنى في اكثره .

وتبعهم في ذلك نقاد القرن الخامس ، وعلى رأسهم ، الباقلاني وعبد القاهر . ولذلك وجدنا اكثر النقاد من البلاغيين يقفون ضد ابي تمام في فنه ، خصوصا منهم انصار اللفظ ، كابي هلال العسكري وابن سنان الخفاجي . ولذلك وجدنا عبدالقاهر يقف من ابي تمام موقفا وسطا «٤» «فهو لا يقف موقف اللائم المؤنب لابي تمام الا عندما يراه ساعيا وراء اللفظ . واما في حوكه

---

(١) محمود ربداوي ، الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ، ص٢٩٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص٤٢٤ .
(٣) الاصفهاني : الاغاني ، ج١٦/٣٨٣ .
(٤) محمود ربداوي : الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ، ص٣٧٩ .

للمعاني . فانه يبارك عمله ويستشهد بصنيعه على المستحسن منها ، وخاصة في احكام ابي تمام للمعاني وتركيزه للافكار على شكل حوكه» . وطالما اننا قد ذكرنا ابن سنان كواحد من نقاد شعر ابي تمام، وهو واحد من رجالات القرن الخامس فمن المهم ان نشير الى ، نقاد هذا القرن الذين كان نقدهم امتداداً لكثير من نقد القرن الرابع ولا اعتقد انني ابالغ في هذا القول حين اتذكر من هؤلاء النقاد: المرزوقي والعميدى والشريف المرتضى. وهؤلاء كلهم كانوا انصارا لابي تمام . ودعاة لشعره الجيد . ويكفي ان يكون المرزوقي وحده حاملا للواء فن ابي تمام. فهو من اشهر من ارتبطت اسماؤهم بهذا الشاعر في شرحه لحماسته ولذلك وجدنا الدكتور ربداوى يقول فيه : «١» «ان المرزوقي كان خير من تصدى لشرح دقائق ابي تمام وغامضه . وكان خير من نقد فن ابي تمام ودافع عنه » .

اما الشريف المرتضى فقد كان من اشد المتحمسين لابي تمام . ولمذهبه وقد وقف يرد على كل الذين تصدوا لشعر هذا الشاعر . ودافع بحرارة لاتهمد.

ومن المهم. ونحن نتعرض لاتجاهات هؤلاء النقاد، ان نشيد بجهود النقاد المغاربة الذين ساهموا في اكبر عملية نقدية اثارها مذهب هذا الشاعر . وابرز مايطالعنا من اسماء هؤلاء : ابن رشيق صاحب كتاب «العمدة» والحصرى صاحب كتاب «زهر الاداب» . وكلا الناقدين كان معجبا بفن ابي تمام . ونصيرا لاتجاهه . وقد استشهد كل منهما بشعر الشاعر في كلامهما على الشعراء المحدثين .

واذا كنا قد اشرنا الى ان هؤلاء النقاد قد انقسموا الى انصار وخصوم . فذلك لايعني ان اتجاهات النقد حول شعر ابي تمام كانت حدية الى هذه الدرجة فتاريخ الحركة النقدية يحتفظ لنا باسماء وقفت موقفا وسطا من شعر ابي تمام فقد ذكر الصولي «٢» «ان ابا حاتم السجستاني انشد شعرا لابي تمام ،

---

(١) المصدر السابق : ص٤١٨ .

(٢) الصولي : اخبار ابي تمام، ص٢٤٤ .

فاستحسن بعضه واستقبح بعضه . وجعل الذي يقرؤه يسأله عن معانيه فلا يعرفها ابو حاتم فقال : ماأشبه شعر هذا الرجل الا بثياب مصقلات خلقان . لها روعة وليس لها مفتش» .

وهذا ايضا «١» عبد القاهر لم يبرم البرم كله لدقيق معاني ابي تمام ولا لغامض افكاره ، وانما يشدد نكيره عليه لتعسفه في اللفظ ،لان اللفظ ليس ما يرفض عبد القاهر » . وهذا الامدي شيخ النقاد ــ وهو ممن اتهموا بالتعصب على ابي تمام ــ يكتب في فضل الشاعر «٢» :

«وجدت اهل البصرة من اصحاب البحتري ، ومن يقدم مطبوع الشعر دون متكلفه ، لايدفعون ابا تمام عن لطيف المعاني ودقتها ، والابداع والاغراب فيها ، والاستنباط لها ، ويقولون : انه وان اختل في بعض مايورده فان الذي يوجد فيها من النادر المستحسن ، اكثر مما يوجد من السخيف المسترذل» .

وليس من ذكرنا من هؤلاء المعتدلين وحدهم من وقفوا هذا الموقف الوسط ، فان كثيرين ممن خاصموا ابا تمام في شعره قد شادوا بجيده خصوصا مالا يتعارض وذوقهم واتجاههم. وكثيرون ممن تعصبوا له وناصروه وقفوا يعنفونه وينقدون شذوذه ، ويأخذون عليه اغرابه وشذوذه . ومن هنا كان حكمنا على كثير من نظراتهم النقدية حكما يشهد لهم بالحذق ، وقوة الملكة وجودة الذوق. بقي علينا ، وقد انهينا اتجاهات النقاد في شعر ابي تمام، ان نتعرف على ما هو اهم ... وذلك هو جانب التطبيق العملي لهؤلاء النقاد .

اي ماهي ابرز القضايا النقدية التي اثاروها حول شعر ابي تمام ؟ .

شغل النقد العربي منذ اقدم عصوره بقضية اللفظ والمعنى . ولازالت هذه المسألة تستحوذ على نقدنا الحديث فلا ينفك نقادنا المحدثون عن الحديث عما يسمونه الان الشكل والمضمون .

وانقسم النقاد مابين مؤيد للفظ كالجاحظ وابي هلال العسكري وابن سنان الخفاجي وغيرهم وما بين مفضل للمعنى ، كعبد القاهر والمعري والشريف

(١) محمود ربداوي : الحركة النقدية، ص٣٧٦ .

(٢) الموازنة : الامدي ، ص٣٩٧ .

المرتضى ، واغلب الذين انتصروا لمذهب ابي تمام .

المعاني :

وقد جاء انشغال النقاد بمعاني ابي تمام امرا طبيعيا دون شك . لان اشهر ما اشتهر به هذا الشاعر هو عنايته بدقة المعاني وتوليدها وغرابتها وعميقها .

هذه القضايا التي اشتهر بها مذهب ابي تمام . ولقد ادرك النقاد هذا منذ عهد الشاعر نفسه فحين «١» « سئل البحتري عن نفسه وعن ابي تمام قال : كان اغوص على المعاني مني وانا اقوم بعمود الشعر منه» . اما صاحب الاغاني فيصفه بانه : «٢» «شاعر مطبوع لطيف اللفظة دقيق المعاني ، غواص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره» . وهو في رأي ابن الرومي «٣» شاعر يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لاتى بها»

وحين سئل ابن المعتز عن رأيه في البحتري قال : «٤» «فاما ان يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات ، بل يغرق في بحره» ولخص ابن عماد الحنبلي رأيه في ابي تمام ، مستنداً على كلام ابن الاثير ، فقال : «٥» «امابو تمام فرب معان وصيقل الباب واذهان . وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على اثر فهو غير مدافع عن مكانة الاغراب الذي يبرز فيه على الاضراب ... فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه اطاعته اعنة الكلام » .

فابو تمام اذن ـ باعتراف الجميع ـ له السبق على غيره في معاني الشعر ولكن هذا لا يعني ان النقاد قد سلموا له بالقيادة في هذا المجال . ذلك ان مذهب الشاعر في المعاني كان غير مذهب القوم . ومن هنا اثارت هذه القضية نقاشا طويلا استغرق مايقرب من خمسة قرون اي منذ القرن الثالث حتى القرن السابع ولازال اثر ذلك يمتد الى هذا العصر .

---

(١) الامدي : الموازنة ١٢/١ .
(٢) الاصفهاني : الاغاني ، ٩٦/١٥ .
(٣) ابن رشيق : العمدة ، ١٣٢/١ .
(٤) ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص٢٨٦ .
(٥) ابن عماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ص٧٢ .

ولعل نقاد هذا العصر اقرب الى طبيعة معاني ابي تمام . فمفاهيم نقدن المعاصر في مراعاتها لظروف البيئة وثقافة الشاعر واباحتها لحرية الفنان وحرية تعبيره . ثم ما وصل اليه النقد من تطور ونضوج ، كل ذلك جعل نقادنا المعاصرين يباركون مذهب ابي تمام في معانيه ، بل ادى بهم الى ان يفتحو مع القدماء باب المناقشة فاذا هم، في اغلبهم، انصار لمذهب الشاعر بل متعصبون لمسلكه «١» .

الاغراب:

واول ما اثاره النقاد القدماء بشأن معانيه مسألة الاغراب والتعقيد والغموض . وقد اعتبر الامدي ذلك مأخذا على الشاعر واستشهد على ذلك في ماذكره من ان «٢» « ابن الاعرابي كان شديد التعصب عليه ، لغرابة مذهبه ولانه كان يرد عليه معانيه ما لايفهمه ولا يعلمه . فكان اذا سئل عن شيء منه يأنف ان يقول : لا ادري فيعدل الى الطعن عليه » . ولعل قصة ابي العميثل الذي قال لابي تمام بعد سماعه احدى قصائده : لم تقول من الشعرمالا يفهم؟ فرد عليه ابو تمام : ولم لا تفهم مايقال ؟اشهر من ان ينبه عليها .

والواقع ان قضية الاغراب في شعر ابي تمام لم تكن مأخذا يحتج به خصوم ابي تمام فحسب ، فحتى انصاره يشيرون الى ذلك في كثير من الاحيان ، فقد ذكر الصولي وهو من اشد انصار ابي تمام ان : «٣» « ابا حاتم السجستاني انشد شعرا لابي تمام فاستحسن بعضه واستقبح بعضا . وجعل الذي يقرؤه يسأله عن معانيه فلا يعرفها ابو حاتم . فقال : ماأشبه شعر هذا الرجل الا بثياب مصقلات خلقان لها روعة وليس لها مفتش » .

واذا كان المتحاملون قد خاصموا ابا تمام بسبب غموض معانيه ، بل

---

(١) انظر بشأن ذلك : شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، وعمر فروخ : ابو تمام ونجيب البهبيتي، حياته وحياة شعره .

(٢) الامدي، الموازنة، ١ / ٢٢ .

(٣) الصولي : اخبار ابي تمام، ص٢٤٤ .

اسقطوا شعره ايضا ، فان نقاد اخرين لم يروا في ذلك هنة كبيرة تستوجب مثل هذا الحكم ، فالجرجاني صاحب الوساطة . يرجح هذا الموقف ويرى ان الغموض مسألة اعتيادية فيقول : «١» « وليس في الارض بيت من ابيات المعاني لقديم او محدث الا ومعناه غامض مستتر . ولولا ذلك لم تكن الا كغيرها من الشعر . ولم تفرد فيها الكتب المصنفة ، وتشغل باستخراجها الافكار الفارغة . ولعله اراد بذلك ان يرد على الذين اسقطوا بتلك الحجة كثيرا من شعر ابي تمام «٢» : « ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعرا لوجب الا يرى لابي تمام بيت واحد . فانا لانعلم له قصيدة تسلم من بيت او بيتين قد وفر من التعقيد حظهما ، وافسد به لفظهما ، ولذلك كثر الاختلاف في معانيه » .

واما نقادنا المحدثون فلم يروا في هذا التعقيد مايشين شعر الشاعر ، بل ان اكثرهم حكموا على هذا الاغراب والتعقيد بالفتنة والروعة . وهذا شوقي ضيف يتحدث عن ابي تمام فيقول : «٣» « فهو يطلب الاغراب في فنه حتى يسبغ على شعره كل مايمكن من ايات الفتنة والروعة » بينما يرى انيس المقدسي : «٤» « ان من يطالع ديوانه فانه قد يقف حائرا امام طلاسمه وغموض معانيه ، حتى اذا راضت له بالدرس والتفكير رأى فيها مايلذه من صور جميلة ومعان رشيقة » .

وفي ظني ان اولئك الذين عابوا على الشاعر غرابة معانيه وغموضها . لم يدفعهم الى ذلك الموقف جهل بتلك المعاني ، وانما الذي دفعهم الى مثل ذلك هو ان الشاعر خرج على مألوف القوم في ايراد المعاني ، وتمثل فيها ثقافته الواسعة المتشعبة ، التي لما تستقر في اذهانهم وعقولهم . ودليل ذلك انهم كانوا يستسيغون شعره على انه ليس له ، فاذا كشفوا حقيقة قائلة غيروا رأيهم فيه .

---

(١) الجرجاني : الوساطة ، ص٤٣١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٤٣٠ .

(٣) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص٢٢٦ .

(٤) انيس المقدسي : امراء الشعر في العصر العباسي ، ص٢٠٧ .

كما اننا لانرى ان ابا تمام يتعمد ذلك الاغراب تعمدا ، ولا كان يقصده قصدا ، وانما تلك الغرابة، في رأينا ، كانت تنهال عليه من روافد ثقافته الواسعة ، التي هضمها الشاعر كما لم يهضمها أي شاعر اخر .

واكثر هؤلاء النقاد تتبعا لاخطاء ابي تمام في المعاني هو الامدى، فقد انفق في ذلك اربع عشرة صفحة من كتابه «الموازنة» . ولقد وفق الامدى في كثير مما اخذه على ابي تمام كتعليقه على قول الشاعر في باب الفراق : «١»

« دعا شوقه ياناصر الشوق دعوة فلباه طل الدمع يجرى ووابله

فقال الامدى في ذلك : اراد ان الشوق دعا ناصرا ينصره فلباه الدمع . بمعنى انه يخفف لاعج الشوق ويطفي حرارته . وهذا انما هو نصرة للمشتاق على الشوق . والدمع انما هو حرب للشوق لانه يثلمه ويتخونه ويكسر من حده » .

والواقع ، ان ، الامدى وفق كل التوفيق في معرفة خطأ المعنى في هذا البيت رغم ماينتحله البعض له من اعذار ، حتى ان هذا التوفيق قد دعا الدكتور محمد مندور لان يقول : «٢» : « لايتم هذا فقط عن ادراك للمعاني ومعرفة في تصريف الالفاظ وانما هو يظهر فطنة صادقة ومعرفة بالنفوس تستحق الاعجاب » .

الا ان التوفيق لم يحالف الامدى مااخذه من هذا الجانب على ابي تمام فقد كانت تخونه الحجة ويضعف عنده التحليل احيانا ، من ذلك ما خطأ فيه ابا تمام في قوله «٣» :

ظعنوا فكان بكاى حولا بعدهم ثم ارعويت وذاك حكم لبيد
اجدر بجمرة لوعة اطفاؤها بالدمع ان تزداد طول وقود

فيعلق على ذلك بقوله : « وهذا خلاف ما عليه العرب وضد ما يفرق من معانيها » .

ولا شك ان ابا تمام كان يدرك ان ذلك مما ليس تعتاده العرب ، ولا مماوقع

---

(١) الامدي : الموازنة، ١/ ٩٠ .
(٢) محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب، ص ١١٨ .
(٣) الامدي : الموازنة، ٢/ ١١٩ .

في شعرهم ، ولكن ذلك فرضه عليه عقله ، وسعة ثقافته ، وعمق تفكيره . الذي صار يخالف تفكير الكثيرين ممن عاصروه ، فنقدوه . ومن ذلك ماخطأ فيه الآمدى الشاعر بقوله :

وهو اكثر الناس اغضاء على نائل له مسروق

فقال عمر فروخ معلقا على موقف الامدى : «١» « وكل مافي الامران الامدى لم يتعود ايضا ان يرى النائل «العطاء» مسروقا . ان مايكون مسروقا في رأيه هو المال المغصوب » وهو في الواقع تصريف خطأ من جانب الامدى لان قصد ابي تمام، على اغلب الظن، ان الممدوح يسرق ماله بعلمه لشدة كرمه وعطائه . وهذا مالم يتحمله عصر الامدى .

وقد كانت كثير من المعاني التي ناقشها النقاد القدماء على انها اخطاء من جانب ابي تمام ، مثار جدل عنيف ، افاد حركة النقد العربي ، ككثير من من القضايا الاخرى التي خلفت لنا تراثا نقديا واسعا .

ولعل هذه الاهمية تبرز في دفاع انصار الشاعر عما اتهمه به الخصوم . فقد كان الشريف المرتضى من المتحمسين لابي تمام ووقف يرد على كثير مما اتهم به الشاعر فقد جاء في اماليه « ٢ » : « ومن عجيب الامور ان ابا العباس احمد بن عبيد الله بن عمار ينشد هذه الابيات المفرطة في الحسن في جملة مقابح ابي تمام ، وما خرجه — بزعمه — من سقطه وغلطه . ويقول في عقبها :

ولم يسمع بشعر وصف فيه مصلوب باغث من هذا الوصف ، والابيات هي :

مازال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى
صلى لها حيا وكان وقودها ميتا ويدخلها مع الكفار

وليت من جهل شيئا عدل عن الخوض فيه والكلام عليه . فكان ذلك اولى به . وابيات ابي تمام في نهاية القوة ، وجودة المعاني والالفاظ وسلامة السبك

---

(١) عمر فروخ : أبو تمام، ص٥٤ .

(٢) الشريف المرتضى : غرر الفوائد، ٢/٢٤٩.

واطراد النسج .... الخ ».

وواضح ان عقلية العصر لم تتحمل معاني ابي تمام كما كان يريد. ولذلك وجدنا النقاد يقلد بعضهم بعضا ويستعير بعضهم اراء البعض الاخر.

ولعل هذا البيت الذي استعار فيه ابو تمام لباس الصوف للزمان — وهو بيت جميل دون ريب — قد جعل اغلب النقاد ينكرون عليه مافيه من معنى فاعتبروه خطأ لايحتمل النقاش والبيت هو قوله:

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

وقد علق عليه المرزباني في موشحه فقال: « ١ » « وقد تقدم انكار الناس هذا البيت قبلي لما بين نصفيه من التباين في الاساءة والاحسان ».

بينما نجد الكثيرين ينكرون على الشاعر استعارته الجميلة في الشطر الثاني. وهو بلا شك مالم تتحمله عقولهم ولا ثقافتهم، التي تخالف ثقافة ابي تمام.

بعد الاستعارة:

ومما يتعلق بالمعنى ماأخذه النقاد القدماء على ابي تمام من بعد الاستعارة، وخصوصا الامدى الذي وضع حدودا للاستعارة حين قال: ان القدماء يستخدمونها « ٢ » « فيما يقارب المشبه ويدانيه، او يشبهه في بعض احواله او يكون سببا من اسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه » ومن هنا فقد وضع القدماء انفسهم في قوالب معينة لم يستطيعوا ان يفكوا انفسهم من اسارها، بل لاحقوا كل من يخرج على هذه القوالب.

ولهذا كان واضحا ان يرفضوا اكثر استعارات ابي تمام، لانهم لم يتقبلوا ان يكون للدهر حواش زاهية مشرقة، ولم يتصوروا ابدا ان يستعار للثرى صفة العروس التي تزهى بحليها وزينتها في قول ابي تمام:

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر

---

(١) المرزباني: الموشح، ص٢٨٢.

(٢) الامدي: الموازنة، ١/١٠٧.

ومن هنا كانت حملة الآمدي وغيره على استعارات ابي تمام . فاذا به ينهال على استعاراته ذما وتقبيحا وكان من جملةما وصف به استعاراته « المرذول والقبيح والرديء والفاسد والبعيد » وهذا دون شك ظلم في حق شاعر كان يريد ان يتطور في الصورة الشعرية فيتصور الاستعارة بغير مايتصورها هؤلاء الذين سدوا عليه منافذ الخيال وبعد التفكير .

وكان مما اتفق على ذمه اغلب القدماء قول ابي تمام :

فضربت الشتاء في اخدعيه ضربة غادرته عودا ركوبا

وقوله :

يادهر قوم اخدعيك فقد اضججت هذا الانام من خرقك

وقوله :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكانما لبس الزمان الصوفا

فهم لم يتصوروا ابدا ان يشبه الزمان بالانسان فيكون له اخدع ،ولم يستسيغوا ان يكون له رداء ، وان يلبس الصوف كما يفعل الانسان . او بالاحرى كما يقول شوقي ضيف وهو يشير الى الامدي ، لم يستسيغوا هذه الاستعارات « ١ » « لأن فيها الاستعارة المكنية التي يرى فيها خروجا على عمود الشعر العربي » .

والواقع ان الامدي لم يكن وحده حامل لواء هذا الرأي ، بل كان وراءه اغلب النقاد وخصوصا منهم البلاغيون الذين رسموا حدودا معينة للاستعارة .

ولذلك وجدنا ابا هلال العسكري يذم استعارات ابي تمام هذه يعيبها عليه ويضرب امثلة لهذه الاستعارات المسرفة في رأيه فيقول : « ٢ » « وقد اكثر ابو تمام من هذا الجنس اغترارا بما سبق منه في كلام القدماء ، مما تقدم ذكره فاسرف . فنعي عليه ذلك وعيب به . وتلك عاقبة الاسراف ،فمن ذلك قوله :

---

(١) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ،ص٢٣٧ .

(٢) ابو هلال العسكري : الصناعتين ، ص٣٠٣ .

يادهر قوم اخدعيك فقد   اضججت هذا الانام من خرقك

وقوله :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا   فكأنما لبس الزمان الصوفا

وقوله :

فضربت الشتاء في اخدعيه   ضربة غادرته عودا ركوبا

ثم قال بعد ذلك : وقد جنى ابو تمام على نفسه بالاكثار من هذه الاستعارات واطلق لسان عائبه ، واكد له الحجة على نفسه .

اما الباقلاني فيعلق على البيت الاخر بقوله «١» : « فهذا وما اشبهه انما يحدث من غلوه في محبته الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب » .

ونحن لا نشك ان في مثل هذه الاستعارات غرابة على عصر ابي تمام ولكن هل من لوازم الفن والنقد ان نقول للشاعر الذي تتدفق منه هذه الصور وتتمثل في شعره مثل هذه الاستعارات التي تدل على سعة ذهنه وعمق فكره : قف مكانك والتزم حدود العصر في صوره وفي استعاراته وفي ذلك جناية على الادب قبل ان يكون ظلما للاديب نفسه ؟ ! .

ولكن هذا لا يعني ان القدماء كلهم نهجوا هذا المنهج في رفض استعارات ابي تمام وتقبيحها ؛ فان اخرين وقفوا مع ابي تمام يشدون على يده ويفسرون مذهبه في استعاراته. من ذلك البيت الذي قال فيه ابو تمام :

شاب رأسي ، ومارأيت مشيب الرأس   الا ممن فضل شيب الفؤاد

وقد قال فيه الجرجاني في وساطته : « ٢ » « وهذا مما استقبح من استعاراته » ويقصد استعارة الشيب للفؤاد وقد فسر عمر فروخ كلام صاحب الوساطة بقوله : « ٣ » «ولعل الجرجاني قد اتى في ذلك من استغراب نفر من جلساء احمد بن ابي دؤاد لهذا البيت.... قال بعضهم : وكيف يشيب الفؤاد... وقد صرف التبريزي البيت اذ قال فيه : اي ما شبت للكبر انما للهموم»

---

(١) الباقلاني : اعجاز القرآن ، ص١٠٨ .

(٢) الجرجاني : الوساطة ، ص٢٥٠ .

(٣) عمر فروخ : ابو تمام ، ص٦٢ .

ولا شك ان التبريزي قد وضع يده على عين الصواب لانه خير من تفهم مذهب ابي تمام وفسر شعره.

ابتداع المعاني :

وقد اشار النقاد فيما تحدثوا فيه عن معاني ابي تمام ، الى ابتداعه للمعاني ، فقال ابن الاثير «١» : «اما ابو تمام فانه رب معان وصيقل الباب واذهان، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ولم يمش فيه على اثر».

لكن ذلك لا يعني ان كل النقاد سلموا للشاعر بالريادة، رغم ان ما اشتهر به ابو تمام بانه شاعر المعاني فقد «٢» « نقل الامدي عن محمد ابن العلاء السجستاني انه قال: وليس لابي تمام معنى انفرد به واخترعه الا **ثلاثة معان** ».

غير ان الامدي يخالفه في هذا ويرى «٣» : «ان له على كثرة ما اخذه من اشعار الناس ومعانيهم مخترعات كثيرة وبدائع مشهورة». ولا شك ان الذي دفع السجستاني الى هذا الادعاء هو حنقه عليه وخصامه له؛ اذ المعروف عن ابي تمام، انه صاحب المعاني الذي لا يجاريه اي شاعر قبله ولا بعده. ولعل ابن الاثير كان اكثر توفيقا في حديثه عن ابتداع المعاني اذ اخذ بنظر الاعتبار مسألة توارد الخواطر . ورفض ان تكون المعاني موقوفة على القدماء «٤» **فاذا قيل**: ان المعاني المبتدعة سبق اليها ولم يبق معنى مبتدع عورض ذلك بما **ذكرت** ... والصحيح ان باب الابتداع للمعاني مفتوح الى يوم القيامة ..» وكذلك يجرى الامر في غير ما اشرت اليه من معان ظاهرة، تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة، وتستوى في ايرادها كقول ابي تمام:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

(١) ابن الاثير : المثل السائر، ٢٢٧/٣.
(٢) الامدي : الموازنة : ١٣٣/١ .
(٣) الموازنة : ١٣٤/١ .
(٤) ابن الاثير : المثل السائر، ٢١٩/٣ - ٢٢٠ .

فان هذا معنى مخصوص ابتدعه ابو تمام.

وانطلاقا من هذا الكلام، فقد رد ابن الاثير بصورة غير مباشرة على الذين يقللون من مقدرة ابي تمام على ابتداع المعاني «١» : «وقد قيل ان ابا تمام اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعاني ، وقد عددت معانيه المبتدعة فوجدت ما يزيد على عشرين معنى ... وما هذا من مثل ابي تمام بكبير فمن ذلك قوله:

واذا اراد الله نشر فضيلة　　طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت　　ما كان يعرف طيب عرف العود

وقوله:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى　　فالسيل حرب للمكان العالي

وقد مثل له لذلك بابيات كثيرة .

وابن الاثير هذا عجيب في اهتمامه بقضية المعاني والاشارة الى ابتداعها . ونحن نلمس من خلال ذلك انه كان معجبا بمعاني ابي تمام اعجابا شديدا، لانه كان يتمثل بكل ضرب من ضروب موضوعاته في المثل السائر بابيات من شعر ابي تمام، لا بل نحن نعجب من هذا الرجل الذى ابدى نظرات فريدة في مسألة المعاني. ففي مكان اخر من كتابه قسم المعاني قسمين، وتحدث عن القسم الاول فيها، وهي المعاني المبتدعة، ليؤكد اكثر من مرة، ان ابا تمام كان صاحب معان مبتدعة فقال : «٢» «الاول يبتدعه مؤلف الكلام من غير ان يقتدى فيه بمن سبقه، وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ويتنبه له عند الامور الطارئة فمن ذلك ما ورد في شعر ابي تمام في وصف مصلبين :

بكروا واسروا في متون ضوامر　　قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم　　ابدا على سفر من الاسفار

وفي رأينا ان هذا الابتداع في المعاني مؤداه كثرة تجارب الشاعر، بكثرة اسفاره، وسعة ثقافته، المتنوعة واختلاطه الشديد باجناس شتى وطوائف كثيرة

(١) المصدر نفسه : ٢٢٠/٢

(٢) ابن الاثير : المثل السائر، ٧/٢ .

وذلك كله، دون ريب، فتح امامه افاقا واسعة قلما توفرت في غيره .

السرقات :

وموضوع السرقات من اخطر الموضوعات التي عالجها النقاد القدماء ولا جدال في ان تلك المعالجة كان ينقصها الانصاف تارة، والحصافة النقدية تارة اخرى. وربما كانت في كثير من الاحيان نسبية. فربما حكم ناقد على بيت بانه مسروق ، فاذا بناقد آخر يعتبر المعنى شائعا لا اثر للسرقة فيه، او ان معنى البيتين مشترك، او فيه توارد خواطر ..... وهكذا .

وفي ذلك يقول الصاحب بن عباد: «١» «فاما السرقة فما يعاب بها لاتفاق شعراء الجاهلية والاسلام عليها ».

والمتحاملون على ابي تمام اتهموه جميعا بسرقة معاني الشعراء. ولقد استغلوا في رأينا ما جمعه من شعر القدماء في حماسته. فاتهموه بانه كان يغير على تلك المعاني وفي ذلك قال المرزباني «٢» : «وللطائي سرقات كثيرة احسن في بعضها واخطأ في بعضها ولما نظرت في الكتاب الذى الفه في اختيار الاشعار وجدته قد طوى اكثر احسان الشعراء . وانما سرق بعض ذلك فطوى ذكره ، وجعل بعضه عدة يرجع اليها في وقت حاجته».

واكثر الذين فصلوا في سرقات ابي تمام، هو الامدى ، فقد انفق فيه صفحات كثيرة من كتاب الموازنة. وبالرغم من تحامل الامدى على ابي تمام في مسألة السرقة الا اننا نلمس في ثنايا حديثه خطرات نقدية نزيهة، تدل على طول باعه في النقد، ومعرفته باشعار القدماء. فقد دافع عما «٣» «نسبه ابن ابي طاهر الى السرقة وليس بمسروق، لانه مما يشترك الناس فيه من المعاني ويجرى على السنتهم فمما نسبه الى السرقة وليس بمسروق قول ابي تمام :

الم تمت يا شقيق الجود من زمن فقال لي: لم يمت من لم يمت كرمه

---

(١) الصاحب بن عباد : الكشف عن مساويء متنبي، ص٤٣ .

(٢) المرزباني : الموشح ، ص٣٨١ .

(٣) الامدي :الموازنة ، ص١٢٠، ١٢١ .

وقال: اخذه من قول العتابي :

ردت صنائعه اليه هباته فكأنه من نشرها منشور

ومثل هذا لا يقال فيه مسروق لانه قد جرى في عادات الناس. اذا مات الرجل من اهل الفضل والخير. واثني عليه بالجميل ان يقولوا : ما مات من خلف هذا الثناء، ولا من ذكر بمثل هذا الذكر . وذلك شائع في كل امر وفي كل لسان » .

ونحن نعجب بهذه الروح النقدية التي لا تدل فقط على ملكته الواسعة، وانما تدل على انه كان يعرف طبائع الشعوب، وعادات الناس. ومن خلال ذلك كان يصدر نقده . ولعل صاحب الوساطة كان اكثر انصافا من غيره فيما يخص سرقات ابي تمام. فقد رد كثيرا مما اتهم به هذا الرجل على انه ليس سرقة . وقد جاء الجرجاني في هذا بعد الامدى في قوة ملكته النقدية، لكنه كان اقل عنفا من الامدى امام هفوات ابي تمام. ففي مكان من الوساطة يدافع عما اتهم به الشاعر بانه مسروق وهو قوله:

ابدلته ارؤسهم يوم الكريهة من قنا الظهور قنا الخطى مدعما

«(١) «وقد عد هذا من سرقات ابي تمام ولست اراه كذلك لانه ليس فيه اكثر من رفع الرؤوس على القنا وهذا معنى مشترك لا يسرق ».

ومع ما قلناه في الامدى من انه كان يلح في نقده لسرقات ابي تمام . الا انه في كثير من الاحيان يقنعنا بالحجة والبينة ، وذلك حين يضعنا وجها لوجه . امام كثرة المعاني التي تشبه بيت ابي تمام فمن ذلك قوله « ٢ » : « وقال مسلم بن الوليد :

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتحل

اخذه الطائي فقال :

وقد ظللت عقبان اعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل

اقامت مع الرايات حتى كانها من الجيش الا انها لم تقاتل

(١) الجرجاني : الوساطة : ص٢٣٠ .

(٢) الامدي : الموازنة، ص٦٢ .

فاتى في المعنى زيادة وهو قوله: « الا انها لم تقاتل » وجاء به في بيتين واخطأ ايضا في المعنى بقوله : « في الدماء نواهل » والنهل : هو الشرب الاول . والعلل : الشرب الثاني ، والعقبان لا تشرب الماء وانما تأكل اللحم. وقد ذكر المتقدمون هذا المعنى . فاول من سبق اليه الافوه الاودى، وذلك في قوله . . . الخ » .

وقد احتج لاثبات رايه بابيات للافوه الاودى والنابغة وحميد بن ثور وابي نؤاس ، ثم بين ما اخذه كل واحد من الاخر. وهو دليل خدمته في الشعر القديم ، وقوة ملكته اللغوية وحسن ادراكه لطبائع الاشياء .

وقد اثارت هذه الحملة — حملة السرقات — في مجال النقد ، فائدة لاتقل عن فائدة البحث في قضية اللفظ والمعنى . لان النقاد اخذوا يفسرون مظاهر السرقات وانواعها . وحين كانوا يريدون الدفاع عنها . انتحلوا الاعذار لاصحابها فجعلوا لها اقساما وفروعا ، كالمعاني المشتركة وتوارد الخواطر. والنظر والتشبيه .... الخ . وخير من فصل في هذا الشريف المرتضى ، فقد كتب في طيف الخيال «١» «انه لاينبغي لمنصف ان يقول : هذا البيت مسروق المعنى من فلان ، لانه قاطع على مالا يأمن هذا ان يكون كذبا . فربما توارد فيه من غير قصد . والاولى ان يقال : هذا نظيره ومشبهه .

وهكذا يجب ايضا الا يطلق احد معنى من المعاني انه سابق اليه ،وان كان لم يسمع له نظيرا ولا عثر له على شبه . فان الخواطر لاتضبط ولا تحصى .

ومن ذا الذي يحيط علما بكل ماقيل وسطر وذكر ؟والانصاف ان يقال : في مثل هذا المعنى ينفرد به فلان ... ومن اخرج اليه خاطره بعض المعاني من غير ان يكون سمعه ولا قرأه ،ولا احتذاه . فله فضل الاستخراج والاستنباط الدالين على قوة الطبع وصحة الفكر » . والمعروف ان الشريف المرتضى كان من اشد المتعصبين لأبي تمام وقد دافع عن سرقاته في اكثر من مكان .

---

(١) الشريف المرتضى : طيف الخيال ، ص١٤١ .

الالـــفاظ :

ونصيب الالفاظ في نقد القدماء . ليس اقل من نصيب المعاني ، ومن هنا كانت اهميتها في هذه الدراسة لاتقل عن اهمية دراسة المعاني . وقد تطرق القدماء في نقدهم لالفاظ ابي تمام الى اكثر من ناحية . فقد درسوها من حيث الضعف ومن حيث القوة . وعابوا فيها الوحشي والغريب . كما تطرقوا الى قوافي الشاعر ايضا . وحين وضع النقاد قواعد لالفاظهم الزموا الشعراء بقوالب معينة واساليب ثابتة كأنها لازمة من لوازم النظم الجيد . وحين كان الشاعر يخرج على تلك القواعد فانه يتعرض لمخاصمة النقاد ويصير شعره عرضة للنقد والتجريح ، من ذلك ما اشترطه ابن رشيق في استعمال الالفاظ قوله «١» : «وللشعراء الفاظ معروفة ، وامثلة مألوفة ، لاينبغي للشاعر ان يعدوها ولا ان يستعمل غيرها » .

ويرى ابو هلال العسكري «٢» ان «الشأن ليس في ايراد المعاني ، لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي . وانما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسن بهائه ، ونزاهته ونقائه. وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب والخلو من اود النظم والتأليف ..... ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ماوصفناه من نعوته التي تقدمت » .

وما دام هؤلاء النقاد قد وضعوا شروطا للالفاظ — لا يجوز للشاعر ان يعدوها كما قال ابن رشيق ولا يقنعون بغير ماوصفوه منها كما قال العسكري — فان شعر ابي تمام لابد له ان يتعرض لنقد النقاد ، خصوصا وانه قد سار على هواه ، وانطلق من مبدأ مذهبه في التصنيع والزخرف والزركشة .

الغرابـــة :

ولعل اولى القضايا التي اخذها النقاد القدماء على الشاعر ما اسموه بغرابة

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، ٢/٨٣ .

(٣) ابو هلال العسكري : الصناعتين ، ص٥٧ وانظر : البيان والتبيين الجاحظ ص٧٥ .

الالفاظ وتعقيدها ووحشيتها . والواقع ان هؤلاء النقاد لم يكرهوا هذه الالفاظ من حيث هي وحشية او غريبة ، ولكنهم رفضوها في شعر المحدثين المتحضرين ورأوا ان هذه هي الفاظ البدو الجاهلين . فلا يجوز ان يستعملها شاعر متحضر كأبي تمام . ومن هنا وصف صاحب الوساطة ابا تمام بقوله « ١ »: « واظهر التعجرف وتشبه بالبدو ونسي انه حضري متأدب وقروي متكلف » .

ثم قال عنه بعد ذلك «٢» : « اذا اراد ان يجري على سجيته جاءت الفاظ شعره فصيحة مألوفة . فاذا قصد التكلف كثرت في شعره تلك الالفاظ الغريبة الوحشية النافرة » . ومن هنا عدوا ابا تمام شاعرا متكلفا في الفاظه ، لانه يتكلف الفاظ غيره ، ويبتعد عن الفاظ عصره «٣» « وكان ابو تمام يأتي بالوحشي الخشن كثيرا ويتكلف » .

ويبدو ان ابا تمام كان يتصنع هذه الالفاظ في صياغته تصنعا ينسجم مع مبدئه في التجديد ويتلاءم مع ثقافته التي تتطلب العمق ، والخروج على مألوف الناس . ومن هنا فقد اختلط في فنه الحوشي والتصنيع في التلوين البديعي ، وذلك ماجعله شاذا في عصره ، خارجا على طريقة الشعراء في زمانه .

ويبدو ايضا انه تأثر بما جمعه من شعر الاوائل ، فاعجبه شعرهم واستهوته الفاظهم . ولذلك قال عنه الجرجاني «٤» « فانه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالاوائل في كثير من الفاظه فحصل منه على توعير اللفظ فقبح في غير موضع من شعره ... فتعسف ما امكن وتغلغل في التعصب كيف قدر . ثم لم يرض بذلك حتى اضاف اليه طلب البديع ، فتحمله من كل وجه وتوصل اليه بكل سبب » .

ورغم اعجابنا بقابلية ابي تمام في اختيار الفاظه — والتي هي دليل على سعة ثقافته وطول باعه في معرفة اشعار القدماء — الا اننا لانمتلك امام نقد النقاد

---

(١) الجرجاني : الوساطة ، ص٧٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص٧١ .
(٣) ابن رشيق : العمدة ، ٢٦٦/٢ .
(٤) الجرجاني : الوساطة ، ص١٩ .

سوى التسليم بالكثير مما اخذوه عليه . والا فكيف نحكم على شاعر عباسي متحضر يقول :

كان في الاجفلى وفي النقرى عر　　　　فك نضر العموم نضر الوحاد

الا ترانا نوافق المرزباني في تعليقه على البيت بقوله «١» « : وهذا من الكلام البغيض والغريب المستكره من البدوى . فكيف به اذا جاء من ابن القرية ؟ »

ومن اشد الذين تعرضوا لوحشي الالفاظ وغرابتها الامدى . والامدى هذا لم يترك هنة لابي تمام الا وتعرض لها بالنقد . وكثيرا ما اشتد بالقسوة على الشاعر . ولكننا احيانا لانمتلك الا ان نشفق على ابي تمام في الفاظه ، ونضم صوتنا الى الامدى . والامدى ليس كغيره يحكم بالعاطفة والهوى الشخصي ، وانما يصدر في اغلب الاحيان عن ذوق نقدى سليم مقنع ومما عابه على ابي تمام واستثقله قول الشاعر :

خان الصفاء اخ خان الزمان اخا　　　　عنه فلم يتخون جسمه الكمد .

وقد علق على البيت بقوله « ٢ » « فما اقبح ما اعتمد من الفاظ في البيت ، من اجل ان يشبهها ، وهو خان وخان ويتخون . وقوله : اخ واخا فاذا تأملت المعنى مع ما افسده من اللفظ لم تجد له حلاوة ولا فيه كبير فائدة . لانه يريد خان الصفاء اخ خان الزمان اخا من اجله اذ لم يتخون جسمه الكمد ونحو قوله :

يوم افاض جوى اغاض تغربا　　　　خاض الهوى بحرى حجاه المزيد »

الثقل والقبح :

ومما اخذه النقاد على ابي تمام ، ما اسموه ثقل الالفاظ وقبيحها لثقلها وقد حاسبه عليها نصيره ابن الاثير وكان هذا معجبا بابي تمام . ولكن اعجابه به لم يحجب بينه وبين ما استثقله من الفاظ ، وانظر تعليقه على بيت ابي تمام الذي

---

(١) المرزباني : الموشح ، ص٢٧٨ .
(٢) الآمدي : الموازنة ص ٢٧٧ .

يقول فيه :

قد قالت لما اطلخم الامر وانبعثت عسواء تالية عبسا دهاريسا

فقد وصفه بالقبح وقال «١» : « فلفظة : اطلخم . من الالفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين : في انها غريبة ، وانها لفظة في السمع كريهة على الذوق . وكذلك لفظة : دهاريس ايضا» .

ورغم اعجاب ابن الاثير بشعر ابي تمام ، الا ان نزاهة النقد كانت في كثير من الاحيان تغلب على هواه الشخصي ، فاذا هو يصدر عن روح نقدى ، يتسم بسعة الافق وسلامة الذوق ، خصوصا حين يقارن مايراه ثقيلا كريها من شعر ابي تمام ، بشعر غيره الذي يراه لطيفا مقبولا . واقرأ تعليقه على بيت ابي تمام الذي عابه كثيرون من قبله وهو قوله :

يادهر قوم من اخدعيك فقد اضججت هذه الانام من خرقاك

فقال ابن الاثير «٢» : « الا ترى انه وجد لهذه اللفظة في بيت ابي تمام من ثقل على السمع والكراهية في النفس ، اضعاف ما وجد لها في بيت الصمة بن عبدالله الذي يقول فيه :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الاصغاء ليتا واخدعا

من الروح والخفة والايناس والبهجة .

ونحن نضم صوتنا الى صوت ابن الاثير فنقول : ان بيت ابن الصمة دون شك اشد قبولا في الارواح ، واكثر خفة . ولكن من ذا الذي قال : ان ابا تمام لم يكن يدرك مثل هذا ؟ وهو في رأينا صدى لثقافته الممتزجة بالفلسفة والكلام والمنطق . ورغم هذا الذي اخذه ابن الاثير على الفاظ ابي تمام فان الناقد يعترف ان الفاظ صاحبه الشاعر من القوة ما لايحسن الاغضاء عنها . ولذلك فهو يعترف له بالفضل فيقول «٣» : « والالفاظ الجزلة تتخيل في السمع

(١) ابن الاثير :المثل السائر ، ٢٣٥ .

(٢) ابن الاثير : المثل السائر ص١-٣٨٤ .

(٣) ابن الاثير : المثل السائر ، ص١-٢٥٢ .

كأشخاص عليها مهابة ووقار . والالفاظ الرقيقة ، تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين الخلاق ولطافة مزاج . ولهذا نرى الفاظ ابي تمام ، كأنها رجال قد ركبوا خيولهم ، واستلأموا سلاحهم ، وتأهبوا للطراد . وهي دون ادنى شك لمحات نقدية ناضجة تدل على طول باع الناقد في معرفة الالفاظ والاساليب وقد ادرك المحدثون ما في شعر ابي تمام من قدرة لغوية هائلة ، فاذا هم يدهشون امام هذا السيل الواسع من الالفاظ الجزلة القوية . وفي ذلك يقول نجيب البهبيتي «١» : « وديوان ابي تمام من اغزر الدواوين واكثرها عدد لفظ . فان سعة مادته اللغوية تدعو الى الدهشة . وان الانسان ليسائل نفسه عن مقدار ماكان الشاعر يلم به من مفردات اللغة ، اذ كانت هذه المجموعة هي مقدار ماكان يجرى منها على لسانه ويستعمله في شعره » .

الجناس والطباق :

شعر ابي تمام نسيج متكامل في لحمته وسداه . فاهتمامه بعمق الالفاظ لم يلهه عن اهتمامه بجودة السبك وجمال التعبير . وقد الزمه جمال الصورة وتلوينها وتدبيجها ، ان يختار من الالفاظ ماتكون في شكلها وشيا جميلا يستهوى النفس . ومن هنا حرص ابو تمام على ان يصب في الفاظه كل ماهو جميل رقيق ، ومن هنا كان اهتمامه بالجناس والطباق . وقد اخذ عليه بعض النقاد شدة اهتمامه بالجناس والطباق ورأوا فيه اسرافا يخرجه عن وجه الصواب .

والواقع ان هذا اللون من التصنيع ليس جديدا في شعر ابي تمام ولا على عهده . لكن ابا تمام خالف في استعماله القدماء ، حين ربط التصنيع اللفظي ، وما قد يحدثه من روعة التصوير ودقة المعنى وهذا شيء لم يألفه القدماء من قبل ولا الفه نقاد عصره . ولذلك جعلوه مسرفا متجاوزا في جناسه وطباقه .
واقرأ ماقاله الباقلاني عن ابي تمام فيما يخص الجناس والطباق «٢» : « وربما

(١) ابو تمام : حياته ، وحياة شعره ، نجيب البهبيتي ، ص٢٣٦ .
(٢) الباقلاني ، اعجاز القرآن ، ص٥٣ .

اسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيره . حتى استثقل نظمه ، واستوخم رصفه ، وكان التكلف باردا والتصرف جامدا » .

اما الامدى نقد اكثر من الاستشهاد بما رآه جناسا ثقيلا ، وطباقا رديئا ، وشأنه في هذا هو شأنه في غيره مما رآه عيبا في شعر ابي تمام . وكان يستعمل في حكمه على الشاعر اقسى الالفاظ ، وانظر الى ذلك في قول ابي تمام :

قرت بقران عين الدين واشترت بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

فقال تعليقا على هذا التجنيس «١» : « فهذا كله تجنيس في غاية البشاعة والركاكة والهجانة » وامثال هذا كثير في كتاب الامدى .

وبرغم ما كان يأخذه ابو هلال العسكرى على ابي تمام في تصنيعه الا اننا نجد بين اونة واخرى لفتات نقدية توفي الشاعر حقه ففي حكمه على ابي تمام في هذا البيت يقول :

اصم بك الناعي وان كان اسمعا واصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

«٢» « وقالوا : هذا احسن ابتداء في مرثية اسلامية . وهذا بالطبع يقصد به جودة الطباق ايضا » .

اما ابن الاثير فقد كان من اكثر النقاد ايرادا لهذا اللون من تصنيع ابي تمام وقد ذكرنا ان الناقد كان يعجب بالشاعر . ولذلك اكثر ايراد شعره في مثله السائر . لكن ذلك الاعجاب لم يمنعه ان يوجه النقد الى صاحبه فيعيب عليه «غريب تجنيسه» و «كريه طباقه» ومما اورده لابي تمام على انه من جميل التجنيس :

فاصبحت غرر الايام مشرقة بالنصر تضحك عن ايامك الغرر

لكن ابن الاثير وغيره من النقاد لم يكشفوا عما وراء هذه الاستعارات والتجنيسات من صور جميلة موحية . لان ظلال المعاني التي قصد اليها ابو تمام بفعل ثقافته الواسعة الممتدة ، وعقله العميق المتزن ، كانت ابعد مما رآه

---

(١) الامدي ، الموازنة ، ص٢٦٨ .

(٢) ابو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص٢٢٠ .

اولئك النقاد . ولذلك اكتفوا بايراد تلك التعليقات المقتضبة السريعة التي لا تستطيع ان تكشف عن روعة ذلك التصنيع .

اما ما اورده على انه كريه مستثقل فقول ابي تمام «١» :

ويوم ارشق والهيجاء قد رشقت من المنية رشقا وابلا قصقا

وقوله :

قرت بقران عين الدين واشترت بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

ولا شك اننا نؤيد ابن الاثير فيما استثقله على البيت الاول . اما الثاني فبرغم ثقله وشدة تصنعه فان ابن الاثير ليس له الفضل في نقده فقدورد ذلك في نقد الكثيرين من قبله . ولكن. هل اكتفى النقاد القدماء بما نقدوه من قضية اللفظ وقضية المعنى ، ام انهم تجاوزوهما الى اشياء اخرى ؟ لاشك ان شعر ابي تمام ومذهبه الجديد قد اثار اوسع عملية نقدية عرفها العرب — كما المحنا الى ذلك . ومن هنا فان هؤلاء النقاد لم يتركوا ابسط القضايا من شعر هذا الشاعر ، تمر دون ان يمسوها بالنقد الخفيف او العنيف ، فالقضايا التي اوردناها . والتي هي اساس نقد شعر ابي تمام ، لم تكن هي كل شيء وانما تعداها النقاد الى مسائل اخرى تتعلق بها وتعود اليها .

حسن الابتداء :

فقد اشاروا مثلا الى حسن الابتداء في شعر ابي تمام وبينوا ما هو جيد عنده ، وفسروا ما هو قبيح فيه . ولعل اكثرهم ، اتفقوا على ان قبح الابتداء في شعر الرجل . سببه غرامه بالبديع وتعلقه بالتجنيس «٢» « ومما يكره من الابتداء قول ابي تمام :

تجرع اسى قد اقفر الجرع الفرد ودع حسن عين يجتلب ماءها الوجد

وانما القى ابا تمام في مثل هذا المكروه ، تتبعه للتجنيس بين تجرع والجرع

(١) ابن الاثير ، المثل السائر ١/٣٤٤ .

(٢) ابن الاثير ، المثل السائر ، ٣/٩٩ .

وهذا دأب الرجل ، فانه كثيرا مايقع في ذلك » .

هذا هو رأي صاحبه وناصره ابن الاثير . ولعل النقاد كما قلنا قد اتفقوا في تعليل السبب ، فهذا المرزباني يرى هو الاخر ان ابتداءات ابي تمام المذمومة سببها غرامه بالتجنيس ومن قوله في ذلك «١» « فمن ابتداءاته المذمومة قوله : « خشيت عليه اخت بني خشين ». وهذا الكلام لايشبه خطاب النساء في منازلتهن . وانما اوقعه في ذلك محبته للتجنيس وهو بهجاء الناس اولى » .

لكن المشهور في ابتداءات ابي تمام ، انها جيدة يصب فيها احيانا كل عواطفه وقوة ملكته ، وقد حمد له ذلك اغلب النقاد وكادوا يتفقون — انصاره وخصومه — على ابتداءات معينة اشتهر بها ابو تمام من مثل قوله :

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

او قوله :

الحق ابلج والسيوف عوار فحذار من اسد العرين حذار «٢»

التشـــبيه :

ولقد عني ابن الاثير في تشبيهات ابي تمام . ولم يمنعه اعجابه به من نقده وبيان سقطه في هذا الشأن . ولذلك وقف على كثير من تشبيهاته المعيبة فنبه عليها ، من مثل قول الشاعر يمدح :

وتقاسم الناس السخاء مجزءا وذهبت انت برأسه وسنامه
وتركت للناس الاهاب وما بقى من فرثه وعروقـه وعظامه

وقد علق على البيت بقوله «٣» « : أن هذا التشبيه من اقبح ماسمعته . والقبيح الفاحش في البيت الثاني . وكل هذا التعسف في التشبيه البعيد دندنة حول معنى ليس بطائل فان غرضه أن يقول : ذهبت بالاعلى وتركت للناس الادنى ، او ذهبت بالجيد وتركت للناس الرديء » .

والواقع ان ماأوقع ابا تمام في بعض الاحيان ، هو تدفق معانيه التي لم تترك له مجالا ليرتب صوره ويقوم الفاظه. لكن ذلك لايعني ان هؤلاء النقاد كان

---

(١) المرزباني ، الموشح ، ص٢٧٩ .

(٢) انظر بشأن ذلك ، العمدة ، ٢٣٣/١ ثم انظر موازنة الامدي ووساطة الجرجاني .

(٣) ابن الاثير ، المثل السائر ، ١٥٣/١ .

يحالفهم الحظ في كل الاحوال . فمن جملة مااخذوه عليه اغابهم قوله :

لا تسقني ماء الملام فانني   صب قد استعذبت ماء بكائي

فقد عاب اغلب النقاد عليه هذا التشبيه الرائع لانهم انكروا ان يكون للملام ماء . وقد اورد ابن الاثير رأي النقاد فيه ، لكنه هو نفسه لم يرفضه او يستقبحه فقال : «(١) « وقيل : انه جعل للملام ماء وذلك تشبيه بعيد . وما بهذا التشبيه عندي من بأس بل هو من التشبيهات المتوسطة التي لاتحمد ولا تلام . وهو قريب من وجه بعيد من وجه . اما سبب قربه ، فهو ان الملام هو القول الذي يعنف به الملوم لامر جفاه وذاك مختص بالسمع فنقله ابو تمام الى السقيا التي هي مختصة بالحلق . واما سبب بعد هذا التشبيه فهو ان الماء مستلذ . والملام مستكره . فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه » .

ونحن من جانبنا لانعتبر التشبيه بعيدا ، وانما نرى الشاعر قد ذهب الى ابعد مما يذهبون . حين اوحت اليه بذلك روعة الصورة التي تصورها في ذهنه ، مما ليس في ذهنهم ولا في تشبيهاتهم كذلك فقد تطرقوا الى اغراض الشاعر ،وبينوا ما اجاد فيه وما استقبح منه وكادوا جميعاان يتفقوا على ان ابا تمام قد بز الشعراء في المدح ، واجاد في الرثاء ، ورأوا ان غزله ليس بجيد . وذكروا من فرائد مدحه قصيدته في مدح المعتصم التي اولها «السيف اصدق انباء من الكتب» وهي قمة المدح الرائع . وقصيدته في مدح عبدالله بن ابي طاهر التي اولها «هن عوادى يوسف وصواحبه» . وقد صارت علما في المدح .

لكن ذلك لايعني انهم استملحوا كل مدحه . فلقد عاب الجرجاني كثيرا من ابيات مدحه كقوله :

أأترك حاجتي غرض التواني   وانت الدلو فيها والرشاء

مشيرا في ذلك الى تشبيه الممدوح بالدلو وهو قبيح وقوله :

ضاحي المحيا للهجير وللقنا   تحت العجاج تخاله محرانا

وقوله :

تثفي الحرب منه حين يغلى   مراجلها بشيطان رجيم

---

(١) ابن الاثير ، المثل السائر ٢/١٥٥ .

«١» « فهو يجعل الممدوح تارة دلوا وتارة محراثا ومرة شيطانا رجيما » .

اما صاحب العمدة فيجعل : «٢» « ابا تمام من المعدودين في اجادة الرثاء ويستدل على ذلك في قصيدة رثى بها محمد بن حميد فيقول :

الا في سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الثغر وانثغر الثغر

ولا شك ان ابن رشيق صاحب ذوق سليم ، والا لكان عابه على تكرار كلمة الثغر . وهو مما كان يحاسب به بعض النقاد القدماء . لكن تكرار الكلمة هنا جاءت رائعة قوية .

وعدوا ابا تمام ضعيفا في غزله وقد قال ابن رشيق في ذلك «٣» « ولم يكن لابي تمام حلاوة توجب له حسن التغزل . وانما يقع له من ذلك التافه اليسير في خلال القصائد » . لكنهم لم ينكروا غزله الجيد ، فقد اورد له ابن الاثير قصيدة قال في تعليقه عليها . «٤» « وله في الغزل من الاستعارة مابلغ به غاية اللطافة والرقة ، وذلك في قصيدته التي مطلعها «ان عهدا لو تعلمان ذميما » فقال :

قد مررنا بالدار وهي خلاء فبلينا طلولها والرسوما

وسألنا ربوعها فانصرفنا بسقام وما سألنا حكيما

كنت ارعى النجوم حتى اذا ما فارقوني امسيت ارعى النجوما »

اما الامدى فقد اشار الى بعض اغراضه ، وفصل كثيرا في بعض معانيها خصوصا ما تعلق منها بالوقوف على الديار وما يتعلق بها من تعفية وبكاء وسؤال ودعاء ووصف وغير ذلك «٥» .

ولعل هناك شيئا مهما ، نحاول ان نغلق البحث في الاشارة اليه ، ذلك الشيء هو اختيارات ابي تمام التي لاتقل شهرة عن شعره . وما اهتمام النقاد في

(١) الجرجاني ، الوساطة ، ص٦٩ .

(٢) العمدة ، ابن رشيق ، ١٤٨/٢ .

(٣) ابن رشيق ، العمدة ، ١١٩/٢ .

(٤) ابن الاثير ، المثل السائر ١٠٤/٢ .

(٥) انظر بشأن ذلك كتاب الموازنة .

الحديث عنها . وما عناية الشراح بشرحها . والتعليق عليها ، ودراسة الدارسين لها الا برهان اكيد على دقة ذوق الشاعر وطول باعه في معرفة الشعر القديم .

وقد اشاد الباقلاني بهذه الاختيارات حين قال «١» : « في الاختيار ماسلكه ابو تمام من الجنس الذي جمعه في «كتاب الحماسة» وما اختاره من «الوحشيات» وذلك انه تنكب المستنكر الوحشي ، والمبتذل العامي ، واتى بالواسطة وهذه طريقة من يتصف في الاختيار ولا يعدل به غرض يخص » .

وبعد ، فهذا شعر ابي تمام في ميزان نقادنا القدماء ، وهو - مهما اختلفت فيه آراء النقاد وتعددت به اتجاهاتهم - سجل حافل باروع الصور واعمق الافكار وهو ان دل على شيء فانما يدل على ان في تراث امتنا كنوزا ثمينة لاتفنى .



---

(١) الباقلاني ، اعجاز القرآن ، ص ١١٧ .

إكبار المبرد[1] أبا تمام

حازم الحاج طه

اما ابو تمام فانه رب معان . وصيقل الباب واذهان .
وقد شهد له بكل معنى مبتكر . لم يمش فيه على اثر .
فهو غير مدافع عن مقام الاغراب الذي برز فيه على
الاضراب . ولقد مارست من الشعر كل اول واخير .
ولم اقل ما اقول فيه الا عن تنقيب وتنقير . فمن حفظ
شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه
اطاعته اعنة الكلام . وكان قوله في البلاغة ما قالت
حذام فخذ مني في ذلك قول حكيم وتعلم ففوق كل
ذي علم عليم »

الاديب الناقد ابن الاثير

طلب الي ان اساهم في الكتابة عن ابي تمام . ولما كنت حفيا كل الحفاوة بالمبرد ، مقبلا اشد الاقبال على آثاره ، حريصا الحرص كله على ايفائه حقه

---

(١) هو ابو العباس محمد بن يزيد بن عبد الاكبر ، وينتهي نسبه الى الاسد بن الغوث وهو الازد فهو ثمالي ازدى بصرى . ولد بالبصرة يوم الاثنين غداة عيد الاضحى سنة (٢١٠)ﻫ وتوفي سنة (٢٨٥)ﻫ في شوال وقيل في ذي القعدة بلغ المبرد في علوم اللغة العربية وفنونها من الجلالة مالم يبلغه الا القليل حتى آلت اليه زعامة النحو البصري ، وهو-وان كان لايعرف الا بالنحوي واللغوي — ذو قدم مكينة ، وبصر نافذ بالنقد والادب . وقد خلف كتبا حسانا تدل على فضله الجم ، وعلمه الغزير ، غير ان الدهر قد عبث بجل هذه الكتب ولم يبق منها الا القليل . وهذا القليل كله علم من صميم العلم ؛ ولذا نراه يغني غناء الكثير ، بل اكثر من الكثير ، ومن اشهر هذه الكتب (الكامل) في اللغة والادب والنحو والتصريف .(والمقتضب) في النحو والصرف .

ونشر آرائه . كان لزاما علي ان اورد رأي المبرد في ابي تمام وشعره . واني لادلي دلوي بين الدلاء اقتداء بالمبرد كي اؤدي مايجب علينا من حق لشاعر ملك شعره الالباب وخلب القلوب ، بما حفل من رائع القول ورصانته وجيد المعنى ورونقه ، وعبقري الفكر وبديعه ، وعذوبة الاسلوب وروعته . وسمو الخيال وحدته ، ودقة التصوير وجودته . ومصطفى اللفظ ونيره . فتبوأ مكانة سامية لاتدانيها مكانة ، وحل في النفوس منزلة لاتساميها منزلة .

ولست بمسرف في القول ان قلت : ان ابا تمام هو ذلكم الطود الاشم الذي يعز على من رامه . انك اينما وليت وجهك شطر شعر الرجل رأيت صورا فنية شائقة تبهرك وتثير فيك الاعجاب . ولو انك ارسلت الطرف وامعنت النظر مرة اثر اخرى في شعره لتبدت لك غرر أخاذة ، ومعان رائعة لم تهتد اليها من قبل .

فابو تمام — وبيننا وبينه مايربو على الف سنة — يطغى على الدهر جدة . ويزهو على الايام قوة . فلكم صور ما نحس به من خلجات واحاسيس فأوفى على الغاية من دقة التصوير . ولكم ابدى ماتكن اعماق افئدتنا من مطويات اخبارها ، ابداها حكمة بالغة تخطت الحقب ، واجتازت مفاوز الزمن فتجلت لدة الدهر في شبيبته . الق السمع الى بعض حكمه التي لايشينها خطل ولا خطل :

وليس يجلي الكرب رمح مسدد   اذا هو لم يؤنس برأى مسدد «١»

وقوله «٢» :

واذا اراد الله نشر فضيلة   طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت   ما كان يعرف طيب عرف العود

(١) يجلي : يكشف ، ورمح مسدد : مصوب الى هدفه ، ورأى مسدد موفق للصواب ، ويؤنس اراد يضاف له فيؤازره . والبيت من قصيدة له مطلعها :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد   وعاد قتادا عندها كل مرقد

(٢) البيتان من قصيدة له مطلعها :

أرأيت اي سوالف وخدود   عنت لنا بين اللوى فزرود

وقوله «١» :

لاتنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

وقوله «٢» :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس احيانا على من يرحم

وقوله «٣» :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدى الفتى في دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجري على الحجا هلكن اذن من جهلهن البهائم

وقوله «٤» :

ليس الصديق بمن يعيرك ظاهرا متبسما عن باطن متجهم

تره فيها عالما من علماء النفس والاجتماع بلا الزمان واهله ، وسبر اغوار نفوسهم ، ودرس طباعهم ، وخبر اعماق افئدتهم ، وكشف عن مكنون صدورهم . فكان ما احس به صادرا عن وحي ذكائه الثاقب ، ورأيه الصائب . مدللا كل اولئك ببرهان ساطع ، وحجة قوية لاتدحض . اذ انه كان لايصدر حكمه وآراءه الا بعد اختبار طويل ، ودرس عميق . وما هذه الحكم الا دليل قاطع على حصافة ابي تمام ، وثقوب بصيرته ، وعبقرية الفكر . ولله دره اذ يقول في وصف شعره :

---

(١) البيت من قصيدة له مطلعها :

كفي وغالك فانني لك قالي ليست هوادي عزمتي بقوالي

(٢) البيت من قصيدة له مطلعها :

ارض مصردة واخرى تثجم منها التي رزقت واخرى تحرم

(٣) البيتان من قصيدة له مطلعها :

الم يأن ان تروى الظماء الحوائم وان ينظم الشمل المشتت ناظم ؟

(٤) البيت من قصيدة له مطلعها :

نثرت فريد مدامع لم ينظم والدمع يحمل بعض ثقل المغرم

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى والليل اسـود حالك الجلباب
بكرا تورث في الحياة وتنثني في السلم وهي كثيرة الاسلاب
ويزيدها مر الليالي جـدة وتقادم الايام حسن شـباب

الى غير ذلك من الحكم التي يزخر بها شعره . فالرجل يفيض قلبه بالحكمة الصائبة ،والتجربة الصادقة ، وهو في هذا كالبحر الذي جشأت غواربه يغمر برغمه ساحليه .

ولم يكن ابو تمام بالذي نال ما نال من المقام بما ذكرنا من ابيات ، بل سما بالشعر فتبوأ الذروة به جله . وحسبك دليلا ان تجيل الطرف بين لابتي ديوانه، ودفتي آثاره فانك لن تصيب الا اسمى الشعر وارفعه، واجود الكلام واروعه ، واحسن القول وابلغه .

لقد استهدف ابو تمام بشعره كل غرض من اغراضه ، وولج كل مولج من فنونه ، وطرق كل مغنى من معانيه . فكان المجلي . فما وهن ولا اسـف ولا فشلت مراميه ، ولا شاهت معانيه . انه كان ينتحي منحى تواتيه فيه الغرر امتلك بها ناصية الفن الشعري،فكان لها في سويداء القلوب مقام ومستقر فلا تبرحها .

* * *

لمحة خاطفة الى الشعر ،قديمه ومحدثه عند اللغويين والنقاد والرواة في عصر المبرد وعصر من سبقوه :

واني — قبل ان اعرض لرأى المبرد في ابي تمام وشعره — اود ان اضع امام نظر القارىء كلمة موجزة لا مندوحة عنها ، الا وهي نظرة ائمة اللغة والنقد والرواية الى الشعر قديمه ومحدثه في عصر المبرد وعصر من سبقوه وما اثارت هذه النظرة من اوار بين فريقين متبايني المنزع ،مختلفي الوجهة حتى يستبين القارىء منحى المبرد في الشعر قديمه ومحدثه .

ان فريقا تعصب اشد التعصب للشعر القديم وديباجته ورسومه . وكان وكان لا يراه الا المثل الكامل لما ينبغي ان يكون عليه الشعر .

ولا يعدل به شيئا فاحله محل العناية والرعاية . اما المحدث فكان عندهم غثاء لا يعبأ به . فلذا نراهم اعرضوا كل الاعراض عن ابي تمام وابي نواس والمتنبي والبحتري وغيرهم ، ونأوا عنهم بجانبهم، وطووا كشحا عن شعرهم .

اما الفريق الاخر فلم ير رأي الفريق الاول، وانما نظر الى الشعر من حيث هو شعر دون نظر الى الزمن سواء اكان مصدره قديما ام حديثا . ويرى ان فضيلة الشعر انما تنبع من ذاته وصدق جوهره ، وان المحدثين والقدماء في هذا الميزان سواء . ومن هنا احتدمت المعركة بين هذين الفريقين في نظرتهما الى الشعر . فهذا ابو عمرو وهو من غلاة المتعصبين للشعر القديم ، ويعد الشعر الاسلامي شعر مولدين حتى كان يقول : «لقد احسن هذا المولد حتى هممت ان آمر صبياننا بروايته» «١» يعني بذلك شعر جرير والفرزدق . فجعله مولدا بالاضافة الى شعر الجاهلية والمخضرمين . وكان لا يعد الشعر الا ما كان للمتقدمين .

قال الاصمعي : جلست اليه ثماني حجج فما سمعته يحتج ببيت اسلامي . وسئل عن المولدين فقال : ماكان من حسن فقد سبقوا اليه، وماكان من قبيح فهو من عندهم . ليس النمط واحدا : ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسيح ، «٢» وقطعة نطع . علق ابن رشيق بقوله : «هذا مذهب ابي عمرو واصحابه : كالاصمعي وابن الاعرابي ، اعني ان كل واحد منهم يذهب في اهل عصره هذا المذهب ، ويقدم من قبلهم ، وليس ذلك الشيء الا لحاجتهم في الشعر الى الشاهد . وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ثم صارت لجاجة . «٣»

ويروى المرزباني في مؤلفه «٤» ان ابن الاعرابي كان يقول : «انما اشعار هؤلاء المحدثين — مثل ابي نواس وغيره — مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به، واشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا» .

---

(١) العمدة لابن رشيق، ج١ص٩٠، ٩١ .

(٢) قوله المسيح : المنديل الخشن .

(٣) نفس المصدر، ص٩١ .

(٤) الموشح ص٣٨٤ .

ويروى ايضا عن ابي عبيد الله التميمي قوله : «كنا عند ابن الاعرابي فانشده رجل شعرا لابي نواس احسن فيه . فسكت.فقال له الرجل : اما هذا من حسن الشعر ؟ فقال : بلى . ولكن القديم احب الي » «١» .

ويروى ابن قتبة في مؤلفه عن ابي الحسن الطوسي قوله : «كنا عند ابن الاعرابي . فقال : ايهما احسن عندكم قول ابي نواس :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

او الذي اخذ منه ،وهو قول الاعشى :

وكأس شربت على لـــذة واخرى تداويت منها بها

فسكتنا . فقال : السابق اجود » «٢» .

هكذا يحكم ابن الاعرابي . ويفضل بيت الاعشى على بيت ابي نواس . وكان الناس يستجيدون قول الاعشى الى ان قال ابو نواس بيته فزاد فيه معنى . اجتمع له به الحسن في صدره وعجزه . فللاعشى فضل السبق عليه . ولابي نواس فضل الزيادة عليه مع ان قول ابي نواس :

وداوني بالتي كانت هي الداء

قد اخل بيت الاعشى ، وسار وحـــده .مثلا بما فيه من ايجاز وخفة ورشاقة ، ولكن هي العصبية للقديم .

ويقول الصولي في مؤلفه : «ومن الافراط في عصبيتهم عليه — يعنى ابا تمام — ما حدثني به ابو العباس عبد الله بن المعتز قال : حدثت ابراهيم بن المدبر — ورأيته يستجيد شعر ابي تمام ولا يوفيه حقه — بحديث حدثنيه ابو عمرو بن ابي الحسن الطوسي ، وجعلته مثلا له ، قال : وجه بي ابي الى ابن الاعرابي لاقرأ عليه اشعارا . وكنت معجبا بشعر ابي تمام . فقرأت عليه من اشعار هذيل ثم قرأت ارجوزة ابي تمام على انها لبعض شعراء هذيل :

وعاذل عذلته في عـــذلـه فظن اني جاهل من جهله

حتى اتممتها . فقال : اكتب لي هذه ، فكتبتها له ، ثم قلت : احسنة هي ؟

---

(١) المصدر السابق ص٣٨٤ .

(٢) المصدر السابق ص٤١٣ .

قال : ماسمعت باحسن منها ! قلت : انها لابي تمام فقال : « خرق «١» خرق » «٢» .

ويروى الجرجاني في مؤلفه «٣» « ان اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : انشدت الاصمعي :

هل الى نظرة اليك سبيـــل فيبل الصدى ويشفى العليل ؟
ان ماقل منك يكثر عنـدي وكثير ممن تحب القليـــل

فقال : والله هذا الديباج الخسرواني . لمن تنشدني ؟ فقلت : انهما لليلتهما . فقال : لا جرم والله ان اثر التكلف فيهما ظاهر » .

الى هذا الحد من التعصب والاسراف وصل الامر عند هؤلاء في لمز المحدثين وعيب اشعارهم . لا لعيب سوى حداثتهم . ويؤثرون عليهم المتقدمين لا لا لمزية سوى قدمهم ، من غير حجة ، ولا نقد معلل ، ولا موازنة مقبولة ، على اننا اذا امعنا النظر . واجلنا الطرف في شعر المحدثين : ابي تمام وابي نواس والبحتري والمتنبي وغيرهم وجدنا فيه من نضارة الشعر وفصاحته . وبراعة معانيه ، ودقة تعبيره وحلاوته ما لم يظفر بمثله الشعر القديم .

اما وقد استبانت مما عرضناه نظرة اللغويين والنقاد والرواة الى قديم الشعر نظرة ترينا القديم في الذروة وان كان سمجا غثا . واما المحدث وان علا وتسامى فهو عندهم هراء فج غير جدير بالالتفات اليه .

بعد هذه اللمحة الخاطفة التي لم يكن بد من تقدمتها بين يدي القارىء يجدر بنا ان نسأل هذا السؤال : هل جارى المبرد معاصريه ومن سبقوه من اللغويين والنقاد والرواة في نظرتهم الى الشعر ؟ والجواب عن ذلك ان مقام المبرد في العلم لم يجعله اسيرا ولا رهينا لمذهب معاصريه ومن سبقوه من اللغويين والنقاد . انه نهج نهجا خالفهم فيه ، ووقف من الاثار قديمها وحديثها موقفا لا يصغي فيه الا الى رأيه ، ولا يسترشد الا بمنطقه ، ولا يحابي من كانوا

(١) التخريق : التمزيق
(٢) اخبار ابي تمام للصولي ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .
(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص ٥٠ .

يرون القديم جليلا والحديث غثا . انه رأى جل العلماء واللغويين والنقاد يؤثرون القديم ويجعلون كل قديم عندهم ذا شأن خطير ، ومقام رفيع . ولكن المبرد القاضي العادل . والحكم الامين اعرض هذا الاتجاه ووقف الموقف الذي يليق بامثاله من الذين تضلعوا في العلم ، واخذوا من الثقافة باوفر حظ واوفى نصيب ، وعكف على التراث قديمه وحديثه فاستحسن ماكان حسنا من القديم ، واستحسن كذلك ماكان حسنا من الحديث . ان الحكم الفصل عند المبرد القول نفسه لا القائل قديما كان او حديثا . فالقول ان اوتي الحسن فهو حسن سواء اكان زمانه قديما ام حديثا وهذا ما حدا به ان يعجب ويستحسن الكثير من شعر ابي تمام .

انشد المبرد قول ابي تمام : «١»

شهدت لقد اقوت مغانيكم بعدى	ومحت كما محت وشائع من برد
وانجدتم من بعد اتهام داركم	فيا دمع انجدني على ساكني نجد

حتى بلغ الى قوله :

اتاني مع الركبان ظن ظننته	لففت له رأسي حياء من المجد
لقد نكب الغدر الوفاء بساحتي	اذا وسرحت الذم في مسرح الحمد

فقال المبرد :

«ماسمعت احسن من هذا قط . ما يهضم هذا الرجل حقه الا احد رجلين اما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، واما عالم لم يتبحر شعره ، ولم يسمعه. »

فالمبرد في هذه اللمحة النقدية فسيح الافق ، بصير بفنون الكلام ، حسن الذوق ، صادق الحكم في استحسان قول ابي تمام . اذ انه قصد فيه الكلام الفصيح ، والمعاني الواضحة ، وحسن الوصف ، وجمال الرصف ، وجزالة اللفظ واستقامته . والمعروف عن ابي تمام انه كان ذا منهج بياني ينتحي فيه منحى صادرا عن طبعه حتى اتى كثير من شعره فيه عمق يتطلب من قارئه كد

(١) اخبار ابي تمام للصولي ص٢٠٢ .

الفكر حتى اذا لان له عصيه . وذل شاسه استطاع ان ينفذ الى اغواره ،ويصل الى اسراره . ويكتنه معانيه الخفية .

ويقول : «١» «لابي تمام استخراجات لطيفة . ومعان طريفة ،لايقول مثلها البحتري وهو صحيح الخاطر حسن الانتزاع . وشعر البحتري احسن استواء . وابو تمام يقول النادر والبارد وهو المذهب الذي كان اعجب الى الاصمعي . وما اشبه ابا تمام الا بغائص ،يخرج الدر والمخشلبة ، ثم قال : والله ان لابي تمام والبحتري من المحاسن مالو قيس باكثر شعر الاوائل ماوجد فيه مثله » .

والمبرد بهذا الحكم قد انصف كلا من الشاعرين اعدل انصاف . اعطى ابا تمام خواصه في اختراع المعاني وطريفها ، وصحة خاطره في حسن انتزاعها . كما اعطى البحتري حقه في استواء الاسلوب والمعاني ، وان شعره من درجة واحدة في الاعتدال . واخيرا انصف الشاعرين جملة من تقدمهما من الشعراء الاوائل . وان لهما من المحاسن مالو قيس باشعار القدماء ما وجد مثله .

وهكذا يدق نظر المبرد وذوقه النقدي المنصف في شاعرين يعاصرانه . ويكثر حولهما الخلف وتباين الاراء . كما انه كان غير هياب من المجاهرة بالنقد واظهار مكامن الحسن او القبح فيما يسمع او يقرأ وان كان القائل من نابهي الشعراء او الادباء .

ويقول في معرض الموازنة .

وقال احد الشعراء «٢» :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

يقول : اغترب فأكسب مايطول به مقامي معكم وقربي منكم .

ومثل ذلك قول الاول : «٣»

---

(١) اخبار ابي تمام للصولي، ص٩٦ ، ٩٧ .

(٢) هو العباس بن الاحنف .

(٣) البيت لعروة بن الورد .

تقول سليمى لو اقمت لسرنا ولم تدر اني للمقام اطوف
وهذا الثاني واضح حسن . وهو ابين من البيت الاول .
واملح ماجاء في هذا المعنى واحسن قول ابي تمام حبيب بن اوس الطائي :
أألفة النحيب كم افـــتراق اظل فكان داعية اجتماع
وليست فرحة الاوبات الا لموقوف على ترح الـــوداع
علق المبرد بقوله «فهذا كلام عربي محض . وهذا مفاضلة بين الاشكال والنظراء » «(١)» .

ففي البيت الاول نرى الشاعر يريد النوى كي لايمل طول مقامه بينهم . فبعده عن الاحبة يقربهم من قلبه ويكثر حنينه منهم . اذ من عادة الزمان الاتيان بضد المراد . فاذا اريد البعد يأتي الزمان بالقرب . ويريد الشاعر ايضا ويطلب الحزن الذي لازم البكاء ليحصل السرور بما هو من عادة الزمان .
فاراد ان يكني عما يوجبه دوام التلاقي من السرور بالجمود . لظنه ان الجمود هو خلو العين من البكاء مطلقا .

ومما ينبغي ان ننوه به ان الجمود لايكون كناية عن السرور . بل عن البخل فيكون الانتقال من جمود العين الى بخلها بالدموع لا الى ما قصده من السرور .
وهذا ما ورد عن اهل اللغة «سنة جماد» اي لا مطر فيها ، و «نامة جماد» أي لا لبن فيها .

واما البيت الثاني فأبين واوضح كما قال المبرد ، لان الشاعر يطوف لا حبا في التطواف بل طلبا لشدة القرب ان حل بين ظهراني اهل حبيبته . فطول الثواء يورث الملل والسأم . والشاعر يريد ابعاد هذا الملل والسأم واما قول ابي تمام فهو — لاشك فيه — اوضح وادق واغزر معنى من البيتين . اذ ادى الحقيقة في اسباب واقعية . فالترح — أي الحزن — يكون ساعة الوداع ، والفرح والسرور يكونان ساعة اللقاء . فالمتحابان قد يتصارمان ويتهاجران دلالا لا عزما على القطيعة . فاذا حان الرحيل واحسا بالفراق تراجعا الى الوداد وتلاقيا خوف الفراق . وان يطول العهد بالالتقاء بعده ، فيكون الفراق حينئذ سببا للاجتماع .

(١) البلاغة لابي العباس المبرد ، ص٦٢ ، ٦٣ .

واني اويد المبرد فيما ذهب اليه . وارکن الى ترجيحه . فالترجيح واضح لكل من اوتي فهما للمعنى . اننا لمسنا كما لمس المبرد نهاية الحسن وغاية الكمال في قول ابي تمام . فالجودة بادية . والروعة ظاهرة .فلا بد من الاعتراف بفضل صاحب الفضل .

وانشد المبرد للعتبي : «١»

اضحت بخدى للدموع رسوم اسفا عليك ، وفي الفؤاد كلوم
والصبر يحسن في المواطن كلها الا عليك ، فانه مذمــــوم

قال : واخذه الطائي فقال في ادريس بن بدر السامي :

دموع اجابت داعي الحزن همع توصل منا عن قلوب تقطع
وقد كان يدعى لابس الصبر حازما فاصبح يدعى حازما حين يجزع

قال : وجاء به الطائي في موضع آخر . فقال :

الصبر اجمل غير ان تلذذى في الحب احرى ان يكون جميلا

ان هذه الابيات ترينا ان المبرد كان يلتمس شعر ابي تمام انى وجده وفي اية مناسبة انشد كلفا بشعره وهياما به .

ثم نرى المبرد يضع بابا خاصا باحسن ما قيل في غرض من اغراض الشعر ، وفي هذا الباب استحسن ما قاله ابو تمام في الشيب ، فيقول : «٢»

« قصدنا فيما نحكيه في كتابنا هذا حسن الاختيار ، وكثرة الاختصار ، وذكر ما يستغنى به عن غيره ، ويقنع بمثله عن نظيره ، وانما نذكر في كل باب احسن ما روى لنا فيه ، واطرف ما نمي الينا منه » .

ثم يقول « كانت العرب تذكر الشيب في اشعارها اما مدحا واما ذما ، وشعرهم في ذمه اكثر منه في مدحه ، ويروى انه قيل : ما بال شعركم في الشيب احسن اشعاركم في سائر قولكم ؟ قالوا : لانا نقوله وقلوبنا قرحة » .

وقال الطائي :

---

(١) الموازنة ،ص١٠٣ .

(٢) الفاضل للمبرد ،ص٧٥ .

ارى الفات قد كتبن على راسي ... باقلام شيب في صحائف انقاسي
فان تسأليني من يخط كتابتها ... فكف الليالي تستمد بانفاسي
جرت في قلوب الغانيات لشقوتي ... قشعريرة من بعد لين وايناس
وقد كنت اجرى في حشاهن مرة ... مجارى معين الماء في قضب الآس

نرى ابا تمام بوصفه هذا يبكي شبابه بعد ان دب المشيب في رأسه ، وبلغ في رأسه مبلغا افقده ما كان يتمتع به من صبوة ، ومن قوة وفتوة ، واقبال على الحياة كان ينهل منها ما لذ وطاب . وما الشيب الا مدعاة للرثاء على النفس . وبكاء على زوال العمر . وشعور بأن ما فات لن يعود .

فالمبرد في اختياره هذا النص فارس حلبة وسباق الى ما حسن من مكامن الحسن في روائع الكلام .

اما وقد استنفدنا ما قاله المبرد في ابي تمام وشعره ، فكانت حصيلة آرائه ان ابا تمام من فحول الشعراء المحدثين ، وان المبرد قدر شعره حق قدره ، ولولا ان هذا الشعر كان قمينا بالاكبار لما استوقف اماما من ائمة اللغة والنقد واثار فيه الاعجاب . والمبرد بهذا الرأى يرتفع في نقده عن مستوى العصبية التي تنزع الى العصر . وتفضل شعر عصر على شعر عصر اخر . ويرى ان فضيلة الشعر انما تنبع من ذاته ، وصدق جوهره . وان المحدثين والقدماء في هذا الميزان سواء . لا ميل الى جانب . ولا تعصب الا للحق . ولا فضل لقديم لقدمه ، ولا لمحدث لحداثته ، انما الشان في الاثر وقيمته ونفاسته وجودته . واذا عرفنا ان المبرد من رجال اللغة الذين حملوا على الشعر المحدث حملة عنيفة ادركنا صدق نظرته . ورجاحة عقله ، وفرط اتزانه . وترفعه عن العصبية القائمة على الهوى ، وانه بذلك خالف مدرسته اللغوية في هذا الاتجاه ، وانه حاول ان يصل جديد الادب بقديمه ، وإن خالف جل اللغويين والنقاد والرواة . ولا اكون مسرفا ان قلت : ان المبرد كان اول نهج مهيعا لا حبا ، واضح المعالم والصوى في نظرته الى الشعر .

وانه لقمين بنا ونحن في هذا المقام ان نقف ولو وقفة قصيرة لنفند رأى من انتقص شعر ابي تمام. ان بعض النقاد زنوا شعر ابي تمام بمعائب، منها : حرصه على الصنعة البديعية حتى قالوا ان شعره ليس بشعر الطبع، بل هو شعر الصنعة. والصنعة هذه تبعد شعره عن الشعر. ورميه باختيار الوحشي من الكلام والمستكره من الالفاظ، وعدم ملاءمته بين الالفاظ والمعاني حتى جاء شعره مما تنبو عنه الاذان، ولا تهفو النفوس الى سماعه لاحتوائه كثيرا من الألغاز والاحاجي والمعميات وهذا غير مستملح في ميادين الشعر.

ولسنا بمغالين ان قلنا ان هذه المعائب ليست معائب، بل هي مظهر من مظاهر شاعريته الفذة يحمل بين حناياه اسرار هذه الشاعرية التي يتراءى من خلالها استعداده الفطرى للاتيان بالبليغ من الشعر، وحافظته القوية التي كانت تمده بذخائر ثرة من مفردات اللغة واسرارها وفقهها وقوانينها. وذاكرته المسعفة كانت تمده اذا اهاب بها وسلامة ذوقه المهيمنة عليه فيتخير اللفظ الذي يستدعيه المقام فيخرج اسلوبه مسبوكا. فشعره يصدر عن طبع اصيل وملكة موهوبة، وفطرة ناضجة، وليس بشعر صنعة. وما من شك في ان احدا لا يندم على ما يقضيه من الوقت مع شعر ابي تمام، يقرأ له، ويقلب الطرف فيه، ويقف وقفة متأمل فاحص يشاركه وجدانه الحي، وعواطفه الصادقة، وتصويره النابض، وفنه الساحر، انه يحمل القارىء على ان ينسجم معه. ويشاركه في مشاعره. وما هذه المياسم الا الميسم الحقيقي لشعر ابي تمام. ان شعره كان وما يزال في القمة بين الاداب، يساير الحياة، ويجرى مع الحضارات المتعاقبة، وتلهج الالسنة بترديده والتمثل به. ولا تزال تعاوده رواية، ويعاودها، اشراقا وامتاعا لانه فياض بالمشاعر الصادقة والوجدان الشريف، والتجارب الواعية والالفاظ الرصينة ينتزعها من الحياة نفسها مقرونة بعمق في النظرة، وبعد في المرمى، ودقة في الصياغة. تنال الكلمة منه حقها وتحتج منه وحيها، وهذه الخلال التي كتبت لشعره الخلود، وجعلته ذخيرة ثمينة لا تنفد على مر الايام روعتها، وهي عندنا سر حبنا اياه، واعجابنا

به وانتصارنا له .

لقد ارسل من سوابق القريض ما يعز نواله ، ولا يسهل ترسم اثاره . وماله لايتبوأ هذا المقام بين فحول الشعراء ؟ وهذا ديوانه نقرؤه فلاينتهي تقديرنا ولا يتضاءل اكبارنا واعجابنا . هوشاعر ينبئك مرسل شعره بان نظره كان يلج اعمق الاشياء فيصوغها ابرع صياغة ، ويصورها اروع تصوير . ما من شك في هذا ، ولا كان في وقت من الاوقات مثار حوار بين ذوى البصر والدراية بمنازع الكلام الذين قوموا الكلام بما يحمل من قيمة ادبية وفنية .

فابو تمام شاعر من قبل ومن بعد ، ذو اسلوب لاينبئك عن شعره الا ذوقك له . وانك ساعتها لتقول ، انه هو ، انه ابو تمام الشاعر العبقري .

وبعد : فقد اسهبت ولكن الاسهاب لم يوف ابا تمام حقه ، وان في النفس لكثيرا من الحديث لايتسع الوقت لبثه ، فالحديث عن ابي تمام يستنفد الضخام من الاسفار ولكن ان فات الكثير فعلينا ان نورد مايقتضيه المقام ، لعل هذا القليل يكون فيه انصاف لشاعر عبقري سار ذكره في الافاق ، واثار شعره اهتمام الادباء والنقاد وملأ مجامع الادب ومحافله ، ولحث نشئنا المتأدبين ان يغترفوا من نميره العذب علا ونهلاليحسنوا الخلافة في ارثهم عن السلف واحر بهم ان يجدوا من هذه الكنوز ما يجملون به منطقهم ويكسون به سوانحهم ، كي يعطوا تراثهم مايقتضيه من حق عليهم . انهم كادوا يضيعون هذا الحق بعد ان نعب الغربان بالاعراض عن التراث العربي ، والاستعارة عنه بهذه القمامات التي هي السموم بين حنايا بعض الكتب والمجلات الماجنة كي يموت ذوق النشيء ، وتنقطع صلته بماضيه الذي كان مازال مفخرة من مفاخر الدهر .

الملامح الاسلامية في شعر ابي تمام

حازم عبد الله خضر

اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان
من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذي علم
بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم .

صدق الله العظيم

بين يدي البحث :

ما فتىء القرآن الكريم — منذ نزوله على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم— ينفث في أرواح الناس وقلوبهم وعقولهم الحياة والنور ويبدد من حولهم ظلمات الجهالة والضلالة والعمى ، ويفتح امامهم المزيد من العلم النافع في شتى جوانب الحياة وبخاصة الجانب الثقافي من حياة الانسان حيث عنى القرآن الكريم به عناية كبرى شأنه في جميع الاحكام ووجه القلوب والعقول الى طلب العلم وجعله فرضا على كل مسلم ومسلمة حتى كان من ثمرات هذه العناية المصنفات العديدة والمعاجم الكثيرة وكتب الادب التي لا تقع تحت حصر سواء ما الف في الماضي او ما الف ويؤلف في الحاضر او المستقبل هذا فضلا عن التصنيف والتأليف في العلوم والمعارف الاخرى التي كان للقرآن فضل السبق والتوجيه في مضي الانسان قدما للبحث فيها واضافة الجديد الى نظرياتها وقواعدها كلما اشرقت شمس يوم من الايام على بني الانسان . .
هذا الكتاب الكريم وجه انظار العرب علماء وادباء الى طلب العلم والبحث

، حتى لم يكن عالم او اديب الا كان اساس ثقافته الاولى القران الكريم يقبل عليه في صباه وشبابه يحفظه ويتدارس آياته مستنبطا منها الاحكام والتشريعات حتى اذا بدا له ان يتجه وجهة علمية اخرى ولا يقتصر على القرآن الكريم وعلومه اتجه لما اراد مستفيدا من ذلك الاساس الرصين الذي قوم لسانه وهذب روحه وخلقه وعلمه ان طلب العلم فرض من الفروض المهمة وان فرقا كبيرا بين العلم والجهل قال تعالى: « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون «١» » وقال تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » . بل إن أول آية نزلت على الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم «٢» . لهذا كان على كل باحث متأمل في فنون العربية وعلومها خاصة ان يتوقع ملاحظة اثر القرآن والحديث في هذه الفنون والعلوم ، بل ربما كان هذا الاثر قد شكل في المؤلفات العديدة الاساس المهم والمنطق الرئيس للتأليف والبحث. يبدو ذلك في غرض الكتاب وموضوعاته وطريقة بحثه ، فضلا عن سيرة مؤلفه وثقافته المعتمدة اساسا على القرآن المرتوية من معينه العذب الرقراق الذى لا ينقضي ابداً ولا ينضب .

والادباء في مقدمة اولئك الباحثين والمؤلفين الذين اعتمدوا في ثقافتهم على القرآن وطبقت مؤلفاتهم بطابعه الاسلامي الواضح المتميز ، واذ كان الشعراء ادباء فاننا لابد ان نجد أثر القرآن في ثقافتهم بعامة وفي قصائدهم وما كانوا ينظمون فيه من اغراض بخاصة . يسري ذلك على الشعراء في العصور المختلفة التي تلت نزول القرآن الكريم على الرسول ، وان كان ذلك بدرجات متفاوتة ضعفا وقوة وكثرة وقلة . وعلى الرغم من أن الشعراء في بعض عصور التاريخ الاسلامي وبخاصة في العصر العباسي ، قد غلب على

(١) سورة الرحمن آية ٦٠

(٢) سورة العلق ١ــ٥

الكثيرين منهم طابع المجون واللهو والعبث لاسباب عديدة في محيطهم وفي أنفسهم .. فان أثر القرآن مع كل ذلك يأبى إلا أن يبرز في قصائد هذا الشاعر او ذاك وبخاصة حين يجنح الشاعر الى الزهد ويمارس معانيه نجد هذا الشعر مطبوعا بالمعاني الاسلامية الواضحة وكأن هذه المعاني كانت محجوبة وراء حجب اللهو والعبث حتى اذا خف صوت اللهو والمجون واقترب الشاعر من المنون بمرض او شيخوخة ظهرت هذه المعاني وكثرت حتى كادت تعادل عند بعض الشعراء ما قاله في صباه وشبابه من الشعر وكانت غير مرة مجالا للدراسة والبحث المتخصص المقصود لأهميتها وكثرتها.«١» واذا كان قسم من هذا الشعر يفتقر الى الحماس والعاطفة اللذين نجدهما في شعر الفترة السابقة من حياة الشاعر فان هذا لا يهم البحث هنا بقدر ما يهمنا وجود هذه المعاني وتوفرها وبالتالي اتخاذها دليلا على ثقافة الشاعر وتأثره بالقرآن والسنة بل بالاسلام جملة.

وابو تمام احد هؤلاء الشعراء الذين تأثروا بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية المطهرة تأثرا بدا واضحا في العديد من القصائد والابيات . . . وقد اشار بعض الباحثين المحدثين الى وجود هذه المعاني في شعر ابي تمام اشارات عابرة لم تتناول استقراء شعره ومتابعة هذه المعاني وتبويبها وارجاعها الى الاصول التي أخذها أبو تمام عنها « ٢ » لذلك رأيت من الواجب علي في ذكرى أبي تمام كشف هذه المعاني ودراستها وارجاعها الى اصولها المستمدة منها مع الاشارة الى توفيق ابي تمام في اخذ المعنى ودرجة هذا التوفيق وذلك بقدر ما تسمح به طبيعة هذا البحث وتستوعبه صفحاته.

ولما كانت المعاني الاسلامية — كما رايت — لا تقتصر عند ابي تمام على معاني الزهد وانما تتناثر في اكثر اغراضه الشعرية رأيت أن اقدم بكلمة موجزة وسريعة لثقافة ابي تمام والطابع العام الذى تميزت به لكي يسهل

(١) زهديات ابي نؤاس — د. علي الزبيدي . على سبيل المثال لا الحصر

(٢) ابرز من تكلم في المعاني الاسلامية في شعر ابي تمام د . عمر فروخ في كتابه : ابو تمام شاعر الخليفة المعتصم . كان كلامه عاماً مختصرا لا يتجاوز صفحة او بعض صفحة .

بعد ذلك الوقوف على هذه المعاني في شعره وفهمها فهما واضحا مبنيا على نفسية الشاعر وثقافته والبيئة التي عاش فيها.

ثقافة ابي تمام وطابعها الاسلامي :

نشأ ابو تمام في قرية من قرى الشام . وكان أول عهده بالثقافة الاسلامية حضوره حلقات الدرس في الجامع شأن غيره من أولاد المسلمين حيث كان أول ما يتلقاه الصبي في حلقات الدرس هذه حفظ القرآن الكريم ، واذا كنا « لا نعلم اكان ذلك في كتاب القرية أم بعد نزوله مصر واتصاله بجامعها الاكبر . . . » «١» فان ذلك لا يهمنا بقدر ما تهمنا حقيقة تعلمه القرآن وإقباله عليه في سني حياته الاولى ونحن نعلم أن هذه الجوامع كانت تضم أمهر الحفاظ والمقرئين وكبار المؤدبين المسلمين بفنون لغوية وادبية وخلقية بالاضافة الى المامهم بعلوم القرآن الاساسية والاولاد يتتلمذون عليهم ويتلقون هذه العلوم تباعاً . . .

وبهذا نكون قد امسكنا بالحلقة الاولى في سلسلة حلقات ثقافة هذا الشاعر الفذ ليسهل علينا بعد ذلك تصور ما يعرض لنا من معانيه الاسلامية في شعره التي كانت وما تزال عنوانا مهما على فهمه للاسلام بجوانبه العديدة ونواحيه الشاملة للحياة الانسانية الكاملة حتى كان في شعره الكثير من التلميحات الى ايات القرآن والحوادث التاريخية والاراء المذهبيةو الفلسفية وفي شعره استعمال لكثير من قواعد النحو ... «٢».

كانت ثقافة ابي تمام واسعة المدى متعددة الجوانب اذ لم تقتصر على القرآن الكريم وعلومه بل المرجح انه « انقض على معارف عصره انقضاضا حتى تمثلها تمثلا دقيقا وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق اما التاريخ فيتضح في كثير من جوانب مديحه وخاصة

---

(١) ابو تمام الطائي ـ البهبيتي ص ٦٢

(٢) الاساس في تاريخ الادب العربي ص ٤٨ وما بعدها .

حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وامجادها في الجاهلية والاسلام... «١»
وعلى الرغم من قلة الاشارات والاخبار فيما يتعلق بالجانب الاسلامي من ثقافة ابي تمام فان الدراسة التالية لشعره بشيء من التفصيل والاستقصاء، تبين لنا مبلغ اعتماد ابي تمام على الاسلام بمصدريه الرئيسين — الكتاب والسنة— حيث تتكون الفكرة التامة لدى الباحث عن ثقافة ابي تمام الاسلامية والاساس المتين الذي اعتمدت عليه مما ادى الى تفتح فكر ابي تمام على آفاق واسعة في شتى جوانب الحياة لا يتوقف في مديح او هجاء او في اي غرض من اغراضه الشعرية... صور الحياة بجوانبها المختلفة والنفس الانسانية بمنعطفاتها الكثيرة واحوالها وامزجتها... كأحسن ما يكون التصوير واثبت براعة ومقدرة تفوق بها على العديد من شعراء عصره بل حتى على العديدين ممن سبقوه واصبح عدد غير قليل ممن جاء بعده عالة عليه وتلامذة بين يديه يحفظون شعره ويقبلون عليه بالدرس والنقد او التأسي والاقتداء.
وكان ابو تمام استاذا لعدد غير قليل من هؤلاء والمتفوق عليهم في ممارسة الكثير من الاغراض ظهر ذلك في فترات عديدة من حياة الشاعر وفي ظل اكثر من امير او خليفة ومن هؤلاء الواثق الذي كان «... يقول الشعر ويجزل عليه العطاء للشعراء والذين زخر بلاطه بكثير منهم. ومن هؤلاء ابو تمام الذي مهد طريق الحكم والامثال لابي الطيب المتنبي وابي العلاء المعري... » «٢» لهذا كله اثار ابو تمام بثقافته وشعره الدراسات العديدة والمؤلفات الكثيرة قديما وحديثا.

اتهامه بالكفر :

ولعل مما يكمل هذه الصورة حول ثقافة ابي تمام وطابعها الاسلامي ان ننظر نظرة سريعة في نسبة تهمة الكفر لابي تمام .

---

(١) تاريخ الادب العربي ـ العصر العباسي الاول، شوقي ضيف ص ٢٧٦ ، وابو تمام الطائي ، البهبيتي ص ٦٢

(٢) تاريخ الاسلام السياسي ، حسن ابراهيم حسن ص ٨٤ ج ٢

ونكاد نجد ان الصولي قد انفرد «١» بايراد خبر هذه التهمة وما يدور حولها من اخبار فيقول: «وقد ادعى قوم عليه الكفر بل حققوه وجعلوا ذلك سببا للطعن على شعره وتقبيح حسنه. وما ظننت ان كفرا ينقص من شعر ولا ايمانا يزيد فيه. وكيف يحقق هذا على مثله حتى يسمع الناس لعنة له...» «٢». والذي يفهم من هذا النص عدم ثبوت التهمة سواء من النظر في نص الخبر او من مناقشة الصولي له....

على ان الصولي وغيره يوردون اشارات اخرى تفيد عدم تقيد ابي تمام بالعبادات الاسلامية وخاصة الصلاة فقد كان — على ما يبدو — متهاونا بها لا يؤديها في اوقاتها يقول المسعودي في ذلك «وكان ابو تمام خليعا ماجنا في بعض احواله وربما اداه ذلك الى ترك موجبات فرضه تماجنا لا اعتقادا». «٣» ونستطيع ان نضيف الى هذا رأي أبي العلاء في تهاون أبي تمام في صلاته او تركه لها احيانا يقول: «قال الحسن بن رجاء الكاتب: جاءني ابو تمام الى خراسان فبلغني انه لا يصلي فوكلنا به من لازمه اياما فلم يره يصلي يوما واحدا فعاتبه فقال: يا مولاي قطعت الى حضرتك من بغداد فاحتملت المشقة وبعد الشقة ولم اره يثقل علي فلو كانت الصلاة تنفعني وتركها يضرني ما تركتها. فاردت قتله فخشيت ان يحمل على غير هذا ..» «٤».

ويعلق ابو العلاء على هذا الخبر بعد كلام طويل قائلا «واما ابو تمام فما امسك من الدين بزمام والحكاية عن ابن رجاء مشهورة والمهجة بعيبها مبهورة....» «٥».

وهكذا يتبين لنا رأي القدماء فيما وجه لابي تمام اضافة الى ما تحمله النصوص

---

(١) انظر النقد المنهجي عند العرب ص ٧٦

(٢) اخبار ابي تمام - الصولي ص ١٧٣

(٣) مروج الذهب ص ٤٨٠-٣

(٤) رسالة الغفران ص ٤١

(٥) رسالة الغفران ص ٤٨٣

الواردة في ثناياها من عناصر الضعف والاضطراب والمناقضة لحال ابي تمام كما تبدو من شعره الزاخر بالايمان والمعاني الاسلامية الواضحة العديدة. واذا كان الباحث لا يستطيع ان يقرر او يجزم بكفر ابي تمام او زيغ عقيدته او انحراف تدينه فان الذي يمكن ترجيحه ان ابا تمام شأن غيره من الشعراء في عصره كان لاهيا عابثا يغلب عليه طابع التهاون في العبادات والتكاسل عن تأديتها فكان كما قال بعض الباحثين «مستهترا قليل المبالاة بما يتطلبه حسن الاعتقاد». «١»

وهذه ظاهرة تكاد تكون عامة في حياة الشعراء العباسيين على الرغم من المعاني الاسلامية التي توجد في اشعارهم بدرجات متفاوتة قوة وضعفا.. على ان اخرين من الباحثين ينظرون الى ابي تمام - من خلال شعره الاسلامي - نظرة ملؤها التفاؤل وحسن الظن فيصفه بالتقوى والورع والمحافظة على الفروض الى حد الافراط والمبالغة حتى ليبدو الرجل التقي العفيف المتصف بالخلق والرزانة وكان «اشد الناس محافظة على الفرائض والنوافل وابعدهم في الحماسة الدينية حتى ليكون احيانا مفرطا فيما يظنه التقوى» «٢».

وهذا القول ينطوي على شيء غير قليل من المبالغة بما يخالف حال ابي تمام وسيرته وبما يمكن ان يوجه اليه من حرص صاحب هذا الرأي على تحقيق نظريته التي طرحها في اوائل بحثه في ثقافة ابي تمام واسلامه حين قال بعد ايراده فكرة اسلام ابي تمام وانتقاله من النصرانية: «والصابئون من عقيدة الى عقيدة والنازعون عن مبدأ الى مبدأ والمنقلبون من سياسة الى سياسة تعظم عصبيتهم للحال الجديدة التي صاروا اليها وتزيد نفرتهم من الحال التي كانوا عليها..» «٣».

---

(١) إمراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ١٩٢
(٢) ابو تمام شاعر الخليفة المعتصم ص ٧٣
(٣) نفس المصدر ص ٧٣

وهذه النظرة يمكن ان تقابل النظرة الاولى وبذلك تكون النظرة الوسط التي لا ترتفع بأبي تمام الى درجات الاولياء والصالحين ولا تنزل به الى درجات الكفار والمارقين بل هو مسلم متهاون بفرائض الاسلام مع اعتراف بها واقرار بوجوبها دون جحود وانكار اما ما اورده الدكتور فروخ بصدد اسلام ابي تمام وسماه اخرون انتحالا للاسلام «١» فاننا لا نجد صدى يذكر لهذا الخبر فضلا عن ان الكثيرين ممن درسوا ابا تمام وترجموا له نفوا هذه التهمة او لم يلتفتوا اليها اذ لا قيمة لها وان هي الا افتراء اثاره خصوم ابي تمام للحط من قدره والانتقاص من مكانته» «٢» .

المعاني الاسلامية في شعر ابي تمام :

ولنلتفت الى شعر ابي تمام فعنده الخبر اليقين عن ثقافته وعقيدته وسلوكه والحقيقة ان من يستقريء شعر ابي تمام يجده زاخرا بالمعاني الاسلامية بما يفوق الحصر ويعيي الباحث امر تتبعه بدقة واستقصاء بما يجعل البحث طويلا واسعا. لكل ذلك كان جهدي منصبا على المهم الواضح من هذه المعاني ثم نظرت فيها فاذا هي متعددة المصادر والموضوعات مما جعلني اضيفها استنادا الى ذلك. وبهذا كانت المعاني مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه الاسلامي والاسلام بصورة عامة. وهكذا كان البحث يتناول بشيء من التفصيل هذه المعاني بحسب الموضوعات التي عالجها ابو تمام في شعره .

---

(١) تاريخ الادب العربي ، حنا الفاخوري ص ٨٦ ؛

(٢) انظر : ابو تمام الطائي ، خضر الطائي ص ٣٧ ، وانظر كذلك : ابو تمام الطائي ، البهبيتي ص ٦٢

المعاني والالفاظ المقتبسه من القرآن الكريم :

توج ابو تمام شعره بتاج القرآن الكريم ونثر فيه ازاهيره العطرة فجاء فواحا بالنشر الذكي والنفس القرآني النابض الحي .... والمعاني القرآنية المقتبسة من القرآن الكريم في شعره كثيرة تفوق الحصر .. وكذا كان النهج في ايراد هذه المثل المقتبسة يعتمد الظاهر المشهور ويتجاوز الاشارة البسيطة والمكررة.

ومن هذه النماذج قوله ضمن قصيدته البائية في مدح الحسن بن سهل:

كواعب زارت في ليال قصيرة   تخيلن لي من حسنهن كواعبا «١»

فقد اورد لفظة «كواعب» الواردة في القرآن الكريم في اكثر من موضع من ذلك قوله تعالى في سورة النبأ عند تحدث القرآن الكريم عما ينتظر المؤمنين الصادقين في الجنة من الوان النعيم والسعادة قال تعالى: «وكواعب اترابا» «٢». اي حور متشابهات ابكار.

ويكرر ابو تمام هذا المعنى بلفظ اكثر وضوحا وتفصيلا في بائيته التي مدح فيها مالك بن الطوق يقول فيها:

لو ان دهرا رد رجع جوابي   اوكف من شأويه طول عتابي

ثنتين كالقمرين حف سناهما   بكواعب مثل الدمى اتراب «٣»

وهذا اللفظ من المعنى الذي تضمنه اكثر وضوحا وصراحة في الاقتباس من القرآن الكريم والاعتماد عليه.

ويجمع ابو تمام اكثر معنى في مجموعة واحدة من ابيات في بائيته التي سبق ذكرها وذلك حين اراد التحدث عن ممدوحه وما يتميز به من الخلق الاسلامي العالي فهو مقتد بالرسول في افعاله واقواله ومنها عفوه وتوزيعه للاموال.

---

(١) ديوان ابي تمام ، ص ١٤

(٢) سورة النبأ آية ٣٣

(٣) ديوان ابي تمام ، ص ١٦ - ١٧

فيقول :

أسبل عليهم ستر عفوك مفضلا   وانفخ لها من نائل بذناب
لك في رسول الله اعظم اسوة   وأجلها في سنة وكتاب
اعطى المؤلفة القلوب رضاهم   كملا ورد اخائذ الاحزاب «١»

ويبدو لمن يتأمل هذه الابيات اكثر من اقتباس لفظي ومعنوي.

اما الالفاظ فقد خاطب الممدوح بأن له في رسول الله اعظم اسوة ، وهي الفاظ ، الاسوة ورسول الله ، والمؤلفة قلوبهم ، والاحزاب.

واما المعنى فقد وصف ابو تمام ممدوحه بأن قدوته الرسول «ص» وذلك تطبيق لمقتضى الكتاب والسنة. كما ان الممدوح وزع الاموال وهو بهذا مقتد بالرسول «صلى الله عليه وسلم» في توزيع الاموال على مستحقيها وكل هذه المعاني من القرآن الكريم . فالمعنى الاول لك في رسول الله اعظم اسوة » من قوله تعالى « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة » «٢»

والمعنى الثاني مأخوذ من قوله تعالى : «انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم » «٣» واما لفظ الاحزاب فالاشارة فيه الى نصر الرسول والمسلمين على الاحزاب في معركة الخندق حيث تجمع المشركون وتحزبوا على المسلمين وكان النصر حليف المسلمين والممدوح تأسى في هذا بالرسول

ويقتبس ابو تمام من القصص القرآني واخبار الرسل والانبياء العديد من المشاهد والمواقف وها هو يصور لنا نوحا عليه السلام حين يشكر ربه على نعمته التي اولاه اياها بعد ما لاقاه من ضيق وحرج في دعوة قومه الى الله فيقول :

قل للامير لقد قلدتني نعما   فت الثناء بها ما هبت الريح
لم يلبس الله نوحا فضل نعمته   الا لمابثه من شكره نوح «٤»

---

(١) ديوان ابي تمام ، ص ١٨

(٢) سورة الاحزان اية ٢١

(٣) سورة التوبة ٦٠

(٤) ديوان ابي تمام ، ص ٥٥

ويبدو ان ابا تمام يشير الى توسل نوح عليه السلام بربه وشكره له وتركه السؤال عما لا يعنيه فقد سأل ربه عن ابنه فاخبره انه ليس من اتباعه ولا من اهله وزجره ان يعود لمثل ذلك. فرجع نوح مستغفرا منيبا الى الله. فتقبل الله تعالى اتابته واسبغ عليه عظيم نعمته واحسانه. قال تعالى: «قال نوح رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين. قال يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألني ماليس لك به علم اني اعظك ان تكون من الجاهلين قال رب اني اعوذ بك ان اسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني اكن من الخاسرين. قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك «١» واذا صح ان ابا تمام قد اعتمد هذه المعاني في ابياته السابقة فانه يكون قد اكد فيها على المعنى اكثر من تأكيده على اللفظ بل اننا لا نكاد نجد في ابياته لفظة واحدة مما ورد في هذه الابيات.

والملاحظ على ابي تمام في هذه المعاني وفي كثير غيرها انه يبالغ كثيرا حين يقرن ما ورد في القرآن من معان الى بعض الممدوحين فيشبههم بالرسل والانبياء.

ويصور ابو تمام اقوال الوشاة وحدة السنتهم واثر اقوالهم فيمن يستمع اليهم فيقول من قصيدة دالية يمدح فيها احمد بن ابي داود:

ومن يأذن الى الواشين تسلق مسامعه بالسنة حداد «٢»

والشاهد في قوله: بألسنة حداد وهو مقتبس من قوله تعالى في القرآن الكريم: «فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد» «٣».

والذي يفهم هنا من اقتباس ابي تمام لهذه الاية في بيته السابق انه يعدالواشين منافقين ذلك ان هذه الآية مع ما تضمنته من معنى وردت في شأن المنافقين المثبطين

---

(١) سورة هود انظر الايات ٤٢ - ٤٩

(٢) ديوان ابي تمام، ص ٦٣

(٣) سورة . . .

للمؤمنين في الخروج الى الجهاد في سبيل الله. «١» ويمدح ابو تمام ابا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة بكثرة العطاء والبذل الى درجة تصل حد الاسراف والتبذير، ولا يجد صورة اصدق في التعبير عن هذا المعنى من اقتباسه لمعنى القرآن الرفيع في مقت التبذير والاسراف فيقول:

له خلق نهى القرآن عنه وذاك عطاؤه السرف البذار
ولم يك ذاك اصرارا ولكن تمادت في سجيتها البحار «٢»

وهذ مقتبس من قوله تعالى في صفات المؤمنين: «والذين اذ انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما» «٣» فجعل الاسراف منافيا لصفة الاعيان الحقيقي. ومنه قوله تعالى ايضاً: «ولا تبذر تبذيرا» «٤» واذا كان ابو تمام قد اوحى في بيته الاول ان ممدوحه قد اتصف بصفة نهى الله عنها مما قد يفيد عكس المديح فانه اسرع الى رفع اللبس بذكره ان عطاءه سجية وطبع كالبحار التي لا ينضب ماؤها ولا يقل. وذلك على الرغم مما يثيره التأمل في المعنيين، فان ابا تمام وازن معانيه بالمعنى القراني ليخلص الى القول بأن ممدوحه يعطي عطاءا كبيرا يصل الى حد التبذير في حين حرم الله تعالى التبذير في الانفاق. لكن احتراسه الاخير وضح موازنته ودفع ما يعتريها من غموض.

ومن الامثلة التي دلت على سعة افق ابي تمام في الجوانب الاسلامية وكثرة حفظه لايات القرآن الكريم وقدرته على الاقتباس الناجح المصيب في سرعة ويسر، مع بديهة حاضرة وملاءمة ناجحة، من ذلك الابيات التي اوردها اكثر من ترجمو لابي تمام ودرسوا شعره. ضمن قصيدة سينية مدح فيها احمد بن المعتصم: «حضر ابو تمام عند الكندي فقال له انشدني اقرب ما قلت عهدا، فانشده قصيدته التي يقول فيها:

---

(١) انظر تفسير ابن كثير
(٢) ديوان ابي تمام، ص١٠٦
(٣) سورة الفرقان اية ٦٧
(٤) سورة الاسراء آية ٢٦

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء اياس

فقال له الكندي: ضربت الاقل مثلا للاعلى. فأطرق ابو تمام ثم قال على البديهة.

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس «١»

والصورة الاخيرة في هذه الابيات مأخوذة من قوله تعالى: «الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري ..» «٢».

وفي رأيي ان دلالة هذه الابيات لا تكمن في اخذه لهذا المعنى فقط بل في المناسبة بين المعنيين وبالتالي تبريره استشهاده على ما ارتفعت منزلته بما كانت منزلته اقل. وكأنه يقول ان الله تعالى حين اراد ان يقرب نوره الى اذهان الناس ضرب لهم المشكاة التي فيها مصباح.. فليس بغريب على ابي تمام اذا ضرب اقدام عمرو وسماحة حاتم وحلم احنف وذكاء اياس امثلة على اقدام احمد بن المعتصم وسماحته وحلمه وذكائه. حتى ولو كان اولئك اقل منه درجة وادنى منزلة.

وفضلا عن كل ذلك فان دلالة هذه الابيات تبدو على انها دليل فطنة ابي تمام وذكائه حتى كانت هذه الابيات شاهدا يذكره الكثيرون من نقاد الادب ومؤرخيه يذكرون هذه الابيات برهانا على سعة افق ابي تمام وثقافته القرآنية وتأثره بهذا القرآن مع سرعة الجواب ورد كيد الخصوم الى نحورهم في اشد الساعات حرجا وضيقا. «٣»

ونمضي في عرض هذه النماذج من شعر ابي تمام حتى نصل الى مديحه لنوح بن عمرو السكسكي من كندة بقصيدة لامية يقول منها:

---

(١) الموشح للمرزباني ص ٣٢٦ وانظر العمدة ج١ ص ١٩٢

(٢) سورة النور آية ٣٥

(٣) انظر تاريخ الادب العربي، احمد حسن الزيات ص ٣٣٤ وانظر: الادب ومذاهب النقد فيه ص ١٢١

اشدد يديك بحبل نوح معصما　　تلقاه حبلا بالندى موصولا
ذاك الذي ان كان خلك لم تقل　　يا ليتني لم اتخاذه خليلا «١»

فقد اقتبس قوله تعالى على لسان من ضل بضلال غيره واتبعه على غير هدى «يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا «٢» » فاقتبس في الشطر الثاني من البيت الثاني هذه الاية بلفظها ومعناها وبهذا يكون ابو تمام قد نقل المعنى واللفظ واقتبسه بل وافاد منه فائدة كبيرة ذلك ان هذا الخليل ليس ممن يندم الانسان على صحبته واتخاذه خليلا فهو دائم العطاء والمنح موصول حبل المودة والالفة وليس في خلقه ما ينفر منه او يفضي الى الاسى باتخاذه خلا .

وكلما اقبل الباحث على تقصي مثل هذه النماذج في شعر ابي تمام وجده شاعرا عالما حافظا يستشهد بآي القرآن ويقتبس من انوارها اقباسا تضيء في شعره نور الهداية وتكسبه قوة وتأثيرا وحيوية.

ومن هذه النماذج مدح ابي تمام لابي سعيد محمد بن يوسف الثغري في قصيدته اللامية ومطلعها :

ما لي بعادية الايام من قبل　　لم يثن كيد النوى كيدى ولا حيلى

يقول فيها :

وبين الله هذا من بريته　　في قوله خلق الانسان من عجل

اقتبس ابو تمام الشطر الثاني من قوله تعالى «خلق الانسان من عجل» «٣».

وقد يكون اقتباس ابي تمام من القرآن الكريم الفاظا مفردة بعيدة بمعانيها عن المعنى الذي اراده ابو تمام بايرادها فيقول في معرض حديثه لابي سعيد وقد قدم من مكة :

في طريق قد كان قبل شراكا　　ثم لما علاه صار اديما
لم يحدث نفسا بمكة حتى　　جازت الكهف خيله والرقيما «٤»

---

(١) يوان ابي تمام ص ١٨٤

(٢) سورة الفرقان ٢٨

(٣) سورة : الانبياء ٣٧

(٤) ديوان ابي تمام ص ٢٢١

فاللفظتان الكهف والرقيم، مقتبستان من القرآن الكريم وذلك ما يوحيه جمعها في شطر واحد، قال تعالى «ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من اياتنا عجبا» «١».

ومن ذلك قول ابي تمام في رثاء محمد بن قحطبة وابا نصر :

ونفس تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروع او دونه الكفر
تردى ثياب الموت حمراً فما دجى لها الليل الا وهي من سندس خضر «٢»

فقد اقتبس الفاظ : الكفر، وسندس خضر.

واللفظتان الاخيرتان من قوله تعالى «ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق» «٣» اما لفظة الكفر فقد ترددت كثيرا في القرآن الكريم بحيث يصعب ايراد المواضع التي وردت فيها وقد تلاحظ في سماع اي قدر يتلى من الايات. كما ان ابا تمام قد ردد هذه اللفظة او مشتقاتها في مواضع عديدة من شعره وخاصة في قصائده المدحية وحين يتحدث عن قدرة الممدوح وشجاعته وقهره للاعداء، ومن اقتباس ابي تمام من القرآن الكريم وبخاصة في مجال الالفاظ المفردة، قوله في رثاء بني حميد:

لا يبعد الله ملحودا اقام به شخص الحجا وسقاه الواحد الصمد «٤»

فالالفاظ الواحد الصمد، من قوله تعالى: «قل هو الله احد الله الصمد» «٥».

ولعل قدرة ابي تمام تبدو اوضح ما تبدو في اقتباسه للمعنى الكامل مع بعض الالفاظ التي وردت في الكتاب الكريم، من هذا قوله:

ليس يدري الا اللطيف الخبير أي شيء تطوى عليه الصدور «٦»

وهذا المعنى كما يبدو — مع بعض الالفاظ وبشكل متفرق مأخوذ من قوله

---

(١) سورة الكهف آية ٩
(٢) ديوان ابي تمام ص٣٢٠ .
(٣) سوره الكهف أية ٣١ .
(٤) الديوان ص٣١٨ .
(٥) سورة الاخلاص .
(٦) الديوان ص٣٤١ .

تعالى: «وأسروا قولكم اواجهروا به، إنه عليم بذات الصدور، الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير «١» وهناك ايات اخرى في نفس هذا المعنى او بما يقرب منه. ومن التأمل فيما اورده ابو تمام بعد النظر في الآيتين السابقتين يتبين لنا اقتباس ابي تمام للمعنى الكامل المستفاد من الايتين اولا ،وتزيين هذا المعنى ببعض الفاظهما ثانيا.

ومن المعاني القرآنية في شعر ابي تمام قوله في مدح الحسن وسليمان ابني وهب.

لئن رمت امرا ساءني عند بكره لقد سرني فعلا كما في عوانه «٢»

في هذا البيت لفظتان من الفاظ القرآن الكريم وهما: بكر وعوان.وقد ورد ذكرهما في سورة البقرة حين تحدث القرآن الكريم عن بني اسرائيل وكثرة الحافهم في السؤال والمراجعة لنبيهم موسى عليه السلام، قال تعالى:

«... قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك...» «٣»

والمراد البقرة التي ورد ذكرها في القرآن وكان على بني اسرائيل ان يذبحوها ومن صفاتها ان تكون متوسطة في سنها ليست بكرا صغيرة ولا هرمة كبيرة اما المعنى الذي اراده ابو تمام فهو وصف الممدوح بالعطاء والبذل وفعل الخير في شبابه وكهولته لا يتغير من خلقه شيء كما انه لم يبلغ سن الهرم والعجز حتى يضعف عن العطاء او يبدو في خلقه سوء او انحراف.

ويقول ابو تمام في مدح الواثق:

جعل الخلافة فيه رب قوله للشيء كن فيكون «٤»

وهذا مأخوذ من الاية الكريمة: «انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون» «٥» ومن هذا اللون ايضا ما ورد في ابيات ابي تمام التي رثى بها ابنا له حيث قال:

---

(١) سورة الملك اية ١٤ .

(٢) الديوان ص٢٤٣ .

(٣) البقرة آية ٦٨ .

(٤) الديوان ص٢٥٠ .

(٥) النمل اية ٤٠ .

كان الذي خفت ان يكونا انا الى الله راجعونا «١»

فالشطر الثاني بأكمله مقتبس من قوله تعالى: «الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون» «٢» .

ولعل في هذا المعنى ما يشير الى شيء من التزام ابي تمام بما يؤمن به من اركان العقيدة الاسلامية فهو يصبر نفسه ويردد قول الله كما اراد الله عز وجل حين وصف المؤمنين وحالهم عندما تصيب احد ذويهم مصيبة الموت. وربما كان هذا ايضا من ادلة فهم ابي تمام للقرآن الكريم وشرح اياته وما تتضمنه من احكام فضلا عن الحفظ.

ويقول ابو تمام:

ما كنت كالسائل الايام مجتهدا عن ليلة القدر في شعبان او رجب «٣»

ويقول ايضا في قصيدة اخرى:

وطمطمت سدا سد يأجوج دونه من الهم لم يفرغ على زبره قطر «٤»

فقد اقتبس الالفاظ: ليلة القدر وسد يأجوج وزبر وقطر. اخذها من ايات عديدة في سور مختلفة. فليلة القدر من السورة المعروفة باسمها وهي قوله: «إنا انزلناه في ليلة القدر..» . وأما سد يأجوج.. وزبر وقطر... فمن قوله تعالى: «ويسألونك عن ذي القرنين .... الى قوله تعالى: «قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا، قال ما مكني فيه ربي فأعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما. آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال اتوني افرغ عليه قطرا...» «٥».

---

(١) الديوان ص ٣٣٤ .

(٢) البقرة آية ١٥٦ .

(٣) الديوان ص ٣٩٨ .

(٤) الديوان ص ٤٠٠ .

(٥) الكهف اية ٨٨ — ٩٨ .

وقد نجد العديد من المعاني الاسلامية في مجموعة واحدة من الابيات اعتمد فيها ابو تمام على آيات عديدة مي القرآن الكريم . من ذلك قوله في مدح ابي سعيد محمد بن يوسف الثغري :

من سجايا الطلول ان لا تجيبا فصواب من مقلتي ان تصوبا
لو رأى الله ان في الشيب خيراً جاورته الابرار في الخلد شيبا
وصليب القناة والرأى والاسـ لام ســـائل بـــذاك الصليبـــا
وعر الدين بالجلاد ولكـــن وعور العدو صارت سهوبا
قد رأوه وهو القريب بعيـــدا ورأه وهو البعيد قريبـــا
فدروب الاشراك تدعى فضاء وفضاء الاسلام يدعى دروبا«١»

في هذه الابيات معان اسلامية عديدة ، منها قوله في الشيب يذمه ويحاول أن يبرهن على مذمته له بمجاورة الابرار لربهم شباباً قد اعادهم الله من الشيخوخة والهرم الى الصبا والشباب المتفتح البهيج . ولو كان للشيب قيمة – كما يرى ابو تمام – لما أعاد الله تعالى الناس يوم القيامة شبابا لا يهرمون ولا يشيخون . وذلك مأخوذ من قول الله عز وجل :

« فانشأناهن ابكاراً عرباً اترابا لاصحاب اليمين » « ٢ »

أى أرجع الله تعالى النساء الكبيرات في السن الى شابات وصبايا في الجنة. والمعنى الاخر يظهر فيه أبو تمام سطوة الممدوح وقوة شكيمته وجهاده لرفع راية الاسلام لايقف أمامه صعب أو عائق، ويجعل بجده وسعيه الضيق فضاء ويملأ الأرض عدلا وأمنا بعد أن كانت مملوءة ظلماً وفوضى . وهذا المعنى قد اعتمده أبو تمام من قواعد الاسلام العامة– كما يبدو – ثم يأتي بعد ذلك المعنى الثالث الذى أخذه ابو تمام من القرآن الكريم في هذه الابيات وجعله ثمرة ونتيجة لما سبق من كلامه وهو قوله: « قد رأوه وهو القريب . . . مأخوذ من قوله تعالى: « انهم يرونه بعيدا ونراه قريباً » « ٣ »

والملاحظ على المعنى الأخير ان ابا تمام اقتبس اللفظ والمعنى باسلوب معبر

---

(١) الديوان ص٢٢ وانظر امالي المرتضى ص٦١٠ القسم الأول .
(٢) سورة الواقعة ٣٥-٣٨ .
(٣) سورة المعارج اية٦ .

مؤثر ذلك أن الله عز وجل يتحدث عن الكفار وكيف انهم يرون يوم القيامة بعيدا مع أنه قريب منهم . . . .

وأبو تمام يصور اعداء الممدوح بأنهم كانوا قبل أن يحاربهم يرون أن لاطاقة لأحدبهم وأنهم سيقهرون كل من يتوجه نحوهم فغلبتهم بعيدة ان لم تكن مستحيلة لكنهم حين رأوا قوة الممدوح وصلابته وصبره وجهاده تحققوا من سوء ظنهم وخطأ تقديرهم وغدا قريبا ما ظنوه يوما أبعد من كل بعيد ومستحيلا لا يتصور حدوثه . . .

ويهجو أبو تمام الشاعر يوسف السراج بقصيدة جيمية يقول منها:

للمرء في القرآن اربع نسوة ولتلك أربعة من الازواج «١»

وأبو تمام يعرض بالشاعر ويهجوه عن طريق الطعن بالكثير من صفاته واوضاعه . ولعله في هذا البيت يعرض ببغلة السراج ويصفها بان لها اربعة ازواج وهذا هجاء مقذع يتضح بشرح المعنى المضاد الذى استمده منه اصلا. فهو يشير الى نص القرآن الكريم الذى يبيح للرجل ان يتزوج اربع نسوة . . . قال تعالى : « فانحكوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . . » «٢»

لكن الأمر هنا بالعكس ففي الوقت الذى لا يمكن للمرأة في الاسلام ان تتزوج بأكثر من زوج واحد بل وحتى في الاديان والقوانين الاخرى فانه يجعلها ذات ازواج أربعة . فاذا أمكن توجيه كناية ابي تمام الى زوجة الشاعر فيتضح عندئذ نوع الهجاء واثره العميق في بيت واحد من القصيدة فكيف ببقية الابيات . ومن المعاني التي أخذها أبو تمام من القرآن الكريم قوله :

ليست سواه اقواما فكانوا كما غنى اليتيم بالصعيد

وقد عد الجرجاني هذا البيت من سرقات المتنبي من شعر ابي تمام واورد

---

(١) الديوان ص٢٧٣ .

(٢) سورة النساء آية ٣ .

قول المتنبي :

وزارك بي دون الملوك تحرجي   اذا عن بحر لم يجزلي التيمم «١»

ولا يقتصر الجرجاني على ايراد هذا فقط بل يذكر مثلا أخرى تدل على سبق ابي تمام وتقدمه على غيره من المشهورين وبخاصة في المعاني الاسلامية . غير أن كثرة استعمال ابي تمام لهذه المعاني لا تعني نجاحه في اخذها دائما فقد أورد بعض النقاد أمثلة من هذه المعاني التي لم يحالف التوفيق ابا تمام فيها ونورد هنا مثلا واحدا ليكون دلالة على غيره من الامثلة المشابهة : يقول الآمدي : « . . ونحن لو رمنا أن نخرج ما في شعر ابي تمام من اللحن لكثر ذلك واتسع ولوجدنا منه ما يضيق العذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجاً الا بالطلب والحيلة والتمحل الشديد وذلك مثل قوله :

ثانية في كبد السماء ولم يكن   لاثنين ثان إذ هما في الغار

معنى هذا البيت ان بابك صار جارا في الصلب لما زيار وهو ثانية في كبد السماء ولم يكن ثانيا لاثنين اذ هما في الغار أى هو ثاني اثنين في الصلب الذي هو رذيلة وليس ثانيا في الغار لأن هذه « فضيلة » «٢» ولعل قول الامدى وتحليله هذا يؤكد ماأثرناه من ملاحظات وعلامات حول بعض معاني ابي تمام الاسلامية وذلك بالقدر الذي سمح به المقام .

المعاني والالفاظ المقتبسة من السنة :

ولم يقتصر أبو تمام على اقتباسه من القرآن لفظا ومعنى ، وانما أخذ الكثير من الامثلة والقواعد من السنة النبوية الشريفة بالوان واساليب مختلفة تارة باللفظ والمعنى وأخرى بالمعنى فقط . . .

من ذلك قوله في بائيته التي مدح بها اسحق بن ابراهيم المصعبي باسلوب العتاب :

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٢١٦

(٢) الموازنة بين الطائيين ص ٢٨ — ٢٩.

قل للأمير الذي قد نال ما طلبا ورد من سالف المعروف ما ذهبا
أدعوك دعوة مظلوم وسيلته إن لم تكن بي رحيما فارحم الادبا«١»

فقد ذكر في صدر البيت الثاني عبارة — دعوة مظلوم — وهي مستمدة من الحديث النبوي الشريف الذي يحذر فيه الرسول «صلى الله عليه وسلم» من دعوة المظلوم لسرعة اجابة الله تعالى له وعدم رد دعوته هذه . يقول الرسول «واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب».«٢»

ويشير أبو تمام — والقياس مع الفارق — الى ان دعوته لا ينبغي للمدعو ان يردها كما أن المظلوم لا يرد الله دعوته . . . والتشبيه ينطوي على المبالغة والتهويل شان الكثير من امثال أبي تمام وتشبيهاته .

ومن المعاني التي استمدها أبو تمام من السنة النبوية المطهرة قوله ضمن قصيدة يمدح فيها المعتصم ويذكر أخذ بابك :

لو عاين الدجال بعض فعاله لانهل دمع الاعور الدجال
أعطى أمير المؤمنين سيوفه فيه الرضى وحكومة المقتال
مستيقنا ان سوف يمحو قتله ما كان من سهو ومن إغفال
مثل الصلاة اذا أقيمت اصلحت ما بعدها من سائر الاعمال «٣»

وأبرز معاني هذه الابيات مأخوذ من السنة النبوية وأول هذه المعاني ما أورده في افعال بابك وأنها شر من افعال الاعور الدجال . والاعور ورد ذكره في السنة النبوية وتحدث عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « . . الدجال أعور العين اليسرى صقال الشعر معه جنة ونار فناره جنة وجنته نار . . » «٤» رواه الشيخان وابو داود ويكفي بهذا المثال رداءة وسوءا ان يشبه بابك به . . .
واما المعنى الاخر فهو من معاني المديح ذلك أن ابا تمام هدم وبنى في وقت واحد فهو حين هجا بابك مدح بالمقابل المعتصم بالشجاعة وقوة البأس وعظيم الفعل حتى كان قتاله لبابك مكرمة من المكارم وحسنة محت ما سبقها من سيئات

(١) الديوان ص١٩ .
(٢) انظر : جمع الفوائد ج٢ ص ٦١٧
(٣) الديوان ص١٩٦ .
(٤) انظر جمع الفوائد ج٢ ص٧٤٠ .

وأكملت ما كان من خلل او نقص وذلك مثل الصلاة حين عدها الرسول مكملة لعمل المؤمن ودليلا على صلاح اعماله ان كانت صالحة والعكس صحيح . قال الرسول :

« أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة ، فان صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله . . . » . «١» والاعتماد لدى ابي تمام على هذا الحديث واضح بالمعنى التام وبشيء غير قليل من اللفظ .

ومن هذه المعاني المستمدة من السنة قول أبي تمام في رثاء ادريس بن بدر السامي بقصيدة يقول فيها :

ولم أنس سعي الجود خلف سريره ... باكسف بال يستقل ويطلع

وتكبيره خمساً عليه معالنـاً ... وإن كان تكبير المصلين اربع «٢»

والذي يفهم من هذه الابيات أن ابا تمام أراد أن يضفي على الممدوح صفة القداسة والاحترام والمكانة الرفيعة فقد تبعه عند موته كل شيء حتى الجود وقف خلف سريره كاسف البال منكس الرأس . حزينا اشد ما يكون الحزن حتى إنه كبر عليه خمساً مع أن التكبير على الجنازة أربع وذلك لشدة التأثر والحزن . فقد ورد في السنة المطهرة أن صلاة الجنازة أربع تكبيرات على اغلب الروايات وأصحها ومن هذه الاحاديث ما رواه الستة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعي اليه النجاشي في اليوم الذى مات فيه وخرج بهم الى المصلى فصلى بأصحابه وكبر اربع تكبيرات « ٣ »

ويأخذ أبو تمام العديد من المعاني من السنة النبوية في الحكم والوفاء او القدر من الاخلاء ، وحول الدهر وشدائده ، ثم ينتقل الى الحياء وكيف أنه زينة الانسان وقوام حياته اذا فقده فقد كل ما يعتد به وأصبح مستعدا لان يفعل كل شيء . . .

(١) الترغيب والترهيب، المنذري جا ص ٢٤٥-٢٤٦ مع مجموعة احاديث في هذا المعنى .

(٢) الديوان ص٣٢١ ، العمدة ج ٢ ص ١٤٩ .

(٣) جمع الفوائد جا ص ٣٥٤ .

إذا لم تخش عاقبة الليالـــي ولم تستحي فاصنع ما تشاء «١»

والشطر بمعناه واغلب الفاظه – باستثناء لم – مأخوذ من الحديث النبوي الشريف الذي يؤكد فيه الرسول على الحياء وقيمته ووجوب الالتزام به لانه شعار المتقين وشارة الصالحين فيقول : « إن مما ادرك الناس من كلام النبوة الاولى إذا لم تستحي فاصنع ما شئت . . » . «٢» للبخاري وابي داود على أن هناك شواهد أخرى اهتدى فيها أبو تمام بالسنة النبوية وأخذ عنها باللفظ والمعنى وما ذكرناه من المثل يكفي لاعطاء فكرة واضحة عن فهم ابي تمام للسنة وحفظ الكثير من الاحاديث الشريفة الصحيحة وفي مختلف الموضوعات .

وقد لا ينفع ذكر جميع الامثلة بقدر ما تنفع الصورة الواضحة التي تكونها أمثلة بارزة وثيقة الصلة بالسنة لفظا ومعنى . . .

المعاني الفقهية :

وابو تمام لا يثبت في شعره انه من حفظة القرآن أو ممن يحفظون أكثره مع عدد جم من الاحاديث النبوية الصحيحة فحسب ، بل يشير الينا شعره في مواضع عديدة الى أنه كان على قدر لا يستهان به من الفقه بأحكام الشريعة ومراميها ، يبدو ذلك من المعاني الفقهية الكثيرة المتناثرة في شعره على كثرة الاغراض التي عالجها هذا الشعر . . .

ومن هذه المعاني ما أورده ضمن قصيدته التي يمدح فيها أبا الحسن محمد ابن عبد الملك بن صالح الهاشمي ومطلعها :

إن بكاء في الربع من اربـــه فشايعا مغرما على طربـــه

الى أن يقول :

مهذب فدت النبوة والاسـ ـلام قد الشرك من نسبه «٣»

تلك بنات المخاض راتعـــة والعود في كوره وفي قتبه

(١) الديوان ٢٦٤ .

(٢) جمع الفوائد جـ٢ ٣٦٤ والتجريد الصريح .

(١) الديوان ٢٤٢–٤٣ .

والشاهد من السنة في هذين البيتين قوله : بنات المخاض . . .
وبنات المخاض واحدتها ابنة مخاض « صغيرة الابل التي لقحت أمها وقد مضى على ولادتها عشرة أشهر . . » «١»
وتستخرج زكاة على ما بلغ خمساً وعشرين من الابل «٢»
أما الفاظ الاسلام والشرك فقد اشرنا فيما سبق الى كثرتها في شعر ابي تمام كثرة تفوق الحصر حتى لتكاد تبدو من مصطلحاته المعروفة في المديح خاصة.
والمعنى الذى يريده من اعتماد للمعنى الفقهي والمعاني السابقة عليه ان الممدوح قوى بجسمه وخلقه غني بماله واملاكه . . .
ومن المعاني الفقهية التي تطالعنا في شعر ابي تمام كلامه عن الحج وأحكامه بما يقرب من التفضيل والشرح حتى لكانه مع الممدوح في حجه خطوة بخطوة يسجل له كل ما يفعله ويؤديه من المناسك وفي مقدمتها الاحرام والذبح والرمي والسعي وتقبيل الركن . . . الى غير ذلك . . .
وقد جاء هذا في قصيدته التي مدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى وذكر حجه في مطلع القصيدة :

مالي بعادية الأيام من قبل ... لم يثن كيد النوى كيدي ولاحيلي«٣»

حتى يقول منها:

حطت الى عمدة الاسلام أرحله ... والشمس قد نفضت ورسا على الأصل
ملبيا طالما لبى مناديــــه ... الى الوغى غير رعديد ولاوكل
ومحرماً أحرقت أرض العراق له ... من الندى واكتست ثوبا من البخل
وسافكا لدماء البدن قد سفكت ... به دماء ذوى الالحاد والنحل
وراميا حجرات الحج في سنة ... رمى بها حجرات اليوم ذى الشعل
يردى ويرقل بين المروتين كما ... يردى ويرقل نحو الفارس البطل
تقبل الركن ركن البيت نافلة ... وظهر كفك معمور من القبل

(١) المعجم الوسيط جا ص ٨٦٤ .
(٢) انظر بداية المجتهد جا ص ٢٥٠ ، باب الزكاة.
(٣) الديوان ص ١٨٨ .

لما تركت بيوت الروم خاوية بالغزو اثرت بيت الله بالقفل
فالحج والغزو مقرونان في قرن فاذهب فأنت ذعاف الخيل والابل «١»
وهكذا يعرض لنا أبو تمام صفحة من صفحات فقهه للعبادات الاسلامية ومنها الحج «٢» باسلوب مؤثر أخاذ ومعبر تعبيرا صادقا عن براعة هذا الشاعر في مزج المديح بالمعاني الفقهية مزجا قد يصعب معه الفصل بينهما فكان كل شطر يحوى منسكاً من مناسك الحج يقابله في الشطر الثاني شارة من شارات الشجاعة والبأس وقهر الاعداء على اختلاف عقائدهم واخلاقهم من ذوى الحاد ونحل متعددة الى فرسان أبطال ورجال اشداء . . .
وبهذا جمع بين الحج والغزو حيث كانت صفة بعض خلفاء العباسيين كما يحدثنا التاريخ بذلك .

ونرى هذا المعنى أيضاً – وصف مناسك الحج – في مدح ابي تمام لعبد العزيز وذكر حجه ايضا فيقول :

وقائلة حج عبد العزيـــز فقلت لها حج غيث الانام
لقد حمل الجمل المستقـــل بعبد العزيز سجال الغمـــام
مطاف يطوف ببيت الحرام وركن حوى ركنه باستلام
مضى محرماً بخلال الثرى فأرضى به رب بيت الحرام
وفر الى الله من خلقـــه به عائذا خوف ورد الأثام
أقام طويلا يزيد المقـــام فأمر ضنا منه طول المقام
وآب معرى من السيئآت يرفل في الحسنات الجسام
مناسكه مقبولـــــــة وحجته برة بالتمـــــام
وأبقى مآثر محمودة معمرة عمر ركني شمام
فدونك تهنئة حـــرة نظام امرىء حاذق بالنظام «٣»

(١) الديوان ص ١٨٩ .
(٢) انظر بداية المجتهد في اركان الحجج واحكامه ج ١ ص ٣٠٨ -٣٦٣ .
(٣) الديوان ص ٢٤١ .

وفي هذه الابيات يورد أبو تمام أكثر من معنى من معاني الحج : انه يذكر الاحرام واالطواف واستلام الركن...ثم يتبع هذا التفصيل امورا تتعلق بتأدية هذه الفريضة وما يترتب على تأديتها بالشكل الشرعي المطلوب واهم ذلك حجه المبرور الذى ليس له جزاء الا الجنة كما ورد في الحديث الشريف. فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن الرسول «ص» قال : العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور — اي الصادق الصحيح — ليس له جزاء الإ الجنة. « ١ »

كما يشير ايضاً الى الهبة التي يهبها الله تعالى لعباده الذين يحجون حجاً مبرورا وهي : تعريتهم من الذنوب ولهذا قال:

وآب معرى من السيئات يرفل بالحسنات الجسام

وهذا مستمد من قوله صلى الله عليه وسلم : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ». «٢»

وهذان الأمران من فقه الحج وشاراته الخطيرة ، ذلك أن الحج الصحيح يجب أن يخلو من الرفث والفسوق ويقوم على التجرد لله تعالى والخروج من الدنيا بعد رد الحقوق والمظالم — ان وجدت — الى أهلها ، فان فعل المسلم ذلك وأقبل على الله تعالى وأدى مناسكه كاملة غير منقوصة كان على الله أن يغفر عنه سيئاته ويرجع الى أهله مغفور الذنب طاهر الثوب والقلب . . . وهذه معان لاتتيسر لمن يمر على فروض الاسلام واركانه بسرعة وسطحية بل تعتمد على الفهم والتثبت وتحرى الصحيح والابتعاد عن الخطأ . . .

ومثل هذا في معاني الحج والفاظه ما جاء في رائبته حيث يقول:

إما حججت فمقبول ومبرور موفر الحظ منك الذنب مغفور
قضيت من حجة الاسلام واجبها ثم انصرفت ومنك السعي مشكور«٣»

ويلاحظ من يقرأ هذه الابيات تأكيد أبي تمام على نفس المعاني التي رأينا

(١) جمع الفوائد ج ١ص ٤٣٨ .
(٢) نفس المصدر ج١ص٤٣٨ .
(٣) الديوان ص ٣٤٣ .

الابيات السابقة في القصيدتين تؤكدها. مما يدفعنا الى عدم الاسترسال في التعليق على هذه الابيات وتجاوزها حيث كان في الصور السابقة ما يكفي ويغني .

ويورد أبو تمام ألفاظاً فقهية في بعض ابياته تدل على معرفته بالحدود والعقوبات فضلا عن معرفته بالمناسك والعبادات ، يقول في ابيات ضمن مديحه لابي الحسن محمد بن الهيثم بن شبابة :

اعطيتني دية القتيل وليس لي عقل ولا حق عليك قديم
ألا تدى كالدين حل قضاؤه إن الكريم لمعتفيه غريـــم «١»

والالفاظ الواردة في هذين البيتين ، دية القتيل وهي ما يدفع من المال عقابا على من قتل انسانا خطأ . او عمدا في أحوال وظروف خاصة « ٢ » .

والعقل : من العاقله : وهي العصبة بالنسبة للقتيل من جهة الاب والذين يشتركون في دفع ديته «٣» ومن المعاني الفقهيه قول ابي تمام في قصيدته التي مدح بها الحسن بن وهب ومطلعها :

الا ويل الشجي من الخلي وبالي الربع من احدى بلي

حتى يقول :

أرى الاخوان ما غيبت عنهم بمسقط ذلك الشعب القصي
ومردوداً صفاؤهم عليهـــم كما رد النكاح بلاولي «٤»

ونلاحظ أبا تمام يدعم معنى البيت الأول بمعنى البيت الثاني حين يذكر ان صفاء هؤلاء مردود عليهم غير مقبول منهم كما رد بعض الفقهاء نكاح الفتاة من غير موافقة وليها ، حيث اشترط الامام مالك والشافعي موافقة الولي الى جانب موافقة الفتاة نفسها ، قال القرطبي في بداية المجتهد : «اختلف

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٨ .
(٢) التشريع الجنائي الاسلامي ج٢ ص ١٧٦ ومابعدها .
(٣) المعجم الوسيط ج٢ ، ص ٦٢٣ .
(٤) الديوان ، ص ٣٦١ .

العلماء : هل الولاية شرط من شروط صحة النكاح أم ليست بشرط؟ فذهب مالك الى أنه لا يكون نكاح الا بولي وأنها شرط في الصحة في رواية اشهب عنه وبه قال الشافعي . . . » . «١»

ومن المعاني الفقهيه : هذا الاصطلاحان الفقهيان في أحد ابيات قصيدة ابي تمام في مدح محمد بن عبد الملك الزيات ومطلعها :

لهان علينا أن نقول وتفعــلا ونذكر بعض الفضل منك فتفضلا

حتى يخاطبه بقوله :

فوالله ما آتيك الإ فريضــة وآتي جميع الناس الا تنفلا «٢»

واللفظتان : فريضة وتنفل من الفاظ الفقه الاسلامي.

أما الفريضة فمعناها : ما يجب على المسلم فعله على وجه الالزام ويمدح فاعله ويثاب كما يذم تاركه ويحاسب .

التنفل : ما ندب الشرع الحكيم الى فعله من غير الزام ، يثاب العبد على فعله ولا يحاسب على تركه ويسمى المندوب والمستحب والتطوع والاحسان والفضيلة . . . » . «٣»

ويكون معنى البيت على هذا الاساس : انني آتيك لاني اعد المجيء اليك فرضا واجبا علي في حين اعد قصد الناس سنة وتنفلا.

والفرق واضح بين المعنيين. كما يتضح ايضا استعانة ابي تمام بالمعاني الاسلامية فقهية وغير فقهية لمعاني مديحه من غير اهتمام بما قد يترتب على ذلك من المبالغة والافراط في صفات الممدوح او التجاوز احيانا على المعاني الاسلامية المنقولة. ذلك ان الواجب المفروض ما يوجبه ويفرضه الله عز وجل ورسوله والسنة ما يتقرب به العبد الى الله والرسول ليزكو عمله وتزال بعض

---

(١) بداية المجتهد جـ٢ ص ٨ .

(٢) الديوان ، ص ١٩٠ .

(٣) الوجيز في اصول الفقه ، ص ٢٤–٣٠ .

الاخطاء والمآثم من صحيفة اعماله او تقابلها اعمال حسنة تطغى عليها وتزداد

المعاني الاسلامية العامة :

وفي هذا الباب نرى ابا تمام يعرض في شعره مثلا اسلامية عامة مأخوذة من عموم قواعد الاسلام واصوله الرئيسة والفاظه المشتهرة... يكثر هذا في شعر المديح خاصة.

من ذلك مدح حبيش بن المعافى قاضي نصيبين ورأس العين :

الى خير من ساس البرية عدله   ووطد اعلام الهدى فاستقرت
حبيش حبيش بن المعافى الذي به   امرت حبال الدين حتى استمرت
ولولا ابو الليث الهمام لأخلقت   من الدين اسباب الهدى وارثت
اقر عمود الدين في مستقره   فقد نهلت منه الليالي وعلت «١»

ويعرض لمثل هذه المعاني في مدحه لابي سعيد محمد بن يوسف الطائي :

تالله ادري الاسلام يشكرها   في وقعة ام بنو العباس ام ادد
يوم به اخذ الاسلام زينته   بأسرها واكتسى فخرا به الابد
يوم يجيء اذا قام الحساب ولم   يذممه بدر ولم يفضح به أحد «٢»

وبهذ نرى المعاني الاسلامية عامة لا تعنى بالتفاصيل الاقليلا فالاسلام هو المعنى بهذا الاقتباس الاسلام الذي يعني الدين الاسلامي والمسلمين، واذا كان ابو تمام قد تطرق الى شيء من التفصيل عند ذكره ليوم الحساب وبدر واحد فان طابع هذه الالفاظ عام ايضا او اقرب الى التاريخ الاسلامي منه الى المعاني الاسلامية البحتة وتطالعنا ابيات اخرى لابي تمام بمعان اسلامية عامة باسلوب اخر يختلف عما وجدناه في المثالين السابقين، فالممدوح هنا لا يفعل الا ما يرضي الله وهو ولي الامة وخادمها والراعي لمصالحها، يحافظ على سمعة الرسول ومكانته بمحافظته على امته ورعايته لها ولنستمع اليه وهو ينشد:

---

(١) الديوان ، ص ٤٨ .

(٢) الديوان ، ص ٧٥ .

الله يشهد ان هديك للرضا فينا ويلعن كل من لم يشهد
اولى امة احمد ما احمد بمضيع ما اوليت امة احمد «١»

ويمدح ابو تمام ابا سعيد بقصيدة تزيد على اربعين بيتا يتعرض في العديد من ابياتها للمعاني الاسلامية العامة يوجهها نحو ممدوحه موضحاً بأسه وشكيمته وقدرته على الحرب وحمايته للثغور وجهاده المتواصل فما اشبهه بالصحابة المجاهدين الابرار ابي عبيدة وخالد وسعد والمثنى وغيرهم...

يا فارس الاسلام انت حميته وكفيته كلب العدو المعتدي
ونصرته بكتائب صيرتها نصبا لعورات العدو بمرصد
اصبحت مفتاح الثغور وقفلها وسداد ثلمتها التي لم تسدد
ادركت فيه دم الشهيد وثاره وفلجت فيه بشكر كل موحد
ضحكت له اجبال مكة ضحكها في يوم بدر والعتاد الشهد
احييت للاسلام نجدة خالد وفسحت فيه لمتهم ولمنجد «٢»

ويمضي ابو تمام في الابيات التالية يسرد اسماء اخرى لبعض الصحابة المشهورين بالجهاد والتضحية والبذل، مع ربط كل هذه المعاني بممدوحه وتوجيهها نحوه...... وفي ابيات اخرى يورد ابو تمام ما يشبه هذه المعاني في قصيدة يمدح فيها ابا سعيد حيث يقول فيها:

هو كوكب الاسلام اية ظلمة يخرق فتح الكفر فيها رار «٣»

وتجد نفس المعنى تقريبا في قوله:—

أمسى بك الاسلام بدرا بعدما محقت بشاشته محاق هلال «٤»

ويحشر ابو تمام المعاني الاسلامية في مجموعة ابيات او في بيت واحد، فنجد فيه المعنى الاسلامي العام وبعض المعاني الفرعية من القرآن او السنة او الفقه...

---

(١) الديوان، ص ٨٥ .
(٢) الديوان، ص ١٠٤ .
(٣) الديوان، ص ١١٠.
(٤) الديوان، ص ٢٠٠.

وقد يكون فيها بعض امور العقيدة من جنة ونار او بعض المعاني المتعلقة بالدعوة الاسلامية في فترة من فتراتها.....

يقول ابو تمام في تهنئة الواثق وتعزيته بالمعتصم ابيه :

هدمت صروف الدهر أطول حائط   ضربت دعائمه على الاسلام

ويقول أيضاً :

لغدوا وذاك الحول حول عبادة   فيهم وذاك الشهر شهر صيام

ويقول أيضاً :

هي بيعة الرضوان يشرع وسطها   باب السلامة فادخلوا بسلام «١»

واذا كانت هذه الابيات متباعدة فإن معانيها مختلفة كذلك وهي تعالج مختلف الامور ففي البيت الاول يتطرق أبو تمام الى صلة الممدوح بالاسلام وكيف أنه هدم كل صروح البغي والشرك التي كانت تهدده ...

وفي البيت الثاني يذكر الصوم وهو عبادة من العبادات الاسلامية وأما بيعة الرضوان فيذكرها في البيت الثالث ويقرنها باليمن والخير والسلام كالذي ترتب على هذه البيعة في عهد الرسول من فتح مكة ودخول الناس في الاسلام افواجاً في السنة التي تلتها .

وهكذا لو استعرضنا ابيات القصيدة كلها ،وابياتها تزيد على الخمسين، لوحدنا المعاني الاسلامية العامة تطالعنا مرات عديدة وفي مجموعات مختلفة من الابيات.

ويمدح أبو تمام المأمون بقصيدة طويلة يتعرض فيها للمعاني والمفاهيم الاسلامية في اماكن عديدة في مثل قوله :

مستسلم لله سائس امـــة   بذوي تجهضمها له استسلام

يتجنب الآثام ثم يخافــها   فكأنما حسناته آثـــام

وقوله :

ما زال حكم الله يشرق وجهه   في الارض مذ نيطت بك الاحكام

---

(١) الديوان ص ٢٠٩ .

وقوله :

لما رأيت الدين يخفق قلبه والكفر فيـه تغطرس وعرام
أوريت زند عزائم تحت الدجى أسرجن فكرك والبلاد ظلام

وقوله في نفس القصيدة :

في معرك أما الحمـام فمفطر في هبوتيه والكماة صيام «١»

وجميع هذه المعاني مطروقة من قبل أبي تمام في مثل هذه المواقف. وان كان فيها شيء فهو التصوير البارع للحرب والمعركة التي خافها ممدوحه، واستعماله لفظي الافطار والصيام كناية عن الايقاع بالعدو واصابته بأفدح الخسائر لشدة بأس المقاتلين وشجاعة قائدهم وقدرته الفائقة على التصرف الحسن في الازمات واوقات الشدة والحرج الى جانب خلقه العالي الرفيع اذ يتجنب الآثام ويبالغ في ابتعاده عنها حتى ليكاد يعد اثماً ما ليس بأثم ويبتعد عما ينبغي ان يقترب منه ....

وفي مدح أبي تمام لابي سعيد وقد قدم من مكةبقصيدته الميمية التي مطلعها:

إن عهدا لو تعلمان ذميما أن تناما عن ليلتي او تنيما

ضمنها كثيرا من المعاني الاسلامية العامة سواء منها ما كان متعلقاً بالحج او مشيرا اليه، او ما كان منها عاماً :

وأحق الاقوام أن يقضـى الدين امرؤ كان للاله غريما
في طريق قد كان قبل شراكاً ثم لما علاه صار أديمـا
لم يحدث نفساً بمكة حتى جازت الكهف خيله والرقيما
حرم الدين زاره بعد ان لم يبق للكفر والضلال حريما
حين عفى مقام ابليس سامى بالمطايـا مقام ابراهيمـا «٢»

ونكاد نقرأ نفس هذه المعاني ولكن باسلوب آخر في ابياته التي مدح فيها أبا الحسن محمد بن شبابة، تدور حول قوة الممدوح ونصرته للاسلام وخذلانه

(١) الديوان ص ٢١١–٢١٣ .

(٢) الديوان ص ٢٢١ .

للكفر وهزيمته شر هزيمة يقول أبو تمام :

طمطمت بالخيل الجبال من العدى والكفر يقعد بالهدى ويقوم
بالسفح من همدان اذ سفحت دما رويت بحجته الرماح الهيم
يوم وسمت به الزمان ووقعة تركت امام الكفر وهو أميم
وبيان ذلك ان أول من حبا وقرى خليل الله ابراهيم «١»

والمعاني الاسلامية في هذه الابيات عديدة لايكاد بيت واحد منها يخلو من اشارة الى معنى من هذه المعاني ، ففي البيت لفظة الكفر وما ترتب على وجودها من تزعزع الكفر نفسه وانهزامه امام الهدى .

وفي البيت الثاني لفظة الهيم وهي الابل العطاش وقد شبه بها الرماح واصل المعنى من قوله تعالى : « فشاربون شرب الهيم » «٢» .

وفي البيت الثالث لفظة الدين ولفظة الكفر والمعنى الذي ربط بينهما هو انهزام الكفر امام الدين الذي اشرق فجره وسعدت أيامه ...

وأما البيت الاخير ففيه اسماء : خليل الله وابراهيم. ثم هذا المعنى الذي اخذه من القرآن وهو معنى القري واكرام الضيف الذي كان اول من سنه ابراهيم عليه السلام « فراغ الى اهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم ». «٣»

المعاني الاسلامية في بعض مطولات أبي تمام :

وهذه احدى قصائد ابي تمام الطوال التي عرض فيها صورا عديدة من المعاني الاسلامية تصريحا او تلميحاً مما جعل دراسة هذه القصيدة باستخراج ما تحويه من المعاني الاسلامية امراً تقتضيه طبيعة البحث .

والقصيدة قالها أبو تمام في مدح المعتصم في وقعة عمورية متغنياً بما حققه من نصر وظفر على الاعداء ، وأبو تمام يبدا هذه القصيدة بمطلع مؤثر حاسم يقرر القاعدة التي لا يتم النصر الا بها وهي القوة المتمثلة بعدد الحرب والقتال والسواعد المفتولة القوية . . . أما الكتب – ويقصد بها كتب المنجمين–

---

(١) الديوان ص ٢٢٧ .

(٢) سورة الواقعة ٥٥ .

(٣) الذاريات ٢٦ .

فانها قل ان تصدق في ذلك وحتى لو صدقت فهي كاذبة :

السيف أصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ثم يمهد أبو تمام لمعانيه الاسلامية بوصف السيوف بأنها صحائف بيضاء ناصعة مجردة عن كل ما يريب . . . ويخلص من ذلك الى رفض فكرة الرجوع الى المنجمين وأخذ بعض اخبار الغيب عنهم ، فان هؤلاء مهما صدقوا فانهم كاذبون وهذا المعنى اسلامي بحت إذ الاسلام يرفض اللجوء الى المنجمين ويعد ذلك ضعفاً في العقيدة ونقصاً في الايمان . . . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

ليس منا من تطير او تطير له اوتكهن اوتكهن له او سحر أو سحر له ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما انزل على محمد « ص » «١»

ويخلص أبو تمام الى المعاني الاسلامية الاتية في هذه الابيات :

لو بينت قط امرأ قبل موقعه لم يخف ما حل بالاوثان والصلب

فتح الفتوح تعالى ان يحيط به نظم من الشعر او نثر من الخطب

فتح تفتح أبواب السماء لـــه وتبرز الأرض في اثوابها القشب

يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

أبقيت جد بني الاسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صبب

وبهذا يجعل أبو تمام الفتح الذى تم للمسلمين على عديد المعتصم فتحا«٢» عظيما تضيق عن وصفه الخطب والقصائد ، كيف لا وقد هدم الشرك واقتلع جذوره وحطم الاصنام والاوثان وما يتبعها من الوان الشرك والطغيان؟ . . . نصر تفتحت له ابواب السماء فباركه الله تعالى ونفع به من في الأرض حيث دفع الاسلام قدما نحو العلا والمجد في حين دحض الشرك وجعله يهوى الى دركات سحيقة لا تقوم له بعدها قائمة. ويمضي أبو تمام في ربط النصر بالاسلام ودحض الشرك ، يكرر هذا باساليب عديدة ويدخل في كل مرة الفاظاً وتعابير جديدة من ذلك ما يقوله في تصوير المشركين :

---

(١) الترغيب والترهيب ج٤ ص٣٣ ، باب الترهيب من السحر واتيان الكهان والعرافين . ص٣١–٤٠

(٢) الديوان ص٨

لما رات اختها بالامس قد خربت ... كان الخراب لها أعدى من الجرب
كم بين حيطانها من فارس بطل ... قاني الذوائب من آني دم سرب
بسنة السيف والخطي من دمه ... لاسنة الدين والاسلام مختضب «١»

وفي ابيات أخرى يعرض الفكرة بعد أن يطورها ويغير بعض عناصرها فيخرجها شيئاً جديداً كان لم يسبق له ذكره في ابيات سابقة:

لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت ... له المنية بين السحر والقضب
تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب في الله مرتهب
ومطعم النصل لم تكهم أسنته ... يوماً ولا حجبت عن روح محتجب
لم يغز قوماً ولم ينهض الى بلد ... الا تقدمه جيش من الرعب «٢»

ونجد ابا تمام في هذه الابيات يؤكد على المعتصم بعد ايراده المعنى الاسلامي العام في البيت الأول فيصف المعتصم باعتصامه بالله – مشتق من اسمه– والانتقام له والمراقبة لله عز وجل والرهبة منه تعالى وهذه الصفات: الاعتصام بالله والانتقام له ومراقبته والرهبة منه قل ان تجتمع في انسان الا كان من الصالحين الابرار والمجاهدين الاخيار الذين نذروا انفسهم لله. عزوا على على الله وصدقوه العزم فصدقهم النصر وكان من نصره لهم جيش الرعب الذي يوقعه في قلوب اعدائهم وقد كان هذا خاصاً بالرسول وورد ذكره في معرض الحديث عن معركة بدر في قوله تعالى:

« إذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين امنوا سالقي في قلوب الذين كفروا الرعب . . . » «٣» ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « نصرت بالرعب مسيرة شهر » «٤»

ولا يختم أبو تمام قصيدته هذه حتى يكرر هذا المعنى مرة أخرى وباسلوب آخر ليكون اخر ما يبقى في ذهن السامع او القارىء وهي نفس الفكرة التي

---

(١) الديوان ص ٩ .
(٢) الديوان ص ٩ .
(٣) الانفال اية ١٢ .
(٤) جمع الفوائد جـ٢ ص ٤٣٩

أكد عليها أبو تمام كثيرا فكرة اعتصام الخليفة بالله واعتماد ه عليه . . .
حتى استحق نصر الله في الدنيا ومثوبته في الاخرة وذلك جزاء المجاهدين المرابطين الذين يخوضون غمرات الموت دون خوف او وجل يبذلون التضحيات الجسام التي تذكر بتضحيات المجاهدين الأول في بدر وأحد وغيرهما . . .

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال الا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولة او زمام غير منقضب
فبين ايامك اللائي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقيت بني الأصفر المصفر كاسمهم صفر الوجوه وجلت اوجه العرب«١»

على أن في القصيدة معاني اسلامية أخرى من قبيل اشارة ابي تمام للخضاب وصلته بالسنة او اشارته الى قصة يوشع التي تذهب الى أن الشمس تأخرت من أجله عن مغربها فكأن هذا يوم يوشع إنه يوم المعجزة الكبرى في تاريخ العرب . . ونراه بعد ذلك يتحدث عن هذا اليوم الطاهر الجنب وما فيه من الزواج والعزوبة . . . » «٢» وليست المعاني الاسلامية هي كل ما في القصيدة فقد اورد فيها أبو تمام معاني وثقافات اخرى كاليونانية الى جانب الثقافة العربية . حتى عدها بعض الباحثين مثلا حياً يرينا « كيف تطورت قصيدة المديح العصر العباسي فقد اخذت تستوعب الثقافات المختلفة من عربية واسلامية وفارسية ويونانية . . . » «٣»
ونستطيع أن نلمح الكثير من الاشارات والمعاني الاسلامية العامة والخاصة في قصائد ابي تمام ومطولاته الأخرى وقد كان الواجب أن تدرس هذه القصائد بشيء من التفصيل أيضاً لكن طبيعة هذا البحث وظروفه تحتم الايجاز فكان لابد من الاقتصار على نموذج واحد من أشهر نماذج أبي تمام الشعرية

---

(١) الديوان ص١٠ .
(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ص٢٥٦-٢٦٠.
(٣) نفس المصدر السابق ص٢٦١ .

وقصائده المطولة وبامكان المرء تكوين فكرة مختصرة واضحة عن طبيعة شعر أبي تمام في قصائده الطويلة والطابع الذي تميزت به وبذلك تبدو ثقافة أبي تمام الاسلامية وقدرته على الاقتباس والأخذ بما يجعل شعره فذا في بابه ، قوي التأثير واضح المعالم والسمات.

الخاتمة :

ونقف الان وقفة قصيرة بعد هذه الجولة الممتعة في شعر ابي تمام وازاهير معانيه الاسلامية . . . نقف لنستعيد أهم النتائج التي يمكن أن يفضي اليها هذا البحث المتواضع . . . وما يمكن ان يضيفه الى حياة ابي تمام وثقافته وشعره على وجه الخصوص .

ويدرك من يتابع هذه المعاني ما كان ينطوي عليه أبو تمام من العلم الواسع بالقرآن والسنة والفقه الاسلامي . . . ذلك العلم الذي نطقت به ابيات كثيرة وقصائد مطولة من شعره . . . .

العلم الذي يستبعد معه أن يكون صاحبه من الكفار أو زائفي القصيدة منحرفي الفكر والخلق . . . أما الهوة التي قد تبدو بين سلوك أبي تمام وبين ما أورده من الدلائل والاشارات الاسلامية في مواضع الاحترام والتقدير والاعجاب والتعظيم . . . فيمكن أن ينظر اليها من خلال وضع ابي تمام الشاعر وبيئته التي عاش فيها وقد لا ينفرد وحده بظاهرة الفصل بين السلوك والاعتقاد – التي هي ليست من طبيعة الاسلام – وإنما يشاركه فيها أكثر الشعراء وكثير غيرهم من الناس . . . ولئن كانت هذه الظاهرة خطيرة في المجتمع الاسلامي ، متعلقة بمصيره دنيا وأخرى . . . فلعل مما يشفع لابي تمام خاصة عدم استخفافه بشيء من احكام الاسلام بالانكار اوالجحود ولقد وجدنا ابا تمام يو صف بالتقوى والورع الى جانب وصفه بالمجون والاستهتار فاذا نظرنا اليه من خلال معاصريه او سابقيه من الشعراء فلربما وجدناه

أقلهم استهتارا ومجونا مع ما كان يتميز به من الأخلاق الطيبة والصفات الحميدة إضافة الى تلك الأصداء الايمانية في شعره والمعبرة عن فهمه للاسلام وحبه له وتعظيمه لكتابه الكريم وسنة رسوله العظيم . ظهر ذلك بوضوح في ممارسة ابي تمام للمعاني الاسلامية وابرازها لفضل القرآن الكريم وتأثيره على أهل العلم والادب سواء في انفسهم واخلاقهم أو في آثارهم العلمية والادبية .

وفي معاني أبي تمام الاسلامية يتجلى العموم والشمول لآفاق الشريعة الاسلامية ومصادرها في فكرأبي تمام وامتزاج كل ذلك بروحه وخلقه ، وتردده على لسانه في كثير من المناسبات والمواقف.

ومما يفهم من المعاني القرآنية المقتبسة في شعر ابي تمام حفظه للقرآن او حفظ اكثره بدليل اقتباسه من سور عديدة متباعدة وفيموضوعات متباينة وكان — على الارجح — يفهم القرآن أو يفهم أكثر آياته بدليل التوفيق الذي حالفه في كثير من مواضع الاقتباس والقدرة على الجمع بين المعاني حتى كان مقدار التوفيق الذي حالفه في الاقتباس واضحا جلياً لا يرى فيه من مظاهر الضعف الا قليل .

وقد يفيد اقتباس ابي تمام لآي القرآن الكريم باللفظ والمعنى في اعطاء فكرة عن المستوى الثقافي الرفيع الذي كان عليه مجتمع ابي تمام حتى يخاطب بمثل هذه الاساليب فضلا عما يكنه هذا المجتمع للقرآن والسنة واحكام الشريعة الاسلامية حتى انزل ابا تمام هذه المنزلة الرفيعة في الفكر والادب وأوصل شعره الى درجة رفيعة في ادباء عصره وشعرائه.

وتطلعنا هذه الدراسة على حقيقة معرفة أبي تمام للسنة النبوية الشريفة فهماً وحفظا يدل على ذلك ما أورده من المعاني والالفاظ مجتمعة ومنفردة في المواضع المناسبة لها مع الفهم والاحاطة لمدلولاتها.

وهذا بدوره يلفت نظرنا الى أهمية السنة في حياة الناس وكونها مكملة للقرآن الكريم بالشرح والتبيين والتقييد والاطلاق . . . وغير ذلك ، والمتأمل

في معاني السنة التي تضمنها شعر ابي تمام يلحظ العموم والشمول لموضوعات مختلفة حسب ما كان يقتضيه المقام ويجعل ابا تمام قادرا على اخذه ناجحاً في نقله .

ومع ان حفظ السنة وفهمها من الأمور التي تترتب على حفظ القرآن غالباً وان كثيرين من الشعراء كانوا يحفظون قسماً من القرآن والسنة الا أننا نجد ابا تمام قد مارس الاقتباس والاخذ بشكل بارز ملحوظ قد يفوق به كثيرين غيره ممن سبقوه أو عاصروه بل وحتى من الذين جاءوا بعده.

واما المعاني الفقهية فقد كانت هي الأخرى من أدلة ثقافة ابي تمام الاسلامية الواسعة بل ان هذه المعاني –كما ارى– أوضح في الدليل واقوى في الاحتجاج على حفظ القرآن والسنة ، ذلك أن الفقه دليل الفهم الواسع العميق لمصادر الشريعة واستيعاب الاحكام وربما القدرة على الاستنباط واذا كان هذا لا يعني أن ابا تمام كان فقيهاً ، فهو يعني على الاقل أن لابي تمام حظاً لا باس به من الفقه.

وفضلا عن هذا فان المعاني الفقهية التي وردت في شعر شاعرنا عامة قد عالجت مختلف الموضوعات الفقهية من الصلاة والصيام والحج والزكاة الى الوضوء والتيمم . . الى غير ذلك من موضوعات الفقه وابوابه .

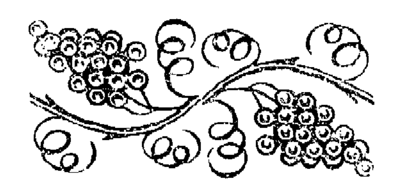
على أن مما يكمل هذا أن المعاني الاسلامية العامة كانت من الادلة القوية الاخرى على ثقافة ابي تمام وسعتها وشمولها لجوانب اسلامية متعددة تعالج مختلف جوانب المجتمع الاسلامي ، يؤيد هذا ويقويه النظرة السريعة في جميع هذه المعاني حيث يتبين أن اكثرها ليس من البسيط المتداول او السهل المعروف ، ولو كان الأمر كذلك لتغيرت النظرة اليها ولكن الأمر – في رأيي – على غير هذا فقد أفصح أبو تمام في معانيه الاسلامية عن علم واسع ومعرفة شاملة في نواحي العقيدة الاسلامية واحكامها ومصادرها مما يقرب من التخصص إن لم يكن هو التخصص بعينه.

وبهذا يكون لابي تمام الفضل في ابراز دور القرآن الكريم والسنة النبوية في الادب العربي في كل عصر ومصر وضرورة اعتماده عليه لكي يسمو الى درجة عاليةفي اغراضه واساليبه والفاظه ومعانيه . . .

ومن هنا أيضا تبرز أهمية هذا البحث . . . إنه يثير مسألة الصلة القوية بين الادب العربي من جهة وبين عناصره الأولى وفي مقدمتها القرآن والسنة.

ويدعو الى دراسة هذا الادب من هذه الزاوية بابراز المعالم الاسلاميةالواضحة في النصوص الادبية واخلاق الادباء وتصرفاتهم . . . ومع أن البحث لم يستوعب جميع الأمثلة التي اقتبس فيها أبو تمام من القرآن والسنة وغيرهما لكثرتها ولطبيعة البحث نفسه فان ما ورد من الأمثلة — على اختلاف اغراضها ومصادرها — يكفي — في رأيي — لتكوين صورة حية واضحة المعالم بارزة السمات عن تأثر ابي تمام بالقرآن والسنة خاصة وبالاسلام عامة.

واذا كان البحث محاولة لابراز الدور الكبير للقرآن والسنة في الادب العربي فلا يضيره ما قد يبدو فيه من النقائص والعيوب فالكمال لله وحده ، وفي اخلاص العزم وصدق النية ومن ثم آراء الادباء والنقادمايعين على تلافي النقص ورأب الصدع فلنمض جميعاً في طريق العلم النافع الصحيح الذي ندبنا اليه القرآن الكريم وحظنا على طلبه بندائه العلوي الأول للرسول صلى الله عليه وسلم ثم للانسانية جميعا من بعده « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم »



من وحي ابي تمام

اللغة والادب في النصف الاول من القرن التاسع الميلادي

الدكتور يوئيل يوسف عزيز

اثارت ذكرى ابي تمام حب الاستطلاع عندي ، فرحت اتساءل عن حال اللغة والادب في انكلترا في الفترة التي عاش فيها هذا الشاعر العربي . ان مثل هذه الدراسة تكمل الدراسات الاخرى عن ابي تمام وعصره .
وتجعلنا نرى هذا الشاعر في اطار اوسع . وبذلك نستطيع ان نوازنه مع غيره ونعطيه حقه كاملا . اذ ان توسيع افق النظر من شأنه ان يجعلنا نرى الاشياء بابعادها الحقيقية ، ويساعدنا على دراستها دراسة علمية موضوعية .

وبصدد تاريخ مولد ابي تمام ووفاته فان الاراء تتباين . فالاستاذ « كب » Gibb يجعل عام ٨٤٦م تاريخ وفاة الشاعر . ولا يذكر متى ولد هذا الشاعر «١» في حين يعتبر « نيكلسن » Nicholson عام ٨٥٠م هو الصحيح «٢».
وتقول دائرة المعارف الاسلامية : ان ابا تمام ولد عام ١٨٨ هـ ـ ٨٠٤ م وتوفى في ٢٣١ هـ ـ ٨٤٥ م على ما رواه ولده . اما الشاعر نفسه فكان يقول انه ولد في ١٨٩ هـ . ويرجح صاحب دائرة المعارف الاسلاميه ان الشاعر توفي عام ٢٣٢هـ ـ ٨٤٦ م . ويظهر من هذا ان الشاعر عاش في النصف الاول من القرن التاسع الميلادي . فتحديد الفترة على هذا الشكل يناسب الدراسة الادبية ، ولننتقل الان من الشرق الى الغرب ، الى انكلترا لنلقي نظرة مجملة على ادبها ولغتها في تلك الفترة .

يعود تاريخ اقدم المؤلفات الادبية الانكليزية المتوفرة لدينا الى عام ٧٠٠ م على وجه التقريب «٣». اذاً ، يعتبر النصف الاول من القرن التاسع الميلادى

---

1 H.A.R. Gibb, **Arabic Literature** (Oxford, 1966), P.85
2 Reynold, A. **Nichols or Aliterary History of the Arabs** (cambridge, 1966), P. 129
3 A. Baugh, **A History of the English Language** (London, 1968) p 60 .

فترة متقدمة في دراسة اللغة الانكليزية وآدابها ، ويحتاج الباحث في هذه الفترة الى المام جيد باللغة الانكليزية القديمة Old English . وهي لغة تختلف اختلافا كبيرا عن الانكليزية الحديثة Modern English ، من حيث مفرداتها، ولفظها ، وقواعدها . وهي للقارىء الانكليزي المعاصر كاللغة الامانية ، لا يفهمها الا بعد دراسة خاصة . لقد عاشت هذه اللغة القديمة حتى جاء الغزو النورمندي Norman Conquest لانكلترا في عام ١٠٦٦ ، فكان لهذا الغزو اثر كبير على لغة البلاد . فتغيرت كثير من معالم هذه اللغة حتى استحقت تسمية جديدة هي اللغة الانكليزية الوسطى Middle English التي ظلت مستعملة في انكلترا حتى نهاية القرن الخامس عشر . ويعتبر القرن السادس عشر بداية اللغة الانكليزية الحديثة.
ان هذه التواريخ تستخدم ايضا في تقسيم الادب الانكليزى الى فترات متميزة . فيدعى ادب الفترة الاولى بالادب الانكليزي القديم ، وادب الفترة الثانيه بالادب الانكليزي المتوسط ، وادب الفترة الاخيره ، بالادب الانكليزي الحديث .

وثمة صعوبة تواجه دارس الادب الانكليزي القديم ، ولا سيما اذا اراد حصر بحثه في نطاق فترة معينة كما هي الحال في هذا المقال وتتمثل هذه الصعوبة في تحديد تواريخ المؤلفات الادبية تحديدا دقيقا ، ومعرفة كتاب هذه المؤلفات «١» . إن جميع ماجاءنا من الشعر الانكليزي القديم نجده في اربع مجاميع : المجموعة الاولى هي المخطوطات التي جمعها «كوتن» سير روبرت ، Sir Robert Coiton ، وهي في المتحف البريطاني الآن ، ومجموعة « اكستر » Exeter ، وقد اهداها الى كاتدرائية اكستر الاسقف «لوفريك» Leofric عام ١٠٥٠ ، ومجموعة « فيرجلي » Vercelli ، وقد وجدت في فيرجلي بالقرب من ميلان عام ١٥٢٢ ، ولم يفسر احد بشكل مقنع كيف وصلت هذه المجموعة الى ذلك المكان ، واخيرا المخطوطات

1- A Literary History England, ed. A. Baugh (London, 1967), p. 22

التي في مكتبة «بو دليان» Bodleian باوكسفورد، وهي التي اهداها الباحث الهولندي فرانسس دوجون «اوجونيوس» Francis Dujon «او جونيوس Gunius» الى ايرل اف ارندل Earl of Arundel . ان اكثر هذه المخطوطات تغفل اسم الشاعر وتاريخ نظم القصيدة والمكان الذي كتبت فيه . وحتى في الحالات التي يذكر فيها اسم الشاعر، فانه يبقى مجرد اسم ، لا نعرف شيئا عن الزمن الذي عاش فيه ولا عن المنطقة التي عاش فيها .

اذن . فالمعلومات المتوفرة لدينا عن ازمنة الاثار الادبية ومؤلفيها والاماكن التي تنسب اليها تخضع لكثير من الحدس والتخمين .

ولنعد الان الى الفترة التي نحن بصدد دراستها — ٨٠٠ الى ٨٥٠ م— ونلقي نظرة سريعة على بعض الحوادث المهمة التي سبقتها . لقد غزت الجزيرة البريطانية قبائل جرمانية اتت من شمال اوربا واواسطها وكانت هذه الغزوات على فترات متباعدة في بادىء الامر ثم ازدادت، واخذت القبائل الغازية تستوطن في الجزء الجنوبي من الجزيرة، وعلى الساحل الشرقي ، وكان ذلك في مستهل القرن الخامس الميلادي ، ويذكر مؤرخو ذلك العصر «١» ان اولئك الغزاة كانوا ينتمون الى ثلاث قبائل كبيرة هي : «الانكلس» Angles ، « والساكسونس » Saxons « والجوتس » Jutes . ولم تكن العلاقـة بين هؤلاء الغزاة والسكان الاصليين « الكلتس » Celts علاقة صداقة في بادىء الامر . اذ تشير كتب التاريخ الى حروب ومذابح وقعت بينهم ، ثم تتمدن هذه القبائل شيئا فشيئا ، وما ان يوشك القرن السابع على نهايته حتى نراها قد كونت دويلات صغيرة لبعضها لهجاتها المختلفة وادبها الخاص بها ، وإن كانت جميع هذه الدويلات تتكلم لغة واحدة هي الانكليزية القديمة — او كما يسميها البعض — الانكلوساكسونية

---

(١) انظر مثلا

1- Bede, Historia Ecclesiastica Gentis Anglorum, Trans. Leo Sherley – Price (Penyuin, 1968), P. 56 .

Anglo - saxon . واشهر هذه الدويلات –على ما يذكر المؤرخون– سبع هي : « نورث امبريا » North Umbria ، و « مرشيا » Mercia و « ايست انكليا » East Anglia و « كنت Kent ، و « ايسكس » Essex ، و « وسكسن » Sussex و « وسكس » Wessex . ثم يحل القرن التاسع ، فيظهر ملك قوى طموح ذكي في « وسكس » هو « اكبرت » Egbert « ٨٠٢–٨٣٩م » . ويحاول ضم بقية الدويلات الى مملكته ، فيتم له ذلك عام ٨٣٠م ، ويصبح « اكبرت » سيد انكلترا ، يدين له زعماء الدويلات الأخرى بالولاء . وهكذا، فقد اصبحت « وست ساكسون » –او وسكس –اقوى واكبر مملكة بين هذه الدويلات. ولقب هذه ملوكها انفسهم بملوك انكلترا. وقد بلغت هذه المملكة درجة كبيرة من الرخاء وانتشرت في ربوعها المعرفة انتشارا ملحوظا، وذلك في عهد الملك الفرد Alferd « ٨٧١–٨٩٩م » ، وسنتحدث عن هذا الملك العظيم عند الكلام عن النثر في القرن التاسع .

لوزار زائر من الشرق انكلترا في ايام ابي تمام لوجد الناس هناك يتكلمون لهجات كثيرة اهمها اربع هي لهجة « نورث امبريا » وموطنها شمال نهر «همبر» Humber ، ولهجة «ميرشيا» Mercia وموطنها بين نهر «همبر» ونهر «التمس» ، ولهجة «كنت» Kent في جنوب شرقي انكلترا ، ولهجة وست ساكسون او – وسكس – وموطنها في جنوب غربي انكلترا غير ان ما جاءنا من ادب هذه الفتره يكاد يكون كله بلهجة« وست ساكسون» اما الادب الذي كتب باللهجات الاخرى فقد فقد كله تقريباً ، ولم يبق منه سوى جزء يسير نجده مبعثراً هنا وهناك في المخطوطات التي وصلت الينا

لم يكن النصف الاول من القرن التاسع عهد سلام واستقرار في انكلترا اذ اخذت قبائل دانماركية تغزو الساحل الشرقي والجنوبي من الجزيرة البريطانية . وقد بدأت هذه الغزوات في نهاية القرن السابع ، وكان هوءلاء الغزاة وثنيين ، عملوا السيف في رقاب الناس واضرموا النار في

الاديرة ، وهي آنذاك منبع المعرفه. فحرقوا دير «لندزفيرن» Linds Farne وهو احد مراكز العلم والمعرفة — عام ٧٩٣م «١» . ونهبوا في العام التالي دير «جارو» Jarrow . وهو الدير الذي عاش فيه المؤرخ والكاتب الانكليزي «بيد» Bede صاحب الكتاب القيم «التاريخ الديني للانكليز» Historia Ecclesiastica Centis Argrorum. وهو كتاب فريد يكاد يكون المصدر الوحيد للفتره التي كتب عنها المؤلف «٢» . واستمرت هذه الحال في القرن التلي : اذ يشاهد المسافر في «نورث امبريا» و «ميرشيا» في القرن التاسع الكنائس والاديرة الخربة في كل مكان «٣» . ولعل جزءا كبيرا من ادب هاتين المنطقتين قد التهمته النيران ، او بقي تحت الانقاض فخسرناه. وهذا يفسر قلة ما وصلنا من لأدأب المكتوب بلهجات هذه المناطق من انكلترا .

يعتبر المؤرخون عام ٨٥٠م بنهاية المرحلة الاولى للغزوات الدانماركية. وقد ذكرت «الوقائع الانكلو ساكسونية» Anglo - Saxon Chronicle ان هذه الغزوات بدأت في ٧٨٧م واستمرت على فترات متقطعة وامتازت بالحرق والقتل والنهب ، وقد قامت بها جماعات صغيرة مستقلة بعضها عن بعض. ثم كانت المرحلة الثانية التي شاهدت عددا كبيرا من الدانماركيين ينزلون على سواحل انكلترا بسفنهم الكثيرة ، وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع ، وهي مرحلة شاهدت انتصار اولئك الغزاة واستيطانهم في مناطق كثيرة ، واستيفاء الجزية من اهل البلاد . غير انهم ، مع بسالتهم ومهارتهم في الحرب اندحروا اندحارا شنيعا امام رجال الملك «الفرد» عام ٧٧٨ ، وسلمت مملكة «وسكس» من شر هؤلاء الهمجيين وفيما عدا «وسكس» فقد سقطت جميع المناطق الاخرى بيد الدانماركين وسكنوها ، فدعيت هذه المناطق فيما بعد بـ «دينلو» Danelaw لقد ترك الدنماركيون الذين استوطنوا انكلترا اثرا مهما في اللغة الانكليزية. ويمكننا ان نكون بعض الفكرة عن اهمية هذا الاثر اذا علمنا ان ضمائر جمع الغائب ، وكذلك ضمائر الاشارة. They, them, their(s). this, that, these, those

1 Baugh, History, P.100

(٢) المصدر السابق (٣) المصدر السابق

المستعملة في الانكليزية الحديثة هي دانماركية الاصل، حلت محل الضمائر الانكلوساكسونية في هذه الفترة كما ان هناك عددا ملحوظا من المفردات الدانماركية دخلت الانكليزية آنذاك ولا تزال شائعة حتى يومنا هذا، منها، egg « بيضة » و scale « ميزان » و race « عنصر، عرق » و leg « ساق » و window « شباك » وغيرها من الكلمات المألوفة .

كثيرا ما تكون دراستنا لادب فترة معينة عن طريق دراسة ادباء تلك الفترة — ولا سيما الفطاحلة منهم—فاذا حاولنا تطبيق هذا الاسلوب على دراسة الشعر القديم وجدنا انفسنا امام معضلة كبيرة، وهي ان جميع ما وصلنا من هذا الشعر يكاد يكون بقلم شعراء مجهولين«١».ويستثنى من هذا الشاعر « كوني ولف » Cyne wulf فقد اعتاد هذا الشاعر ان يذيل قصائده بتوقعه مكتوبا بحروف « الرون » rune «٢».ولانعرف على وجه الدقة متى ولد هذا الشاعر ولا تاريخ وفاته ، بل كنا نجهل حتى اسمه منذ قرن واحد. اما الآن فالرأي السائد انه عاش في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع في مقاطعة « انكليا » وكتب ما لا يقل عن اربع قصائد في مواضيع دينية. وقد نسب بعضهم الى هذا الشاعر جميع ما جاءنا من الشعر المسيحي للعصر الانكلوساكسوني غير ان هذا مشكوك فيه .

ويتفق النقاد الآن ان « كوني ولف » هو الذى الف قصيدتي « جوليانا » Juliana و « ايلين » Elene وهما ترويان اسطورة القديستين. وهو كذلك مؤلف قصيدة « مصير الرسل » The Fates of the Apostles وهي تروي بايجاز مصير عدد من الرسل. اما القصيدة الرابعة فهي « المسيح » Crist ولعل « كوني ولف » كتب الجزء الثاني منها فقط . وتروي هذه القصيدة قصة ميلاد المسيح وصعوده الى السماء، ويوم الدنيونة وهي قصيدة غامضة مرتبكة معقدة. إن ابيات هذا الشاعر سلسة عذبة واسلوبه سهل طليق في القصائد التي

(1) **A Literary History of England, P. 70.**

(٢) الحروف التي كانت تستعمل في انكلترا قبل مجيء القبائل الجرمانية، استعملها كتاب الكليتك

تعتمد على الترجمة، او تلك التي يستمدها المؤلف من التاريخ. ولكن ابياته تأتي غامضة معقدة في القصائد التي لا تعتمد على الترجمة او التاريخ وهذا ما نلاحظه في قصيدة « ايلين » .

يغلب الطابع الديني على عدد كبير من قصائد الشعر الانكليزي القديم. ثم إن جزءاً كبيراً من هذا الادب مكتوب باللاتينية. غير ان اعظم ملحمة في هذا الادب ليست دينية في موضوعها وان كانت تحوى على عناصر دينية وتدعى هذه الملحمة « بيولف » Beowulf

إن ملحمة « بيولف » لا تدخل في دراستنا هنا،اذ انها جاءت الى انكلترا مع الغزاة الجرمانيين قبل نحو قرنين ونصف من العصر الذي نحن بصدده. وظل يغنيها شاعر البلاط في الولائم والمناسبات حتى عام ٧٠٠م. وفي وقت ما بعد هذا التاريخ، وفي مكان ما في انكلترا، دونت هذه الملحمة العظيمة باللغة الانكليزية القديمة. ولا يعرف من قام بكتابتها، غير انه من المرجح ان يكون احد رجال الدين، حيث انه ادخل شيئا من العناصر الدينية في هذه الملحمة التي تروي قصة حياة القبائل الجرمانية يوم كانت تعيش في القارة الاوربية، اي قبل مجيئها الى انكلترا. اما القصيدة بشكلها الحاضر فقد دونت حوالي عام ١٠٠٠م. إن هذه الملحمة تروي في ظاهرها قصة الصراع بين البطل الفاضل والملك المثالي «بيولف» وبين الوحوش ، ولكن لها معنى اعمق هو الصراع بين قوى الخير وقوى الشر .

يعتبر النقاد القرن التاسع بداية النثر الادبي، غير ان هذه البداية تأخرت بعض الوقت عن النصف الاول من ذلك القرن. اذ يقول النقاد ان هذا النوع من الادب بدأ في عصر الملك «الفرد» الذي سبق الاشارة اليه . ولد هذا الملك العظيم بعد نحو ثلاث سنوات من وفاة ابي تمام ،وترعرع في مملكة وسكس وشب مع حب العلم والادب. وقد تولى مقاليد الحكم في عام ٨٧١م والبلاد يهددها الغزاة الدانماركيون ويعيثون فيها فسادا. فدمر الاعداء بعد معارك كثيرة ضارية، ومع انشغاله بالحروب فقد وجد متسعا من الوقت

قضاه في طلب المعرفة. اذ رأى ان العلم والادب في انكلترا في حالة يرثى لها، فهو يقول في مقدمة ترجمة «كيوراباستورالس» Cura Pastoralis «١»:

«كثيرا ما اتذكر الماضي » ما اسعد تلك الايام حين كانت انكلترا تزخر بالعلماء، والسلام يعم المملكة، والنجاح حليف ملوك هذه البلاد في الحرب وفي كسب الحكمة. وكان رجال الدين تواقين الى العلم والمعرفة والى تأدية كل الخدمات التي فرضها عليهم الله عز جلاله. وكان طلاب العلم يأتون من خارج البلاد يبغون المعرفة هنا، ولم يكن اهل البلاد بحاجة الى السفر الى الخارج طلبا للعلم. كيف تدهورت الاحوال في هذه المملكة تدهورا كبيرا حتى ان قليلا من الناس ممن في جنوب «همبر» «٢» يستطيعون قراءة الانكليزية وفهمها والترجمة من اللاتينية اليها، ولا اعتقد ان في شمال «همبر» عددا كبيرا من الناس يستطيعون ذلك. كما لا اظن ان في جنوب «التمس» احدا يملك هذه المعرفة منذ ان توليت الحكم، ويعلم الله عز وجل انه ليس بيننا عالم واحد، لذا فآني امركم– ولا اخال الا انكم تفعلون ما اقوله– ان تحصلوا من معرفة الدنيا التي تجهلونها، وان تكسبوا من حكمة الله تعالى التي جعلها في هذه الارض، كلما استطعتم الى ذلك سبيلا...» «٣»

لقد شخص هذا الملك الداء الذي اصاب بلاده وعرف الدواء. فهو يقول في مكان اخر من هذه المقدمة: ان الناس لا يفهمون الكتب لانها ليست بلغتهم. لذا فقد اقدم على خطوة بسيطة ولكنها ثورية « ٤ » فعزم ان يكتب بالانكليزية وان يترجم عددا من مصادر المعرفة من اللاتينية الى الانكليزية وقد قام بذلك فعلا. فالى هذا الملك او الى تشجيعه يعود الفضل في ترجمة الكتب اللاتينة التالية: «كيوراباستورالس» للبابا كريكوري، و«تاريخ العالم» History of the World لـ«اوروسيوس» Orosius، و«عزاء الفلسفة»

---

(١) الفهها البابا كريكوري العظيم Pope Gregory The great

(٢) نهر في شمال انكلترا

(٣) Sweet Anglo-Sxxon Reader,,ed. Dorothy white tock (Oxford, 1967), PP.4–5

(٤) Lilerary History of England, P.96.

De Consolatione Philosophiae لـ«باوثيوس» Boethins و«التاريخ الديني للانكليز» لـ «بير». وهكذا فقد اراد الملك ألفرد ان يقدم كل ما يملكه من المعرفة الى ابناء شعبه. ولعله كان يعتقد ان الخلود يأتي عن طريق العلم والمعرفة وليس عن طريق الجلوس على العرش. فهو يقول عند ترجمته لكتاب «باوثيوس»

رغبت في عمل امرن به قابلياتي لئلا تندثر مواهبي وطاقتي ويواريها النسيان. فكل موهبة طيبة وكل طاقة سرعان ما تهرم وتختفي عن الاسماع ان لم تدخل اليها الحكمة... واوجز فاقول كنت دائما اريد ان اعيش بشرف ما دمت على قيد الحياة، وبعد مماتي اترك للذين يأتون من بعدي ذكراي في الاعمال الطيبة »«١» .

ما اشبه هذا الملك في حبه للعلم والمعرفة بالخليفة المأمون الذي سبقه بنحو نصف قرن.

وقد نتج عن اهتمام الملك الفرد بالانكليزية والكتابة بها ميلاد النثر الادبي الانكليزي. اما ما كتب نثرا قبل هذه الفترة فيكاد يكون كله باللاتينية. وهناك جزء يسير من النثر مكتوب بالانكليزية نجده في بعض القوانين والوقائع التاريخية، غير انه لا يستحق اسم النثر الادبي. «٢» حقا ان النثر الذي كتبه الفرد كثيرا ما يكون ترجمة حرفية عن اللاتينية، له اسلوب معقد ركيك، ولكن يجب ان نتذكر انه هو الذي بدأ هذا النوع من الادب ومهد السبيل لمن جاء بعده

قلنا: ان اللغة الانكليزية في هذه الفترة تدعى باللغة الانكليزية القديمة. وقد تطورت عن الساكسونية القديمة التي اتت بها القبائل الجرمانية في القرن الخامس الميلادي. واللغة الانكليزية القديمة تشبه اللغة العربية في ناحية واحدة، هي انها لغة تركيبية Synthetic تبين وظيفة الكلمة في الجملة عن طريق تغيير اواخر الكلمات — اي الاعراب — وهي بهذا تختلف عن الانكليزية الحديثة التي قلما تتغير اواخر الكلمات فيها؛ بل تبين وظيفة الكلمة في الجملة عن طريق ترتيبها وموقعها في الجملة. وتسمى اللغة التي من هذا

---

(١) النص الانكليزي في
E–Legouis, Ashort History of English Literature (Oxford, 1968) **P.14**
(2) Legouis, P. 13.

النوع باللغة التحليلية Analytic .

اما مفردات الانكليزية القديمة فتكاد تكون كلها من اصل انكلوساكسوني ولم يبق من هذه المفردات في الانكليزية الحديثة الا ١٥ ٪ من الاصل «١». ثم اختلاف في لفظ الحروف بين الانكليزية القديمة والانكليزية الحديثة ولا سيما في حروف العلة ذات النطق الطويل مثل: (A) وقد تطورت في الانكليزية الحديثة الى (O) في بعض الكلمات مثل : bone - ban «عظم». وتطور حرف (i) الى (ai) وهو صوت طويل ، كما في right - riht «حق» وهكذا. اما حروف العلة القصيرة فلم تتغير كثيرا. وهذا يصح على الحروف الصحيحة Consonants ايضا « عدا ان الانكليزية القديمة» كان لها حرف او حرفان لا نجدهما في الانكليزية الحديثة مثل الحرف القريب من «خاء» العربية وكان يكتب (h) كما في كلمة leoht «ضوء» و riht «حق». وكانت الانكليزية القديمة تكتب (sc) لتعبر عن الصوت (sh) . وتميز بين th في thin و then فتكتب الصوت الاول (O) والصوت الثاني (J) . اما املاء الكلمات فلم يكن قد استقر بعد. فكان الكتاب يختلفون فيما بينهم في كتابة الكلمة الواحدة. بل ان الكاتب الواحد كان في بعض الاحيان يكتب الكلمة باشكال مختلفة. فضمير جمع الغائب مثلا نراه يكتب على عدة اشكال منها hee , he , hi , hy , hie وهذا مما يزيد في صعوبة الانكليزية القديمة.

اما قواعد هذه اللغة فكانت معقدة تشبه في بعض النواحي قواعد اللغة العربية. فكان للاسم اربعة او خمسة مواقع لاعراب المفرد، للجمع مثلها. وكانت الصفات تعرب كالاسماء؛ ولها في ذلك اسلوبان : اسلوب يسمى بالضعيف Weak ويستعمل في الصفات المعرفة. واخر يدعى بالقوي Strong ، ويستخدم في الصفات غير المعرفة. وكانت الاسماء على ثلاثة انواع هي: المذكر والمؤنث والجماد. ولم يكن التمييز بين هذه الاجناس

(1) Baugh, History, P. 63

يعتمد على المنطق Logicelgunder بل على القواعد Grammatical-Gender. فكلمة Stan «حجر» مثلا مذكر، وكلمة Wif man «امرأة» مذكر وكلمة Magden «فتاة» جماد. وكانت اداة التعريف تختلف باختلاف جنس الكلمة وعددها من حيث انها مفرد او جمع.

اما الضمائر فكان لها ضمير المثنى — كالعربية — فضلا عن ضمير المفرد وضمير الجمع. وكانت هذه الضمائر كالاسماء لها اربعة او خمسة مواضع اعراب. اما الافعال فلها ايضا قواعد صرف معقدة. وهي تقسم عادة الى سبع صيغ اساسية، تختلف كل صيغة في صرفها عن الاخرى، وثم صيغ اخرى ثانوية.

لقد تخلصت الانكليزية من كثير من هذا التعقيد بعد الغزو النورمندي، واستقرت بشكلها الحاضر بعد القرن الخامس عشر. وقد تأثرت اللغة الانكليزية خلال سيرها الطويل منذ القرن التاسع حتى هذا اليوم بلغات كثيرة. اهمها اللاتينية والفرنسية والدانماركية والاغريقية والايطالية والالمانية والهندية والفارسية والعربية وغيرها من اللغات.

ولعل من الطريف ان نذكر هنا ان اقدم اثر للغة العربية في اللغة الانكليزية جاء في القرن التاسع، وفي نثر الملك الفرد نفسه. فقد وردت كلمة Nancessa في موضع اخر من مقدمة « كيورا باستورالس » التي ذكرناها والكلمة هذه مشتقة من الكلمة العربية «منقوش». وقد وردت بصيغتها اللاتينية Mancus في كثير من الوثائق التي كتبت في فرنسا وايطاليا واسبانيا واطلقت في احدى وثائق Du Cange «دوكانجي» على نوع من الحلى التي كانت تلبسه المرأة آنذاك. «١» ثم دخلت الكلمة الانكليزية القديمة واطلقت على عملة يقارب ثمنها ٣٠ شلنا «٢».

---

(1) O E D, s. v. manals.

للاستاذ عبد المنعم رشاد رأي اخر في اصل هذه الكلمة. فهو يرى ان اصلها (المنقوص) نوع من العمله كان مستعملا في البلاد العربية آنذاك.

(٢) ٣ شلنات بالعملة الانكليزية الحديثة (بعد عام ١٩٧٠).

واغلب الظن ان الكلمة العربية دخلت اللاتينية عن طريق التجارة «١» او الترجمة . وبقيت هذه الكلمة مستعملة في الانكليزية حتى بطل استعمال هذا النوع من النقود ، فانقرضت الكلمة على اثر ذلك .

ولعل من المفيد ان نختم هذا المقال بعقد موازنة قصيرة بين الانكليزية وآدابها واللغة العربية وآدابها في النصف الاول من القرن التاسع الميلادي .
يظهر مما ذكرناه في اعلاه ان الشعر الانكليزي في تلك الفترة كان لايزال في بدايته . فقد كانت اوزانه محدودة ، بل كان له وزن واحد هو ما يسمى عليه بقافية الابتداء Alliteraltion ؛ اي ان تبدأ بعض الكلمات من الصدر والعجز بحرف واحد . وكان هذا الشعر خشن النغمة تطغى الحروف الصحيحة ، وتنقصه الرقة والسلاسة والنغمة الموسيقية التي ادخلها اليه النورمانديون بعد الغزو «١٠٦٦م» . اما الشعر العربي فكان قد بلغ شوطا طويلا في تقدمه واكتسب ثروة طائلة تضم الشعر الجاهلي بمعلقاته الجميلة والشعر الاموي وشعر العصر العباسي الاول . وقد تكاملت اوزان هذا الشعر ودرست «درسها الخليل بن احمد الذي توفي عام ٧٩١م » .
اما فيما يتعلق بالفترة التي نحن بصدد دراستها ، فيكفي ان نذكر ثلاثة من شعرائها البارزين هم : ابو نواس «توفي عام ٨١٠م» وابو العتاهية «توفي٨٢٨م» وابو تمام . كي نقدر البون الشاسع بين مابلغه الشعر العربي وما كان عليه الشعر الانكليزي .

لا نجد في النصف الاول من القرن التاسع نثرا أدبياً في الانكليزية،اذ بدأ هذا النثر في النصف الثاني من ذلك القرن — كما ذكرنا في اعلاه — على يد الملك الفرد والادباء الذين استقوا وحيهم منه . وكان هذا النثر يتصف بكثير من الركاكة والتكلف نتيجة تأثره باللاتينية .
ثم شاهد بعض التطور في القرن التالي ، حتى جاء الغزو النورماندي فاصيب بنكسة كبيرة ، لم يستطع ان يتخلص منها تماما الا في مستهل العصور الحديثة

(١) لاحظ Nicholson, P. 281

اي بعد القرن الخامس عشر .

اما النثر الادبي الجيد فلا نجده الا بعد القرن السادس عشر ، اي بعد عصر شكسبير «١٥٦٤–١٦١٦م». ماذا عن النثر الادبي في العربية؟ لقد ظهر هذا النثر قبل النثر الادبي الانكليزي، اذ يقول الاستاذ «كب» ان اقدم ما جاءنا من النثر الادبي في العربية يعود الى النصف الاول من القرن الثامن. ويتمثل في ثلاث رسائل الفها عبد الحميد بن يحي «توفي في ٧٥٠ م » «١». وقد تطور هذا اللون من الادب على يد ابن المقفع «توفي في ٧٥٧م» . ثم «شاعت صناعة الورق في بغداد حوالي عام ٨٠٠ م » «٢» . فأتيحت للمؤلفات النثرية فرصة طيبة. وبلغ النثر درجة ملحوظة من التقدم في القرن التاسع على يد الجاحظ «توفي في ٨٦٩م» وابن قتيبة «توفي في ٨٨٩م» وغيرهما من الكتاب ، في حين كان النثر الانكليزي ما زال في طفولته ضعيفا يتعثر في سيره. ثم ظل النثر العربي يتطور ويكسب كثيرا من عناصر القوة مدة من الزمن؛ تدهوره حتى كان بمجيء الحكم المغولي والحكم العثماني«٣». ويصادف هذا التدهور بداية ظهور النثر الانكليزي الجيد.

يرتبط تقدم الشعر والنثر– ولا سيما النثر – ارتباطا وثيقا بتقدم اللغة اما اللغة الانكليزية في النصف الاول من القرن التاسع فكانت لا تزال في بدء تكوينها ينقصها كثير من مقومات النضوج والكمال. فهي معقدة اذا قورنت بالانكليزية الحديثة. وظلت اكبر عثرة في طريق تقدم هذه اللغة هي اللغة اللاتينية ، لغة المثقفين في جميع اوربا آنذاك. وبعد الغزو النورماندي دخلت انكلترا لغة اخرى هي الفرنسية، واستعملت في البلاط والجهات الرسمية والمدارس وكانت لغة الطبقة العليا. فاصبحت لزاما على الانكليزية ان تتنافس مع الفرنسية فضلا عن اللاتينية، ولم يتم لها النصر على الفرنسية الا في نهاية القرن الرابع عشر. اما صراعها مع اللاتينية فكان اشد واطول وقد

---

(1) Gibb,P . 15

(٢) المصدر السابق .

(3) Gibb, P. 155

استمر حتى القرن السادس عشر . فهذا سير توماس مور Sir Thomas More « ١٤٧٨ — ١٥٣٥م » يؤلف اهم كتبه —يوتوبيا utopia —باللاتينية . وهذا فرانسس بيكن Francs Bacan «١٥٥٤— ١٦٢٦» يقول ان الانكليزية ستفشل في يوم من الايام كاداة للتعبير عن الامور الخطيرة ، لذا فقد كتب مؤلفاته الفلسفية باللاتينية. ولم تكتسب الانكليزية ثقة جميع المثقفين في انكلترا ، وتثبت اقدامها ويعقد لها النصر نهائيا الا بعد عصر النهضة الاوربية اي في القرن السادس عشر. وعبثا نحاول أن نجد كتابا عن قواعد النحو والصرف والبلاغة لهذه اللغة كتب قبل القرن السادس عشر. اذا، فبين النصف الاول من القرن التاسع و القرن السادس عشر طريقة شاقة كان على الانكليزية ان تقطعها قبل ان تستكمل مقوماتها اللغوية وتظهر بشكلها الحاضر. ولننظر الآن الى اللغة العربية في النصف الاول من القرن التاسع الميلادي نجد ان هذه اللغة قد تكاملت مقوماتها ، وبلغت دراسة فقه اللغة والنحو والصرف درجة عالية. فقد ازدهرت مدرسة البصرة والكوفة وقدمت هاتان المدرستان مادة لغوية قيمة. ويكفي ان نذكر ان سيبويه «توفي في ٧٩١م» قد الف كتابه قبل هذه الفترة؛ وهو الكتاب الذي لا يزال يدرس حتى يومنا هذا .

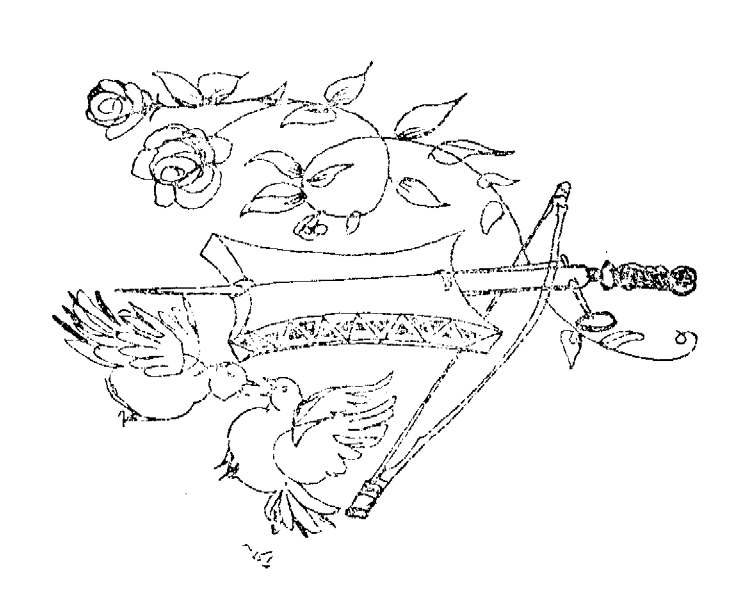
ويصح ما قلناه عن اللغة وادابها على فروع المعرفة الاخرى: كالفلسفة والتاريخ والرياضيات والطب. فهذا الفيلسوف الكندي «توفي في ٨٥٠م» يؤلف اكثر من ٢٦٥ رسالة في مختلف العلوم من موسيقى وفلك ورياضيات وطب وعلم الاخلاق والمنطق وعلم ما وراء الطبيعة «١» . ويبرز في الرياضيات اسم الخوارزمي «توفي في ٨٤٤م» وقد ترجمت كثير من مؤلفاته في الجبر والفلك الى اللاتينية وعنه اخذت اوربا اللوغرتمات «٢» . واشتهر في الطب ابن ماسويه «توفي في ٨٥٩». ونذكر من مؤرخي القرن التاسع البلاذري

(1) Gibb., P.65

(٢) المصدر السابق Gibb.,

«توفي في ٨٩٢م» واليعقوبي «توفي في ٨٩١م» والمؤرخ الكبير الطبري الذي ولد في هذا القرن «٨٣٩م» وعاش حتى الربع الاول من القرن العاشر «٩٢٣م».
هذه اسماء بعض من برزوا في ميادين المعرفة المختلفة في القرن التاسع. فاذا حاولنا ان نبحث في تاريخ انكلترا لهذه الفترة عن اسماء تضاهي تلك التي ذكرناها باءت مساعينا بالفشل.

يتضح من كل هذا ان القرن التاسع يعتبر اول الطريق بالنسبة للانكليزية وادابها، في حين انه كان عصرا ذهبيا «١» بالنسبة للعربية وادابها.



(1) Nicholson,xxx ; Gibb, PP 48

ut it is inferior to that of Abū-Tammām.[10]

MOUFID M. NOURI, Ph.D.(EDINBURGH)

HISTORY DEPARTMENT,

COLLEGE OF ARTS,

UNIVERSITY OF MOSUL.

---

10 About Abū-Tammām's works see: Ibn-al-ʿImād, shadharāt ad-Dhahab, II, 73; Ibn-Khallikān, wafayāt-aʿyān, I, 151; Az-Zarkalī, Khayr-ad-dīn, al-Aʿlām,(Damascus 1954-59) II, 171; also see, Nouri, The scholars of Nishapur, 123-24; Ritter, Ency. of Islām, 2nd ed. art., "Abū-Tammām" Nicholson, A literary history of the Arabs, 129-30; Brockelmann, Geschichte, I,83-84; Ibid., Geschichte, supp., I, 134-137.

d/ 'The chapter of love-songs' (Bābu'l-nasīb)

e/ 'The chapter of satire' (Bābu'l-hijā')

f/ 'The chapter of guests and panegyric' (Bābu'l adyāf wa'l-madīh)

g/ 'The chapter of description' (Bābu'l-Ṣifāt)

h/ 'The chapter of travel and repose' (Bābu'l-sayr wa'l nu'ās)

i/ 'The chapter of faceties' (Bābu'l-mulah)

j/ 'The chapter of vituperation of women' (Bābu'l-mudhammati'n-nisā')

5. Ikhtiyār al-Muqaṭṭa'āt, which consists of a selection of love poems.

6. Selections from modern poets.

The most important of Abū-Tammām's work is the Ḥamāsa, which deals with different political subjects and with a great number of poets and poetical works from pre-Islamic down to the 'Abbasid times. A similar collection of the Ḥamasa poems was also made by Abū-Tammām's contemporary, al-Buḥturī, who was also a court poet,

4. The commentary of al-Mubārak Aḥmad al-Arbīlī which is entitled Sharḥ al-Mushakal min dīwān Abī-T. mām.

5. The commentary of Dr. M.I. al-Aswad which is entitled Badr at-Tammām fī sharḥ dīwān Abī-Tammām. Yet the basic commentaries of all are those of aṣ-Ṣūlī and of at-Tabrīzī.

Abū-Tammām was one of the great authors of his time. He was a volumentary author and made a great study of the former poets and this enabled him to collect and compose six anthologies:

1. Ikhtiyār qabā'ilī, (the greatest), selections of verses from tribal days.

2. Ikhtiyār qabā'ilī, selections of verses of tribal days from little known poets.

3. Ikhtiyār shu'arā' al-Fuḥūl, selection of verses from master poets of pre-Islamic and Islamic period.

4. Al-Ḥamāsa. The work is divided into ten chapters which bear the following titles:

a/ 'The chapter of fortitude' (Bābu'l-ḥamāsa)

b/ 'The chapter of Dirges' (Bābu'l-marāthī)

c/ 'The chapter of Good manners' (Bābu'l-adab)

dīwān contains some devotional poems, besides the encomiums on the poet's various patrons, laments on their deaths and satires on his enemies, but the most important are the poems which are of historical value such as the ones which describe the great campaign against Amorium, the defeat and the execution of the heretic Bābak al-Khurranī, and the execution of the general al-Afshīn. The Dīwān of Abū-Tammām was arranged in alphabetical order by Abū-Bakr aṣ-Ṣūlī, and afterwards arranged in order of subjects by ʿAlī ibn-Ḥamza al-Isbahānī. Other copied of Abū-Tammam's Dīwān were also handed down to us by Abū-ʿAlī al-Fārisī and as-Sukkarī. Several commentaries were handed down to us; the most famous of which are :

I. The commentary of Abū-Bakr aṣ-Ṣūlī which is entitled Akhbar Abī-Tammām ; probably it is an abridged version of that of at-Tabrizī.

2. The commentary of Aḥmad ibn-Muḥammad al-Marzūqī which is entitled Sharḥ al-abyāt al-mushakala min shiʿr Abī-Tammām.

3. The commentary of at-Tabrizī, simply entitled Sharḥ at-Tabrīzī.

visited Ḥūrān and Ḥimṣ and kept in touch with the court of al-Muʿtaṣim in Sāmarra. At the last period of his life, he retired in Mosul, where the governor of the city who was his close friend found him the position of post mastership of the city which was a most confidential position. He died in the 2nd of Muḥarram 232/29th August 845 and was buried outside Midān Square on the edge of the trench which surrounded the city of Mosul. The tomb of the poet was reconstructed by the notable Abū-Nashshal aṭ-Ṭūsī who erected a dome on the tomb. Recently his remains was removed and buried in one of the public parks; and the great monument[9] is one of the attractions of the city.

II. Works:

Abū-Tammām was noted as one of the most distinguished poets of the ʿAbbāsid court. He was noted by his biographers as the poet of al-Muʿtaṣim. He is said to have surpassed his contemporaries in purity of style, in intrinsic merit of his work and in the excellence of the way in which he treats a subject. His collection of poems

---

9 Ṣūlī, Akhbār Abī-Tammām, 273; Ibn-Khallikān Wafayāt., I, 153; Ibn al-Imād, Shadharāt., II, 72.

The governor welcomed him with rich gifts and became one of his favourite companions. It is said that during his stay in Nishapur he met and praised notable commanders such as Ḥaydar ibn-Kāmis known by the title al-Afshīn and Abū-Sa'īd Muḥammad ibn-Yūsuf ath-Thaghrī. He left Khurasan in 222/837.[8] On his way back to Iraq he was delayed at Hamadān by a snow storm. He made the acquaintance of the learned Abū'l-Wafā' ibn-Salama, who offered him the use of his library and the poet made good use of his time by composing the most celebrated anthology of his time the Ḥamāsa. Afterwards, he left for Sāmarra, where he was welcomed in the court of the caliph al-Mu'taṣim and the official personnel of the State. Between the years 225/840 and 229/844 Abū-Tammām

---

8 Ṣūlī, Akhbār Abī-Tammām, 211-26; al-Marzubānī al-Muwashshaḥ, 325-26; Tabrizī, al-Khaṭīb Yaḥya, Sharḥ dīwān Abū-Tammām (Cairo 1951-57) I,244-55; Ibn-Manḍūr, Mukhtār al-Aghānī, (Cairo 19[illegible] III, 244-343; Iṣbahānī, al-Aghānī, XVI,383-399; al-Khuḍarī, Muḥammad, Muhadhdhab al-Aghānī (Cairo n.d.) VII, 159; cf. Haddāra, Mushkilat as-Sariqāt al-adabiya, (Cairo 1958) 49-50; ar-Rabdāwī,Maḥmūd, al-Haraka an-Naqdiyya Hawla Madhhab Abī-Tammām,(Beirut 1967) 22-24; Farrūkh, Abū-Tammām, 31; Ṭā'ī, Abū-Tammām aṭ-Ṭā'ī, 85-88; Bahbītī, Abū-Tammām aṭ-Ṭā'ī, 118,131; Nouri, The Scholars of Nishapur, Thesis (Edinburgh 1967) 117-18, 121-25. Ritter, Ency. of Islam, 2nd. ed. art. "Abū-Tammām".

the poems qasīdas which were presented by the poets in order to be sung in the presence of the governor of Khurasan. But when Abū-Tammām presented his poem, it was rejected by both Abū'l-ʻAmaythal and Abū-Saʻīd ad-Ḍarīr who classified it among the ordinary poems. One of the reasons for the rejection of the poem is that Abū-Tammām used some verses of Qur'ān not suitable for the occasion. It is said that Abū-Saʻīd ad-Ḍarīr hated Abū-Tammām and therefore he classified the poem among the rejected ones. However Abū-Tammām failed at first to attract the attention of the governor and stayed away from the court spending most of his time in the house of an attractive harlot. But at last, he managed to obtain an audience through Abū'l-ʻAmaythal, who played as mediator between the governor and Abū-Tammām.

---

7 Abū-Saʻīd, Aḥmad ibn-Khālid ad-Ḍarīr, was a wealthy scholar from Baghdad and one of the regular attendants at the Court of the ʻAbbāsid Caliph al-Ma'mūn. When ʻAbd-Allāh ibn-Ṭāhir became governor of Khurasan, the caliph awarded him with a number of learned men. He became noted as the transmitter rāwī of the famous poet al-Aʻrābī and became the most distinguished scholar in the court of the governor ʻAbd-Allāh ibn-Ṭāhir. He died in 280/895; see, as-Sayūṭī, Jalāl-ad-dīn, Bughgat al-wuʻāt (Cairo 1964),I, 305, al-Marzubānī, Abū-ʻUbayd, al-Muwashshah,(Cairo 1343 A.H.) 1325; Ṣafadī Ṣalāḥ, Nakī al-himyān, (Cairo 1911) 96-98; Yāqūt, Irshād al-Arīb, (London 1907), 118-23.

companion on his famous expedition against Amorium in 223/838. Abū-Tammām also enjoyed the favour of al-Mu'taṣim's son, Aḥmad, and the Caliph's other son and successor al-Wāthiq and other eminent men, to whom he dedicated many of his poems.[5] The increasing fame of the governor of Khurasan 'Abd-Allāh ibn-Ṭāhir attracted the poet. He came to Nishapur, but he was disappointed by the cold reception he received from the governor and from the learned men of his court. Abū-Tammām's biographers remark on the treatment which he received in Nishapur from the scholars Abū'l-'Amaythal al-A'rābī[6] and Abū-Sa'īd aḍ-Ḍarīr [7], who wer ...arge of the governor's library and also in charge of evaluating

---

5 Ṣūlī, Akhbār Abī-Tammām, 143-4. Bahbītī, Abū-Tammām aṭ-Ṭā'ī, 103-116.

6 Abū'-l-'Amaythal, 'Abd-Allāh ibn-Khulayd al-A'rābī was a scholar of Persian descent, a native of Rayy. He received the title al-A'rābī because he lived and was educated among the desert Arabs. He became attached to the court of the Ṭāhirid governors in Marw then in Nishapur. Abū'l-'Amaythal was a poet and a man of letters. He wrote an excellent work on Arabic literature, which is extant under the litle "al-Kitāb al-Ma'thūr". He died in 240/854; see, Ibn-an-Nadīm, al-Fihrist, (Cairo 1348/1930), 72-3; Abū'l-'Amaythal, al-Ma'thūr, London 1925), 5-8; Brockelmann, Geschichte, supp., I, 105.

first by selling water in the Great Mosque and where he found an opportunity to make further study of Arabic poetry and its rules. It was most probably in Egypt that Abū-Tammām established his reputation as a poet and composed his first poem about the tax collector ʻAyyāsh ibn-Lahīʻa.[4] From Egypt he returned to Syria probably after the year 216-215/830 expecting to be admitted to the court of the caliph al-Ma'mūn, to await on him, but the Caliph disliked the Bedouin style of the poem which he offered him and refused to grant him an audience. Abū-Tammām went to Mosul and from thence he travelled into Armenia where rich gifts from the governor Khālid ibn-Yazīd, awaited him. On the death of al-Ma'mūn in 218/833, he came to Baghdad, where he was received and favoured by the Caliph al-Muʻtaṣim, and met with great success at his court. At this stage of his life, Abū-Tammām rose to fame and the Caliph took him as a

---

most of his poetical works were laments on the Imam al-Ḥusayn. He died in 235/849: Farrūkh, Abū-Tammām, 25.

4 Ibn-Khallikān, wafayāt., I, 151; Ṣūlī, Akhbār-Abī Tammām, 121; cf. Bahbītī, Abū-Tammām al-Ṭā'ī, 62-90; Farrūkh, Abū-Tammām, 26-30; Ṭā'ī, Abū-Tammām at-Ṭā'ī, 75-76.

named Tadūs or Thādhūs (Thaddeus, Theodosin?), for which name the son, when he became a muslim, substituted the Arabic Aws, and attached to himself the title (nisba) of the Ṭayy'ite tribe.[2] Abū-Tammām was a great traveller. In his youth, his family moved to Damascus where his father kept a wine-shop, and he worked as a weaver's assistant. From thence his family went to Ḥimṣ, where Abū-Tammām started his poetical career by studying the art of poetry under the famous Syrian poet Dīk al-Jinn and it is said that from his master, he learned the Shī'ite doctrine.[3] Subsequently Abū-Tammām went to Egypt in 208/823, where he lived at

2nd ed. (Cairo 1970), Farrūkh 'Umar, Abū-Tammām, (Beirut 1964); aṭ-Ṭā'ī, Kh, Abū-Tammām aṭ-Ṭā'ī (Baghdad 1966), Ḍayf Sh., Tā'rīkh al-adab al-'Arabī "al-'Asr al-'Abbāsī al-Awal" (Cairo 1969), 268-289.

2 Margoliouth, Ritter and Farrūkh indicated that his father, and probably the poet himself, was a christian, while Bahbītī and Ṭā'ī stress that the poet and the father were muslims and of pure Arabic descent; whether the poet was a christian or muslim, the most important thing is that he was of an Arabic family; see Margoliouth, Ency. of Islam, 1st ed. art. "Abū-Tammām"; Ritter, Ency. of Islam; 2nd ed. art. Abū-Tammām; Farrūkh, Abū-Tammām, 22-23; Bahbītī, Abū-Tammām aṭ-Ṭā'ī, 4-18, 49; aṭ-Ṭā'ī, Abū-Tammām aṭ-Ṭā'ī, 9-19.

3 Ibn-Khallikān, Wafayāt, I, 150; Ibn-al-'Imād, Shadharāt., II, 73; Dīk al-Jinn, Abd-as-Salām ibn-Raghbān, was a Syrian poet born in Hims 161/778,

I. Biography:

His name was Ḥabīb ibn-Aws,[1] a celebrated Arabic poet and anthologist in the golden prime of the 'Abbāsids. He was born in the second half of the second century of the Hejra, in either 188/804 or 190/806, in the small town of Jāsim, between Damascus and Tiberias. He was the son of a christian

---

1 Ḥabīb ibn-Aws ibn-al-Ḥarath ibn-Qays ibn-al-Ashajj ibn-Yaḥya ibn-Marwān ibn-Sa'd ibn-Kāhil ibn-'Amr ibn-'Adī ibn-'Amr ibn-al-Ghawth ibn-Ṭayy': see Ibn-Khallikān, Wafayāt al-a'yān,(Cairo 1310/1892) vol I, 150; Ibn-al-'Imād, Shadharāt adh-Dhahab,(Cairo 1350-51/1931-2)vol. II, 72: Aṣ-Ṣūlī,Abū-Bakr, Akhbār Abī-Tammām, ed. K.M. 'Asākir, M. Gazām, N. Hindī,(Cairo 1356/1937), 372; Iṣbahānī, Abū-Faraj, K.al-Aghānī,(Cairo 1963), 383;Sam'ānī,Abū-Sa'd,K.al-Ansāb, Facs. E.J.W.Gibb Memorial Series(London 1912, F.365 a; for further study of Abū-Tammām's biography, see the English works of : Margolieuth D.S.,Ency. of Islam, 1st ed. art., "Abū-Tammām"; Ritter von H.,op. cit., 2nd ed. art,"Abū-Tammām"; Brockelmann C., Geschichteder Arabischen Litteratur (Leiden 1943-49)I,83-4; Ibid, op.cit, Supplementände (Leiden 1937-42)I,134-37. Huart C., Arabic Literature,(London 1937)88-89;Nicholson R.A., "philologika XIII. Arabische Handschriften in Anatolien und Istanbul", Oriens,(1949) II,266-269; ibid, A literary history of the Arabs (London 1907),129-30; For Arabic texts see al-Bahbītī N.M.,Abū-Tammām at-Ṭā'ī,

Abū-Tammām : Biography and Works

BIBLIOGRAPHY

Arberry, A.J., Oriental Essays, New York, 1960.

Arberry, A.J., The Seven Odes, London, 1957.

de Meester, Marie E., Oriental Influences, Heidelberg, 1915.

Lyall, Charles J.,"Some Aspects of Ancient Arabic Poetry", Proceedings of the British Academy, 1917-1918, VIII.

Nicholson, Reynold, A., A Literary History of the Arabs, New York, 1907.

The Poetical Works of Wilfred Scawen Blunt, London, 1914.

The Works of Sir William Jones, ed. Lord Teignmouth, London, 1807.

elucidations; . . . they manifest a confidence, an originality and a certain unself-consciousness characteristic of all great art . . . . Translation robs them of the greater part of their artistic and emotive force, yet what remains over is by no means negligible, provided the translator abandons all attempts to press them into a prefabricated mould of committed prosody and stylized diction."[29]

---

[29] Ibid., p. 254.

and I said to the night, when it stretched
its lazy loins
followed by its fat buttocks, and
heaved off its heavy breast,
"Well now, you tedious night, ...[27]

In his study of the Seven Odes, Arberry raises a question: "Are the <u>Mu'allaqat</u> great poetry, as the Arabs would have us believe? If so, are they translatable in such a manner as to compel recognition of their greatness; or do they contain intrinsic difficulties defying adequate translation, so that they cannot ever command the attention readily accorded to Homer, Vergil, Dante? On the other hand, are they so flawed, in general composition or in particular detail, as to merit relegation to the status of the venerable but curious rather than beautiful?"[28] Arberry reaches a conclusion and says that "the <u>Mu'allaqat</u> are supremely fine poems judged by Arab standards. . . . They represent the climax of an artistic impulse whose origins are beyond our

---

[27] <u>The Seven Odes,</u> p.64.

[28] <u>Ibid.,</u> p. 246.

qually sensitive choice of words. The language at his isposal possesses a wealth of vocabulary and near-ynonyms, while, on the other hand, a single verb or djective bore numerous meanings,[26] so that its quivalent in foreign idiom is apt to be a phrase, and ometimes a lengthy one. Zoheir created the image of he pregnant camel in half a line of poetry which onsists of five words; it took Jones two prose lines o reproduce it; Lyall succeeded in recreating the mage in two rather lengthy phrases. The image of the isery of war and its fertility in destruction is conveyed o a Bedouin by the misery a too fertile camel feels. n Imr Al-Qais, a similar image occurs where the eaviness the poet feels is conveyed through the ength of the night and the movement of a camel. Here s Arberry's translation:

> Oft night like a sea swarming has
> dropped its curtains
> Over me, thick with multifarious cares,
> to try me,

[26] This linguistic characteristic was aided, perhaps, by the limitation and narrowness of Bedouin life and subject matter.

producing these patterns within the rigid and traditional framework of the original remains unsolved. The mechanics of a classical Arabic poem compels a poet to adhere not only to a unified rhythm, but to fashion also sixty or more two-part lines with the same combination of terminal consonant and vowel. This restriction is basic to any appreciation of Arabic poetry, and the realization of its vital function might intensify the translators awareness of his foredoomed failure to do justice to his original. A master poet in Arabic builds up each line from the first syllable so that the rhyme-word at its end is not merely appropriate but inevitable. The pleasure a native Arab feels at hearing such poetry can never be conveyed through translation.

The other difficulty that faces the translator is the reproducing the precision and compactness of the original language. The desert poet, gifted with keen power of observation, strove hard to match his visual and emotive detection of minute differences with an

War is a dire friend, as you have known
by experience; nor is this a new or a
doubtful assertion concerning her.
When you expelled her from your plains,
you expelled her covered with infamy;
but, when you kindled her flame,
she blazed and raged.
She ground you, as the mill grinds the corn
with its lower stone: like a female
camel she became pregnant; she
bore twice in one year; and at her
last labor, she was the mother
of twins.[24]

The same lines done by Lyalls in 1878:

And War is not aught but what ye know
well and have tasted oft:
not of her are the tales ye tell a doubtful
or idle thing.
When ye set her on foot, ye start her
with words or little praise;
but the mind for her grows with her
growth, till she bursts into
blazing flame.
She will grind you as grist of the mill
that falls on the skin beneath;
year by year shall her womb
conceive, and the fruit thereof
shall be twins.[25]

The immediate problem of recreating an equivalent pattern of thoughts and sound is admirably solved by Lyall, Nicholson and Arberry. But the problem of

---

[24] Works, X 49.

[25] Arberry, The Seven Odes, p.111

If thou are unable to repel the stroke
of death, allow me, before it comes
to enjoy the good, which I possess.[21]

And in Blunts' way:

You only revile me. Yet say, ye
philosophers,
was the same wealth eternal I
squandered in feasting you?
Could all you my fate hinder? Friends,
run we ahead of it,
rather our lives enjoying, since
Time will not wait for us.[22]

And in Nicholson's:

Canst thou make me immortal, O thou that
blamest me so
For haunting the battle and living the
pleasures that fly?
If thou hast not the power to ward me
from death, let me go
To meet him and scatter the wealth in my
hand, here I die.[23]

The "Moallaka" of Zoheir has been rendered into English by the same poets. Zoheir, in a role as a mediator, first delivered the poem at a peace conference. Here are three lines done by Jones in rhythmic prose:

---

21 Works, X, 32

22 The Poetical Works, p.87

23 A Literary History, p. 108

A white pale virgin pearl such lustre keeps,
Fed with clear water in untrodden deeps.
Half-turned away, a slant soft cheek, and eye
Of timid antelope with fawn close by,
She lets appear.[20]

In this attempt, similar to FitzGerald's free rendering of the "Rubaiyat", the translator does not literally follow the original yet produces a version where the freshness of an uninhibited nature is retained.

Certain pieces of Arabic poetry, which survived, have been composed on the spur of the moment. Tarafa Ibn El-Abd was such a poet, and his "Moallaka" is marked by casualness and swiftness which does not leave room for close connections between the movements of the poem. Tarafa was killed when he was twenty-six, yet his poem had the honor to be suspended on the walls of Ka'aba. Here are three versions of two lines from Tarafa's "Moallak":

In Jones' way:

> O thou, who censurest me for engaging
> in combats and pursuing pleasures, wilt
> thou, if I avoid them, insure my
> immortality?

---

[20] Nicholson, A Literary History, p. 106

the verse to contract or to interpolate".[19] The highly idiomatic and condensed language of the Moallakat might have sounded colloquial to a Bedouin, but Arberry's translation does not strike the modern reader as such. His is a direct, precise, vivid, and vigorous twentieth century version, but the little-used words and compound disturb the smoothness of the original.

R.A. Nicholson, who remarked of Imr al-Qais that "his daring images and exquisitely worded pictures of life in the desert set the translator a hard task, whic the state of the text only makes harder", chose an earl scene for his attempt in which rhyme is retained but rhythm abandoned.

> How many a noble tent hath oped its treasure
> To me, and I have ta'en my full of pleasure,
> Passing the warders who with eager speed
> Had slain me, if they might but hush the deed,
> What time in heaven the Pleides unfold
> A belt of orient gems distinct with gold !
> I entered . . . .
>
> Fair in her colour, splendid in her grace,
> Her bosom smooth as mirror's polished face:

---

19 Ibid., p. 60.

the wildest beasts at evening drowned in the
furthest reaches
of the wide watercourse lay like drawn
bulbs of wild onion.[18]

Arberry has the usual translator's problem of "how best to convey in his own idiom the impression made upon his mind by words uttered fourteen hundred years ago, in a remote desert land, at the first dawn of an exotic literature. Most of those who have faced this enigma appear to have felt that 'antique' Arabic demands for its adequate presentation some kind of 'antique' English. For my own part I cannot share this view; Imr al-Qais and his kind speak into my ear a natural, even at times a colloquial language; such, I feel sure, was the effect they produced on their first audience. In the versions which I have made I have sought to resolve the difficulty of idiomatic equivalence on these lines; and I think that the result is a gain in vigor and clarity. I have also tried to follow the original rhythms, without rhyming, but not so slavishly as to be compelled by the vigor of

---

18 Arberry, The Seven Odes, p.66

cumbered the hollow places, drowned
in the night-trouble.[17]

Though travelers, scholars, and poets themselves, the Blunts fall short in conveying the magnificence of the original; the spirit of FitzGerald was invoked in vain. Their translation was never printed again.

The best translation so far achieved is that of Arthur J. Arberry, published in 1957. Here is his version given for the sake of comparison:

Friend, do you see yonder lightning? Look,
there goes its glitter
flashing like two hands now in the
heaped-up, crowned stormcloud.
Brilliantly it shines - so flames the lamp of
an anchorite
as he slops the oil over the twisted wick.
In the morning the topmost peak of El-Mujaimir
was a spindle's whorl cluttered with
all the scum of the torrent;
it had flung over the desert of El-Ghabeet
its cargo
like a Yemeni merchant unpacking his
laden bags.
In the morning the songbirds all along the
broad valley
quaffed the choicest of sweet wines
rich with spices;

---

17 The Poetical Works of Wilfred Scawen Blunt (London, 1914) II, 82.

English prosody to take in the exciting rhythms newly discovered in the East."[15] Tennyson's debt in his "Locksley Hall" to Jones' version of the "Moallaka" of Imr Al-Qais has been shown by professor E.Koeppel.[16]

The Blunts use the same metre, but the language they employ to represent the archaic Arabic is the English Biblical Style. Their version of the same quotation runs as follows:

Friend, thou seest the lightning. Mark where
it wavereth,
gleameth like fingers, clasped in the
cloud-rivers.
Like a lamp new-lighted, so is the flash of it,
trimmed by a hermit nightly pouring oil-sesame.
Nay, but ye Mujeymir, tall-peaked at dawn of day,
showed like a spinster's distaff tossed
on the flood-water.

Cloud-wrecked lay the valley piled with
the load of it,
high as in rocks the Yemani heapeth
his corn-measures.
Seemed it then the song-birds, wine-drunk
at sun-rising,
loud through the valley shouted,
maddened with spiceries,
While the wild beast corpses, grouped like
great bulbs uptorn

---

15 Arberry, The Seven Odes, p.55

16 Englische Studies, XXVIII, p.400 ff. Quotations of the article appears in English in Marie E. de Meester, Oriental Influences (Heidelberg,1915) pp.52-4.

At earliest dawn on the morrow the birds were chirping blithe,
as though they had drunken draughts of riot in fiery wine;
And at even the drowned beasts lay where the torrent had borne them, dead,
high up on the valley sides like earth-stained roots of squills.[12]

This is a sensitive and scholarly rendering which preserves the grandeur of the original. The little-used words, which the poets of the Moallakat were fond of, are meant to convey the archaic quality of ancient Arabic. Lyall's unrhymed adaptation of the "long metre", called Bacchius or amphibrachys,[13] is an attempt to render the metre of the original. It is interesting to note that Lyall in his introduction points out that "in Mr. Browning's 'Abt Vogler' we constantly find lines which completely fulfill the requirements of an English Tawil."[14] This observation, Arberry writes, "reminds us of the extent to which the Victorian poets, Tennyson among them, sought to extend

---

12 Arberry, The Seven Odes, pp.55-6.

13 In English, e.g.: Forgotten, forgotten, unwanted, he wandered.

14 Charles J. Lyall, "Some Aspects of Ancient Arabic Poetry", Proceedings of the British Academy, 1917-1918, VIII, 366-7.

The beasts of the wood, drowned in the floods of night, float, like the roots of wild onions, at the distant edge of the lake.[11]

In this direct translation, Jones does not impair the vigor of the original. The freshness of the images is retained but the compactness of the original is sacrified. His classical bias is at work in the selection of vocabulary and grace of movement.

Sir Charles Lyall translated the same "Moallaka" in 1877 and here is his version of the same passage:

O Friend - see the lightning there ! it flickered, and now is gone,
as though flashed a pair of hands
in the pillar of crownèd cloud.
Nay, was it its blaze, or the lamps of a
hermit that dwells alone,
and pours o'er the twisted wicks the oil
from his slender cruse?
And the topmost crest on the morrow of
al-Mujaimir's cairn was heaped with
the flood-borne wrack like wool
on a distaff wound.

---

11 Work, X, 18-19

intensely national stamp of the ideas, the strange local colour of the imagery, and the obstinately idiomatic style".[10]

A specimen from each of these translators should illustrate their achievements. Jones' poetic prose though obsolete, is still fairly good. Here is an example from his version of Imr al-Qais describing a rainy storm.

> O Friend, seest thou the lightning, whose flashes resemble the quick glance of two
> hands amid clouds raised above clouds?
> The fire of it gleams like the lamps of a hermit, when the oil, poured on them,
> shakes the cord by which they are suspended.
>
> The summit of Mogaimir, covered with the rubbish which the torrent has rolled down, looks in the morning like the top of a spindle encircled with wool.
>
> The cloud unloads its freight on the desert of Ghabeit, like a merchant of Yemen alighting
> with his bales of rich apparel.
>
> The small birds of the valley warble at day-break, as if they had taken their early draught of generous wine mixed with spice.

---

10 Reynold A. Nicholson, A literary History of the Arabs (New York, 1907) p.xi.

In the Literary History of the Arabs, completed in 1907, Reynold A. Nicholson, the Orientalist "Dervish", gave many translations of selected passages from the Moallakat. These versions, not of equal excellence, are distinguished by sound scholarship and a certain degree of virtuosity. In his translation of the poem of Ta'abata Sharran, a poem which had already been rendered into German by Goethe, who used an earlier Latin version, Nicholson rhymes his lines and endeavors to imitate the metre of the original. On the problem of translation he says: "In the verse-translations I have tried to represent the spirit and feeling of the original poems. This aim precludes verbal fidelity, which can only be attained through the disenchanting medium of prose . . . To reproduce a typical Arabic ode, e.g., one of the Mu'allaqat ("Suspended Poems"), in a shape at once intelligible and attractive to English readers is probably beyond the powers of any translator. Even in those passages which seem best suited for the purpose we are baffled again and again by the

still further obscured by medieval commentators, learned in everything except personal knowledge of the customs and ways of Bedouin thought . . . In dealing with these, the present translators have had the advantage of their long experience of the desert and desert practices."[8] For their method of translation the Blunts say: "A far more serious difficulty has been so to simplify and arrange the verses as to make them run easily and intelligibly to English ears. An absolutely verbal rendering of verse in another language is nearly always a betrayal . . . . Fitzgerald's free-handed method is really the only fair one, and Fitzgerald's has been the model taken by the present translators. Those portions especially of the Odes which deal with local events and tribal politics have needed a courageous handling".[9]

---

[8] Ibid.

[9] Ibid., pp. 29-30.

were sufficiently on their guard against men, whom they had irritated even to fury."[6] Jones understood the power of persuasion which is fully brought out by recitation.

Two more attempts at the courageous rendering of the Moallakat into English were made during the early years of the twentieth century. In 1903 Wilfred Seawen Blunt and his wife Lady Anne Blunt published a new translation called "The Seven Golden Odes of Pagan Arabia". Their aim was "to produce a volume, not for scholars only, but also for all lovers of strange and beautiful verse, such a volume, if possible, as was produced forty years ago by Fitzgerald, when he gifted English poetry with the glorious 'Quatrains of Omar Khayyam!"[7] The Blunts did not underestimate the difficulty of their undertaking. "The text of the Moallakat, in itself obscure, has for centuries been

---

6 The Works of Sir William Jones, vol.X, pp.23-4.

7 Arberry, The Seven Odes, p.28

means a swimmer, or a steed in the position of forelegs spread forward together. Palmer succeeded in his purpose at the price of suppressing the imaginative suggestiveness of the original.

In the Moallakat there is much that is simply untranslatable. These poems were composed to be read aloud and their charm, eloquence and vigor could be brought fully by recitation. In his "argument" on the poem of Hareth, Jones alludes to the poet Amr, "The Regicide", and to Harb al Bassos, the forty-year war between the two tribes of Becr and Tagleb in the sixth century and concludes: "This oration, or poem, or whatever it may be denominated, had its full effect on the mind of the royal empire (The King of Hira) who decided the course in favor of the Becrites, and lost his life for a decision apparently just. He must have remarked the fiery spirit of the poet Amru from the style of his eloquence, as Caesar first discovered the impetuous vehemence of Brutus's temper from his speech, delivered at Nice, in favour of King Deiotarus; but neither the Arabian nor the Roman tyrant

translation:

> But if my valour needeth warranty,
> Go ask the hero horseman of thy tribe,
> Ask them how fares it, when I once bestride
> My steed, whom every lance my turn assails,
> Now rushing singly to defy the host,
> Now plunging headlong where the bowmen crowd.
> Each glad survivor of the fierce affray
> Will tell thee truly how I love the fight,
> How little care I have to share the spoils.[5]

There is always a risk taken by translators in rendering the literature of one language into another. The versions of Shakespeare in Arabic are all pale, colorless, lacking the suggestiveness and imaginative depth of the original. It is equally similar in the case of Palmer's Antara. In comparing his translation with the original Arabic, Palmer's method, though vivid and direct, gives the implied meaning which Antara only suggests through series of images. The metaphor that suggests the steed in Antara, for example, consists of two words: the first means a special kind of saddle used for gallop, the second,

---

[5] *Ibid.*, p. 176.

gave a translation of the "Moallaka" of Antara Al-Absi, the "Black Knight", which was originally printed in the St. John's College magazine The Eagle [3]. "The imagery of the poem", Palmer says in an introduction to the poem, "though vigorous, as we might expect, is often extremely rude and erratic, passing with sudden transition from a gentle pastoral utterance to the fierce breathings of a battle and revenge; at one time dwelling fondly on the image of a beloved maiden, at another conjuring up, with grim delight, the image of a slaughtered foe. I have given it, as far as possible, in its native simplicity, without seeking, by suppression or embellishment, to adopt it to modern European taste."[4]. Here is an example of Palmer's

---

3 A.J. Arberry, Oriental Essays (New York, 1960) p. 138.

4 Arberry, The Seven Odes, p. 174.

In England three attempts at translation were made during the last quarter of the nineteenth century. In 1877 Sir Charles J. Lyall proposed in the Journal of the Asiatic Society of Bengal to publish a translation of the "Suspended Poems" with the notices contained in Kitab al-Aghani (The Book of Songs) by Abu-al-Faraj Al-Isfahani. But Lyall never realized his plan. He only succeeded in publishing a large part of the introductory matter, and some fragments of the poems. In 1894, Captain F.E. Johnson published at Bombay a translation "intended to be nothing more than an aid to the (Indian) student, and for this reason it has been made as literal as possible". This attempt "adheres firmly to the tradition of the schoolboy's Latin crib and is understandably and deliberately, without literary value".[2]

Edward Henry Palmer (1840-1883), an Oriental linguist, and the editor of the Poetical Works of Beha-ed-Din Zoheir (d.1279), published in 1877 a collection of his versions from the Persian and Arabic, together with his original pieces. In this anthology, Palmer

[2] A.J. Arberry, The Seven Odes (London, 1957) p.27.

One of the early translators of the Moallakat was Sir William Jones (1746-1794). Jones' primary concern was to give a faithful version of the original text which is extremely difficult. For this purpose he assiduously consulted the editions and commentaries of Tabrizi, Zauzini, Sadi, Ansari, and Obeidolla.[1] He succeeded in producing a faithful, phrase-by-phrase, translation which, although considered obsolete by modern Orientalists, and contains some minor errors, remains surprisingly good.

Jones' translation was gradually recognized as an important contribution to literary studies. Goethe who studied Oriental literature and greatly appreciated Jones' many-sided genius, quotes his estimate of the seven poets in the annotations of his own West-Östlicher Divan. Two German translations and studies of the Moallakat appeared in 1843 and 1857.

---

1 The Works of Sir William Jones, ed. Lord Teignmouth (London, 1807) p.xi

first, then if fortunate, would be transcribed. (Much of this poetry was circulated orally). Then the poet moves to the main topic, whether it is praise of self, tribe, or patron, war and achievement in battle, making peace between waring tribes, horsemanship, hunting, expeditions, or turns back to love or war. The style is marked by precision, subtlety of variations, and richness of diction, resulting in epigramatic terseness and dramatic intensity. The variety in diction, metaphor, and conceits are essential to redeem the monotony of the unvaried rhythm and rhyme throughout the poem which, in the case of a "Moallaka", consists of sixty to ninety lines.

The Moallakat had a literary tradition behind them. Poets ambitious for recognition would recite their choicest compositions at an annual fair held at Ukadh, near Mecca, a sort of poetical academy, and the poems voted worthy of the award were transcribed in letters of gold on fine Egyptian linen and suspended in the Ka'aba, Mecca's Holy Shrine.

The Moallakat, or the "Seven Golden Odes", or the "Suspended Poems", had a long history of translation and probable influence on English poetry. The Seven Poems are the most famous survivors of a vast mass of pre-Islamic poetry and some of the most valued poems in Arabic literature. They are pastoral, elegiac, and panegyric in mood, representing pictures of Bedouin life, and arranged in a conventional order. The poet starts by mentioning the ruins or deserted dwelling place of his beloved, or by picturing her departing caravan. Here, he commonly gives a description of a horse, a camel, or a gazelle. To this he links the erotic prelude, the violence of his passion and the beauty of the lady. This prelude might consist of various love episodes. Thus the poet should have secured an attentive audience, for the poems are composed to be recited

The Meallakat in English Literature

By: Issam Al-Khatib, Ph.D.

ADAB AL-RAFIDAIN

PUBLISHED BY

THE COLLEGE OF ARTS

MOSUL UNIVERSITY



VOLUME III

DECMBER 1971

Printed at Mosul University Press

MOSUL - IRAQ